

السيرة الحامدية - الجزء الأول

سيف النصر عشري



تأليف : سيف النصر عشري



سيدى سلامه بن حسن الراضى (رضى الله عنه)

سيدى

سلامة بن حسن الراضى

شيخ ومؤسس الطريقة الحامدية الشاذلية

رضى الله عنه وعن خليفته

سيدى

إبراهيم سلامة الراضى

شيخ الطريقة الحامدية الشاذلية

السيرة الحامدية - الجزء الأول

سيف النصر عشرى

إهداء الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين . ورضى الله عن شيخنا ومن اهتدى بهديه آمين « وبعد »

فلما كانت سيرة شيخنا رضى الله عنه أعز شيء نحتفل به ونسير على هديه فقد رأيت أن أضع لهذه السيرة العطرة كتاباً يجمع أزهارها ويقبس من أنوارها فكلفت الأستاذ « سيف النصر محمد عشرى » مدرس اللغة العربية بالمدرسة الصناعية بالعباسية ، ومن إخوان الطريق القدامى بأن يصوغ عبارته ، ويؤلف أجزاءه ، وينسق أبوابه ، فقام بهذا العمل تحت إشرافى وتوجيهى حتى جاء الكتاب والحمد لله ، وافياً بالغرض المطلوب .

ولقد أمدنا الشيخ حامد بدوى نقيب نقباء الطريق ببعض مذكرات وافيات فى كل ما يتصل بحياة الشيخ رضى الله عنه كما اخترنا من مذكرات المرحوم الشيخ إبراهيم عبد ربه أحد أصفياء الشيخ المقربين إليه بعض ما دونه عن فيوضات شيخنا رضى الله عنه فى المجالس - مما سهل وسائل التأليف . فأنا إذ أهدى هذا الكتاب إنما أهديه إلى جميع المسلمين عامة وإخوان الطريقة خاصة ، راجياً من الله أن ينفعنا وينفعهم بما فى السيرة من نفحات وبركات .

إبراهيم سلامة الراضى

مقدمة

أستاذى الأجل السيد إبراهيم سلامة

تحيات طيبات مباركات وبعد

فقد لبيت الأمر شاكراً ؛ إذ أمرتمونى مشكورين بإجابة رغبات حضرات الإخوان ، فى وضع كتاب يشمل حياة شيخنا وسيدنا السيد « سلامة حسن الراضى » رضوان الله عليه ، من نواحيها الشخصية والاجتماعية والخاصة والعامة ، وما أفاضه من علوم وأسرار فى المجالس ، وما أخذ به المريدين من سير وآداب ، فقمت بعون الله وروح منكم ، ألتقط هذه الحقائق من مذكرات حضرات الإخوان الذين عاصروا حياته المشرقة ، حتى جمعت منها حصيلة وافية ، نظمتها فى فصول وأبواب ، وصغتها فى أساليب وعبارات يجد فيها الخاصة إربتهم ، ويأخذ منها العامة حاجتهم ، ولا أدعى الكمال فسيرة شيخنا رضى الله عنه أبعد من أن يحصرها قلم ، أو تجمعها عبارات ، أو يحدها أسلوب ، ولكن مالا يدرك كله لايترك كله .

وكان أكبر ما اعتمدت عليه من مذكرات جاء من طريق الأخ الوفى والحجة الثبت الشيخ حامد بدوى نقيب نقباء عموم الطريقة

وبما حصلتُ عليه من مذكرات المرحوم الشيخ إبراهيم عبد ربه : ومن بعض حضرات الإخوان ، بما سهل لى الغاية وأدنانى من القصد ، فجزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

وما نفعنى فى سباحتى هذه الدقيقة بين تلك الشواطىء المترامية مثل مانفعنى تشجيعكم لى وتوجيهكم إياى ، والحمد لله فقد جاء هذا الكتاب الذى أسميته « السيرة الحامدية » ، على نحو يرضى به القارىء ويستريح إليه المستفيد .

والله أسأل أن ينفع به المسلمين عامة وإخوان الطريقة خاصة إنه سميع مجيب .

خادمكم الحامدى الشاذلى

سيف النصر محمد عشرى العامرى

مدرس اللغة العربية بالمدرسة الصناعية بالمباسية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله والتابعين له ولهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فقد شاء الله أن يجتبي من بنى الإنسان صفوة مختارة ، ونخبة ممتازة ، رجال آثرهم بقربه واصطفاهم لنفسه ، وصنعهم على عينه ، حجبهم عن العيون المريضة ، والقلوب المدخولة ، وجلاهم لمن كتب لهم السعادة واختصهم بالرفادة : بشرية نورانية ، أنوارهم ليست بذات ألوان وظلال يخطف فى الجو بريقها ، ويبرق فى العين ضوءها ، ولكنها أنوار قدسية تستشرق بها القلوب ، وتتلون بها الأرواح ، ويتفاعل بنشوتها الوجدان ، لاتدرى وأنت بحضرتهم أرقت أجسامهم لتنم عن صفاء أرواحهم ، أم هو نور القلب فاض على الجسم فمنحه ظله ونفله لونه .

رق الزجاج وراقت الخمر　　فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح　　وكأنما قدح ولا خمر

فى هذه الدوحة الغناء ، والروضة الفيحاء ، قامت شجرة شيخنا العارف بالله سيدى « سلامة حسن الراضى » رضى الله عنه باسقة ناضرة ، ثابتة الأصل باذخة الفرع ، ندية النسيم ، استظل بظلها السعداء ، وتنسم أرجها الموفقون وطعم ثمرتها المجدودون . فلا غرو

أن كانوا نجوماً وأقماراً يسرى فى هديهم العاشى ويستقيم فى ضوئهم البصر .

وإذا سخر الإله لقوم　　　سعيداً فإنهم سعداء

عاش رضى الله عنه ماعاش من حياة تحركت فسكن لها الدهر وسكنت فتيقظت بها الأرواح ، واهتزت فأنبتت الخير والبر والمعروف ، فإذا حاول مؤرخ أن يساير سيرته العطرة أرهق نفسه وأطال ليله . فإن سيرة هذا القطب العظيم والولى الكبير أفسح ساحة وأبعد مدى من أن يحدها الطرف ، أو يحصرها الخاطر ، ففى كل ناحية من نواحيه سيرة عامرة الجنبات ، متعددة الآيات

تضلل فى بواديها جريراً　　　وترهق فى مداها البحتريا

فأنى لنا وباعنا قصير وجهدنا قليل ، أن نحيط بها علماً ، أو نستلم إليها ركناً ... على أن هذا لايمنعنا من أن نحاول أن نرسم لها صورة تلم لنا بعض ما تفرق ، وتجمع إلينا شيئاً مما تبعثر ، يعيد للسالك فى أفيائها طريقاً ينفحه بنفحات ، ويلطفه بباقات .

نسبه الشريف

يتصل نسبة الشريف بسيدى « أبى طقية » رضى الله عنه الكائن مسجده وضريحه ببلدة « ريدة » من أعمال مركز « المنيا » ، وجده القريب سيدى العارف بالله « حامد الريدى » المقام مقامه وضريحه ومسجده بمدينة « المنيا » وكان من أسرته الكريمة عمه

السيد «عبد الرحمن» وقد عاش طول حياته صائماً قائماً ناسكا .
ومنها الولى المقرب «الحاج ناصر» وضريحه عند باب درب محجوب ببولاق مصر . وقد تحولت أسرته الكريمة من الأراضى الحجازية واتخذت «ريدة» مقراً لها، ثم انتقل أبواه إلى القاهرة حيث نزلا فى بيت مجاور لسيدى سعيد ببولاق .

مولده

تنفست ليلة ١٦ رجب الفرد من عام ١٢٨٤ هجرية الموافق عام ١٨٦٧ ميلادية عن مولده الكريم ببولاق بمنزل يجاور مسجد سيدى سعيد رضى الله عنه، من أبوين شريفين، فوالده السيد «حسن سلامة» المكنى بالراضى وكان يصلى فى كل ليلة مائة ركعة تهجدا . وقد سافر إلى الحجاز سيراً على الأقدام، ووالدته السيدة الشريفة «بدوية» وهذه قد بلغ من صفاء معدنها أن رأت ليلة القدر أربع مرات — وكان لفرط شفافيتها تشاهد المؤمنين من الجن والكثيرين من الأولياء المنتقلين رضى الله عنها وعنهم أجمعين .

أبناء الشيخ

كان لشيخنا رضى الله عنه من زوجته الكريمة السالفة أربعة أبناء هم : سيدى محمد، وكان يشغل وكالة الطريق فى عهد والده، وسيدى محمود، وسيدى حامد، وسيدى إسماعيل، وقد توفى

الأخير فى حياة والده ، وبنتان اقترنتا ببعض إخوان الطريق وقد تفرع منهم فروع مباركة طيبة ، أمد الله فى حياتهم جميعاً .

ولما توفيت زوجه الأولى اقترن بزوجه الكريمة الحالية — أمد الله فى حياتها — ويكفى فى فضلها أنها من أصلاب أبناء الشيخ الروحيين ، فأنجب منها ثلاثة أبناء مباركين ، أصغرهم سيدى حامد وهو الآن طالب بكلية التجارة بجامعة القاهرة كتب الله له النجاح والتوفيق ، وأكبرهم سيدنا وملاذنا وقطب طريقتنا سيدى إبراهيم سلامة الذى أسندت إليه الخلافة بعد أبيه ، أعانه الله على تكاليف الجهاد ونفع به العباد والبلاد ، وأوسطهم سيدى أحمد فؤاد الذى توفى فى الأشهر الأولى من ولادته أثر مرض مفاجئ .

ولقد وجد عليه الشيخ وجداً شديداً ، أثر فى ذراعه اليسرى بضعة أيام — ومن عجيب ماروى عنه فى هذه المناسبة أنه لما أبلغ بتسميته « أحمد فؤاد » قال إنه مفقود وقد كان ، فلم يعمر طويلا ، أما البنات فهن أربع تزوجن جميعاً من خيار إخوان الطريق ، جعلهم الله جميعا من أهل السعادة .

وقد كان الشيخ رضي الله عنه عطوفاً على أولاده جميعا باراً بهم دائب السؤال عنهم ، يختصهم بحنانه وقلبه ويرعاهم بعينه حتى شبوا جميعا على عرق من الدين وأصل من الفضيلة ، ولا عجب فهم بضعة نفوس مطمئنة ، وفروع شجرة كريمة ، ونبعة عين صافية ، رضى الله عنهم .

طفولته

حفظ رضى الله عنه القرآن الكريم وتعلم مبادئ غنية من الحساب وأجاد الخط الفارسى فى مطاوى السنة السادسة من سنه . ووضع كتيباً فى الأدب والأخلاق فى التاسعة من عمره المبارك ، وتحتفظ المكتبة الحامدية بنسخة منه إلى الآن ، وإليك صورة خطية من يده الكريمة .

بدء عمله

باكر رضى الله عنه حياته العملية وهو فى الثالثة عشرة من سنه فى الخاصة الملكية بمرتب لا يزيد عن مائة وخمسة وسبعين قرشاً — وما زال يتدرج فى عمله حتى وصل إلى منصب كبير قيد عليه بمرتب خمسة وأربعين من الجنيهات فى الشهر .

مكانته فى الديوان

كان رضى الله عنه سمح الطبع سهل المخالطة مشرق الحديث باسم الوجه أبداً أعطى للعمل إخلاصه كله ووقته كله ، وكان رقيقاً فيه لا تَنِدُّ عنه سانحة ولا بارحة ، ولم يذكر عنه أنه وُجِّه إلى شئ أخطأه ، حريصاً على ميعادى الذهاب والإياب ، وقد أعفى من توقيع دفتر حضور الموظفين ومع ذلك كان أسبقهم جميعاً حضوراً وأبطأهم جميعاً انصرافاً ، وكان وهو رئيس كما كان وهو مرءوس لم

يشعر أحداً من مرءوسيه بقسوة أمر أو باستعلاء رئاسة ، بل كان يقوّم صغيرهم ويرشد متخلفهم ، بإشارة خفيفة وابتسامة رقيقة . فلا غرو أن يألفه الموظفون جميعاً ، ويقدره ويحبه الموظفون جميعاً على تمايز أديانهم وتفرق جنسياتهم واختلاف مشاربهم ، حتى أن كثيراً من المسيحيين كان يختلف إليه بين الحين والحين عندما اعتزل العمل وأحيل على المعاش ، وقد فطن إليه من كانوا يعملون معه ، فاتخذه الصغير أباً والكبير أخاً يستشيرونه فى أحوالهم الخاصة ويلتمسون منه الدعوات والبركات .

وقد ترك للديوان أثراً منتظماً من عمله ، وإصلاحاً شاملا من صنعته اتخذه من بعده قاعدة ومتكأ .

ميوله الدينية

قلنا إن شيخنا رضى الله عنه تلقى أول تعليمه فى « كتّاب الحى » فحفظ القرآن الكريم فى سن باكرة ثم وجه إلى التعليم المدنى فسار فيه شوطاً ، إلا أن ما كان يدرس فى هذه المدارس لم يكن يشبع رغبته ولا يلائم طبيعته ولا يساير فطرته فعزفت نفسه عنه وتحول بكليته إلى نوع آخر من التعليم سكنت عنده نفسه واطمأنت إليه جوارحه وتيقظ فيه وعيه ، ذلك هو علوم التصوف ، فانخرط فى صفوف الصوفيين وتربى فى أحجارهم وشرب من مناهلهم وتشكل بمعارفهم ، وما زال فى هذا السبيل يغدو فيه ويروح ويسقى منه ويطعم ، إلى

أن امتلأ قلبه وتفتحت روحه وانقدحت شرارة المعرفة فى كيانه وفاضت الحكمة على لسانه .

وقد كان رضى الله عنه ملحوظاً من صغره بعناية طائفة من الأولياء وخيرة من الأصفياء مثل سيدى « ملوخية » القائم ضريحه ومسجده ببنى سويف ، وسيدى الأعصر القائم ضريحه ببهتيم ، وسيدى الشيخ عبد الله المسلمى المشيد ضريحه بالشرقية ، وسيدى عزيز روحه المشرق ضريحه ببولاق وجميع هؤلاء أعلام مشهورون وأولياء مذكورون أضرحتهم مزارة وموالدهم حافلة ، وبركاتهم ظاهرة رضى الله عنهم جميعا .

أشياخه

أجل شيوخه وألصقهم بقلبه وأحبهم إليه ، سيدى الشيخ مرزوق العلامة المالكى والحجة الثبت وإليه كان شيخنا ينتسب ، فحبب إليه الذكر والخلوة والصيام حتى ، صفت روحه وأشرقت شمسه ورقت بشريته ووضحت أمامه معالم الهداية والرشاد .

بدء جهاده

قلنا إن شيخنا رضى الله عنه قد لاحت أمامه معالم الطريق بعد أن صفت روحه من العلاقات الحاجبة وتطهر قلبه من أكدار

الدنيا وشوائب الحياة وشاهد ربه بعين بصيرته ، وتحقق بحقيقة الأسرار الربانية وتطهر فى بحار الأنوار القدسية .

شربت بها كأساً سكرت بخمرها أخذت بها عنى فقولى لدهشتى

حقاً إنه شرب هذه الكأس حتى الثمالة ، فتمايل من سكرها وترنح من خمرها وغاب فى سرها عندما انفصل عن حسه ، وخرج من نفسه وتلطفت روحه بعذب رحيقها وطيب نكهتها . على أن هذه المراتب التى وصل إليها واستوى على عرشها لم تأته عفواً وتطرق بابه طرقاً فما أكثر ما أحفى قدميه وأورم ركبتيه وأطال من سجدة وأذرف من عبرة وقطع من ليلة وأدمى من جبهة ، اسمع منه رضى الله عنه إذ يخبر عن نفسه فيقول :

« واعلم أنى ذكرت الله كثيراً ، فمن أورادى أنى كنت أذكر لا إله إلا الله فى الليلة الواحدة اثنى عشر ألف مرة ، ومكثت على ذلك الأعوام ، ثم كنت أذكر الله بالاسم المفرد « الله » فى كل ليلة ثلاثين ألف مرة وداومت على هذا الاسم ست سنين وكنت أصوم من السنة نحو ثلاثمائة يوم ومع الصيام أداوم على الرياضة غالباً فيها فلا آكل مافيه روح ولا خرج من روح وأصلى الصبح بوضوء العشاء عدة من السنين وكنت لا أدع الوضوء فكل أحيانى أكون على طهارة ؛ واعتزلت النساء فى المضاجع ومكثت أعزب مدة تقارب السنتين وكان لى مسبحة طويلة غليظة

يبلغ طولها ذراعاً ونصفاً وحباتها فى حجم الليمون الصغير . وكنت لا أجالس أحداً من الناس إلا قليلا من إخوانى فى الله ، ومع هذا كنت أصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ليلة نحو ساعتين من الساعات العادية ، فوق أنى كنت مصاباً بداء البواسير أنزف الدم الغزير العبيط الأحمر القانى الذى يستمر الشهر والشهرين من الزمان حتى صرت نحيفاً ضئيلا ضعيفاً مصفر اللون كأنى نشرت من قبر ، أوكأن الله لم يخلق فى جسمى دماً ، فضلا عما كان يصادفنى من أهلى ومن الأصحاب وبقية الناس من العذل واللوم ومن الشماتة والتوبيخ والزجر والتعنيف ، وكل هذا لم يثن عزمى عن التوجه إلى الله تعالى ، ومع هذا كله لم يفتح الله عين بصيرتى ، ولم أفز بالوصول ولا ببارقة أو لائحة إلا الشئ النذر اليسير الذى يكون عند أهل الطريق لأطفالها ، بل ربما يقع لبعض العوام الذين صفت بواطنهم من ذكر الله الكثير — فلما ضاقت نفسى وكدت أن أقع فى اليأس بعد جهادى الذى أشرفت فيه على الهلاك وبذلت فيه روحى وتخليت من دنياى ولم أبال مافاتنى منها ، وهجرت أصحابى وخالفت كل عاذل كل هذا ذهب هباء منثوراً فى أدراج الرياح والحبيب لم يسمح بنظره والباب لم يفتح للسكين فصرت حائراً باهتاً وعلمت أن هذا الأمر لايخرجنى عنه إلا عناية الله ثم بركة أشياخى ، وقد كان وقتئذ أستاذى غائباً فى سفر ولم يتيسر لى مواجهته أو مكاتبته ، ووجدت نفسى منقطعاً فتوجهت

بقلبي إلى ربي أرجو من رحمته ما أهتدي به سواء السبيل ، فلم أشعر إلا والهاتف قد ناداني « ياهذا إنما الحيلة في ترك الحيل » ، فعلمت أني في مجاهدتي التي سرت فيها بهذه الشدة كنت محتالا وأن الحق عزيز لا ينال بالتعمل ولا يوصل إليه بحيلة وأن الوصول لا يكون إلا بمحض فضله ومنه ، فألقيت سلاحي وقلت من حدة السير إشفاقاً على حياتي ، وداومت على ذكر الله لا لعلة وصول ولا غيره ، فوافاني من ربي الرضا ونور قلبي وهداني طريقه ، ومنّ علي وأنعم وتكرم ، فله الفضل والمنة .

شكله بعد اكتمال نموه

كان رضي الله عنه آدم اللون خفيف شعر اللحية قصير شعر الرأس حاد البصر قوى السمع طويل القامة قليلا ، ممتلىء الجسم في غير ترهل قوى البنية .

زيه

كان يرتدي بحكم عمله الملابس الأوروبية واسعة فضفاضة . وكان « طربوشه » يملأ كل رأسه — فإذا أعفى نفسه من عمله اليومي استبدل بهذا الزى عمامة مكونة من خرقة خضراء حول طربوش قائم ، ثم جبة وقفطاناً يدير عليه حزاماً من قماش يعقده على بطنه أحياناً وتختفي عقدته تحت طيات جبته أحياناً أخرى ،

وشالا يأخذ به جسمه من أعلى رأسه إلى أسفل كشحه — وخاتماً من فضة تعلوه حبة من ياقوتة حمراء يديره فى بنصر يده اليمنى ، وعباءة يلتف بها ماشياً ويريحها على ركبتيه جالساً — فاذا ماتحلل من المجلس تخفف من ملابسه تلك بوضع « طاقية » على رأسه ، وإسبال ثوب على جسمه .

عاداته

فى الجلسة : يجلس متربعاً ويستر نصفه الأدنى بشال أو عباءة ويعتمد بمرفقه على الوسادة إلا إذا كان يقرأ فى كتاب فإنه يريحه على كفه الأيسر ويقلب صفحاته بأصابع يده اليمنى وإذا أقبل على الإخوان أقبل عليهم بوجهه كله ، ولا يشير بيده إلا لتعيين مكان لقادم أو لتوضيح غامض فى مناقشة .

فى المشى : كان سريع الخطوة ، يرهق مَن وراءه ، وإذا صعد درجاً قطع أكثر من أربع طبقات فى نفس واحد وبطرق نعل مسموع .

فى الأكل : يأكل مما يقدم إليه ، وإن كان يميل إلى السهل الخفيف وليس له نظام مطرد فى مواعيد الوجبات أو نوعها فربما طلب «الطعمية» لوجبة عشاء يتناولها فى منتصف الليل وربما كفته الوجبة الواحدة مدار يوم وليلة — فإذا كان الطعام بين يديه عمد إلى الرغيف يشطره شطرين ويقتطع من أيهما لقمة يغمسها فيما بين

يديه من إدام ثم يتناولها فلا تشغل من فمه إلا حيزاً ضيقاً لا يعوق كلامه ولا يمنعه من الاسترسال ، فإذا فرغ من طعامه قلب الصابونة بين يديه حتى ترغو فيضع رغوتها مع قليل من الماء يتمضمضه ثم يمجه فى الطست ويستزيد الماء على يديه إلى أن تتخلصا فيجففهما بقطعة من قماش ، ثم يشعل له أحد الإخوان « لفافة » من التبغ يحرقها مع احتساء كوب من شاى أو فنجانة من قهوة .

ومن عاداته الطريفة أنه كان لا يأتى على مطعوم أو مشروب بل يترك منهما بقايا غنيات — فاذا احتسى من الشاى أو القهوة احتسى النصف أو ما يزيد عليه قليلا ، ثم ترك الباقى فتتخاطفه الإخوان فى شغف ملحوظ . وإذا شرب الماء شربه مصاً فى ثلاثة أنفاس .

فى التدخين : كان يسرف فى التدخين فأخذته موجة من سعال ترك على أثرها الإكثار منه واستبدل السعوط به ، وكان إذا أمسك باللفافة ظهر أعلاها وبطن سائرها فى طيات أنامله .

فى الخلوة : كان رضى الله عنه يتمدد فى خلوته ويكلف أحد الإخوان بأن يقرأ من كتاب يعينه فإذا كان فى أثناء القراءة يلحظ القارئ فيه هدوء النعاس فيكف فإذا بالشيخ يستحثه على استئناف القراءة فيستأنفها والشيخ فى غمضات النوم ، حتى إذا هم من مرقده ناقشه فيما قرأ جملة جملة ، ومعنى معنى ، كأنه كان فى يقظة ناشطة وإدراك تام .

في الصلاة : كان رضي عنه يستخلف في صلاته أحد الإخوان ولم يُر إماماً إلا قليلا ، فإذا دخل في صلاته سمعت لقلبه وجيباً باكياً وصوتاً خاشعاً ، وصدًى ذاكرًا ، فإن ركع كان رأسه في مستوى واحد مع ظهره ، وإذا سجد بطح وجهه كله على الأديم . فإذا كانت صلاة الجمعة تخير أو تخير له الإخوان مسجداً في العاصمة إلا إذا كان في بيته ، فمسجد الشيخ سليم ، وكان يضايقه خطباء الجمعة ، وهم يروحون ويغدون في كلام مكرر مملول . وكان كثيراً ما يصطحب بعض الإخوان عند أداء تلك الفريضة ، وإذا توضأ صلى بوضوئه أوقات متواليات .

في الحضرات : كان رضي الله عنه يفتتح الحضرة ويختتمها ، فإذا كان الذكر من وقوف مشى بين الصفوف يجمع القلوب ويوقظ الهمم وينبه الغافل ، فإذا انتهت المصافحة سلك طريقاً بين حشدهم الحاشد إلى عربة تنقله إلى مجلس يمتد رواقه إلى منتصف الليل .

في المناقشة : يطرح السؤال على الإخوان ثم يتلقى إجاباتهم مناقشاً ومصححاً ومستدركا حتى يستقر الجواب على وجه صحيح ، وكان إذا سار في مناقشة أحد الإخوان سار معه خطوة خطوة ، ودرجا درجا ، ثم يتركه شيئاً ما ، فإن انتهى إلى معالم الجواب فذاك وإلا سنده وقوّمه حتى يرشده إليه ، إلا إذا ضلت بوادي الإجابة عن تفكير الإخوان ، وحفيت في الوصول إليها أقدامهم

انبرى رضى الله عنه إلى السؤال لحل عقدته وكشف لغزه بأسلوب واضح ومنطق أخاذ ينير السبيل ويقشع الحجب .

الخمرة الإلهية

ثم يستطرد رضى الله عنه ، فيمتح من هذا العباب الزاخر والفيض الغامر فيقول :

«واعلم أن شهود أنوار سر الخمرة الإلهية ، قد يقع للسالك فى لحظة ثم يذهب أى يرخى الحجاب وقد يدوم قليلا أو كثيراً . وقد يستمر إلى آخر العمر ، ولقد قيل إن أبا يزيد البسطامى عاش فى سكر المحبة ومات فى سكرها ، وسيبعث فى سكرها ويدخل الجنة فى سكرها ، يزيد ظمأ كلما تزايد شربه ، جعلنا الله منهم إنه حليم كريم » .

التصوف

أملى شيخنا رضى الله عنه على بعض الإخوان هذه المذكرة عن التصوف فقال :

« أما حد علم التصوف : فهو علم يعرف به كيفية تصفية النفوس من الأوصاف المذمومة . وأما موضوعه : فأفعال القلوب على الوجه الأهم وأفعال الجوارح بالتبعية من حيث تنقيتها ، وأما ثمرته : فالحصول على السعادة الأبدية والفوز برضا الله . وأما فضله : فهو أعلى العلوم لأنه متعلق بالأعمال الموصلة إلى الله تعالى . وأما

نسبته إلى العلوم الأخرى : فكنسبة الثمرة إلى الشجرة ، وأما الواضع له : فهو الحق سبحانه وتعالى من حيث الأصل يعنى بنزول الآيات الآمرة بالتخلق بالأخلاق المحمودة ، والناهية عن التعلق بالأخلاق المذمومة ، فالواضع له هو الحق تعالى من حيث الأصل ورسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث التفصل ، والتابعون رضى الله عنهم من حيث التلقين ، وتابع التابعين من حيث النشر والتدوين والإفادة ، وأول واضع له منهم أى من تابع التابعين هو الحارث المحاسبي ، ثم جمهور من أهل التصوف ، من ضمنهم صاحب الرسالة القشيرية ، والرسالة القشيرية أهم وأعظم كتاب وضع فى هذا العلم ، وأما اسمه : فالتصوف نسبة إلى لبس الصوف أو إلى أهل الصفة الذين كانوا فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس معهم ويقول : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، أو نسبة إلى الصفاء — واللائق بنا فى زمننا هذا أن ننسبه إلى لبس الصوف ، وأما استمداده : فمن الكتاب والسنة وأقوال المشايخ المجربين ، وأما حكم الشارع فيه : فالوجوب العينى لأن تصفية القلب من الرياء والكبر والحقد والحسد وحب الدنيا والغيبة والنميمة وما أشبه ذلك واجبة على كل إنسان ، وأما مسائله : فقضاياه التى تحدث بالإنسان فى حال سيره . . . انتهى ».

من هـــذا ظهر فضل علم التصوف ، وظهر معه أهل الحق

الصوفيون ، وعاشوا ردحاً كبيراً من الزمن يتناقلون هـذا العلم ويتدارسونه ويعملون به ، وقد كان له مكانتـه الزاهرة وحلقاته العامرة أيام صاحب الرسالة القشيرية ، فقد كشف فى هذه الرسالة عن منبعه العـذب ، وأفاضه على النـاس شهداً روياً ، حتى إذا ماقضى إلى رحمة ربه ابتدأ الوَنى يتمشى فى أعضائه ، والفتور يعمل فى أوصاله ، حتى اختار الله له علماً من أعلامه وفارساً من رجاله ، ذلك هو القطب الغوث سيدنا العارف بالله سيدى على أبو الحسن الشاذلى رضوان الله عليه وعليهم أجمعين فرمم صدوعه وضمد جروحه وتغلغل به فى سويداء قلوب الجِلَّة المختارة من أصحابه ومريديه ، فتتلمذ عليه الكثير من أصحاب العلم والفضل ، واستقى من مناهله الغادى والرائح وركن إلى ظله من كان له قلب ، وأصبح سيدى أبو الحسن رضى الله عنه كعبة القاصدين ومنهل العارفين وأستاذ الجيل ، تطامنت له الرءوس ونكست عنده الرقاب وبايعه أصحاب المقامات ، وشهد له أرباب الكرامات ، فشرَّقت تعاليمه وغرَّبت ، وأشرقَتْ مبادئه وأزهرت ، واعترف السابحون فى بحور علومه بأن نهاية السالك تنتهى عند هذا القطب الكبير والأستاذ الخبير ، المدثر بأنوار ربه ، المزمل بقدسية المعطى الوهاب — وبما أن الإنسان خلق لا ليعيش أبداً ولا يبقى سرمداً ، فقد نقل رضوان الله عليه إلى الرفيق الأعلى ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وبقيت طريقته فتية قوية زمناً ، ثم داخلها الفتور ولاحقها العثار ،

لأن محركها المسيِّر وقائدها المقدم تخلى عنها ، ووزعت بين أقوام فاتهم أن يحسنوا القيام عليها والسير بها ، فما زالت شعلتها تخبو شيئاً فشيئاً وتتضاءل رويداً رويداً حتى صارت اسماً من غير مسمى ، وكلاماً فى السطور لا فى القلوب ، فقيض الله لها عوناً وكفلها بسند وأمدها بمدد ، فانصدع فجرها من حندس ليلها الحالك وسمائها الضريرة النواحى وضبابها المسف فوق الأرض هيدبة فأشرقت الأرض بنور ربها ، وتقشعت سحب الأجواء بشمس السماء ، واهتزت الوديان ، فأنبتت الخير وارفاً والمعروف فارعاً والبر فياحاً ، ذلك هو السيد العارف والولى الواصل شيخنا السيد سلامة حسن الراضى ، رضى الله عنه .

التجديد

أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل وأنزل معه التوراة فيها هدى ونور ، فأخذ بها قومه ، وطبق عليهم أحكامها وجاهدهم بها جهاداً شديدا ، حتى قام بها من قام وضل عنها من ضل ، ثم مضى سيدنا موسى عليه السلام إلى جوار ربه الكريم وأخلف من بعده خلفاً من قومه راحوا بدداً بين أغراض الشهوات ونوازع الأعراض ، فضلوا عن الهدى ، وانحرفوا عن الطريق ، فجدد الله معالمه حين جدد المسيح عليه السلام دارس التوراة بإنجيل من ربه ، فسح الأرض شرقاً وغربا ، وحمل مشعل

الهداية بين الناس ، ينير لهم طريقهم إلى الله ، ويرشدهم إلى مافيه صلاحهم دنيا وأخرى ثم رفعه الله إلى السماء بعد أن ترك فيهم قبس الإنجيل يحميهم من الزيغ ويحميهم من الضلالة ويعصمهم من الزلل ولكنهم شطوا عن حدوده ، وتجاوزوا شروطه ، وراحوا فى هوى مرد ودنيا غاوية ، إلى أن قيض الله للبشرية منقذها الأعظم ، ومطهرها الأكبر ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، وسنده بعون من القرآن وقوة من لدنه فربى وهذب وقوم نفوساً وأرشد ضالا وهدى زائغاً ، فاستقرت تعاليمه فى العقول واطمأنت مبادئه فى القلوب ، حتى نقهت الإنسانية من أوضار الجهالة ، وشفيت من أقذار الغواية واستقام ظلها على حدود الدين والإيمان وكفل شرعه حاجة البشر إلى آخر الحياة ، فكانت رسالته خاتمة الرسالات وكان هو خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم . ولكن الله عظمت منته تطول على عبيده بتسخير جلة من العلماء ونخبة من الأصفياء ، يقومون على تراث رسول الله صلى الله عليه وسلم أمناء عليه ، أوفياء له وجعلهم فى وظيفة الدين كأنبياء بنى إسرائيل ، فلا ينقضى زمن ويقبل زمن إلا ومعه من الهداة هداة ومن النور مشكاة حتى جاء القرن الرابع عشر من هجرة سيد المرسلين فجاء بمجلى لا يشق له غبار ، وسند لا تخبو له حجة ، وولى كامل ينظر بنور الله ، ونفله من العلوم والمعارف غذاء الأرواح وقوت القلوب ونور الإيمان ، فقام أميناً ومضى كريماً وسار فى الناس سيرة المرشد الفاتح والهادى

الناصح ، حتى استجابت له القلوب ودنا منه البعيد ، واختلف إليه القريب ، ينهلون من بحر معارفه ويغترفون من ينابيع قلبه طهوراً يزيل الغاشية ونوراً يرفع القذى ورويا يذهب الشجى كالشمس تأخذ الأرض منها حرارتها ، والنباتات قوتها والأجواء ضياءها ، والكواكب أنوارها والأبدان قوتها وفتوتها . ولو ترسمت طريقه ووطئت خطواته لدرجت إلى السماء ووصلت إلى الصفاء وغرقت فى بحار أنوار الإشراقات الإلهية ، وتمتعت بمكشوفات الأسرار الربانية وفنيت عما سوى الله .

لعلك فى شوق الآن أن تعرف من هو هذا الذى لازمته تلك النعوت وصاحبته هذه الصفات ، وميزته قرائن أحواله فى أفق كماله ، إنك عرفته بشذى عرفه وظل شخصه وأثر خطوه ، فاسبقنى بالإفصاح عنه لترطب لسانك باسمه الكريم ، ستقول إنه السيد المعروف والولى الكامل السيد « سلامة حسن الراضى » ، أجل ياعزيزى ، إنه هو ، وهل يخفى ابن جلا .

كان نقطة التحول بين عهدين : عهد مضى بخيره وشره ، وعهد أقبل جلس فى صدره ، ففتح كنوز المعارف المطمورة فى أرض النسيان وأهداها إلى الناس لآلىء وجواهر منظمة فى قلائد من حكمه ، وأبياتاً من شعره ونثراً من كلمه ولفتة من إشارته ، فشرف به الزمان والمكان ، وانتفع به القاصى والدانى ، رضى الله تبارك

وتعالى عنه ، ونفعنا بعلومه ، وسقانا من رحيق أسراره كئوساً مترعات وأقداحاً مشبعات آمين .

التتلمذ على الأشياخ فرض عيني

القلب نور بطبيعته شفاف بماهيته ، ولكنه محجوب بالأكدار مطموس بالأغيار ، مستور بسحب الأمراض ، محاطة شمسه بثوب الحنول ، ولا يستطيع صاحب القلب المغلف بأوساخ الحقد والحسد والكبر والغيبة والنميمة والتكالب على الدنيا وما إلى ذلك ، أن ينطلق على هدى قلبه وأنوار روحه لأنه ملفوف بظلمانيته مكفوف بأمراضه ، إلا إذا أزال هذه الأوساخ وتخلص من تلك الغيوم — ولا يستطيع المريض أن ينجو من مرضه إلا بطبيب ، وكذلك لا يستطيع المغلوب بشهواته أن يغسل أقذار قلبه إلا بطبيب ، وطبيبه فى تلك الحالة هو الشيخ الكامل المجرب الخبير ، فإذا دخل المريد فى مشفى شيخه تعهد قلبه بالعلاج ، فما يزال يطبه ويصف لكل مرض علاجه ولكل علة دواءها ، حتى تزول علله علة إثر علة — وكما أن علاج العين يخالف علاج الصدر ، وهما يغايران علاج البطن ، فكذلك علاج القلب من الحسد غير علاجه من حب الدنيا وهكذا ، إلا أن الأمصال الشافية للجسم معروضة فى صيدليات الأسواق . ولكن أمصال القلب لا توجد إلا فى صيدلية الشيخ ، لذلك وجب على كل مسلم أن يتتلمذ على شيخ مُلم بأحوال القلوب ،

والمبادرة إلى الالتحاق بمدارس الشيوخ أكثر فائدة وأعظم عائدة ، لأن الشيخ إذا تولى قلب المريد قبل أن يران عليه حرسه من جرائيم نفسه ، وزاد عنه نزغات شيطانه ، واحتجزه عن مساقط البلاء فيعيش على فطرة سليمة وعافية كاملة ، أما إذا تباطأ المريد عن الانخراط فى أستاذية شيخ تشعّفن قلبه وتكاثفت حجبه ، وعمى أفقه وطال يومه وأرقت عينه وامتد أمله حتى يكتب الله له الشفاء ، ولقد صدق من قال « الوقاية خير من العلاج » ومن فضل الله على أبى الحسنين سيدنا على كرم الله وجهه أن الإسلام احتضنه صغيراً فلم يلوث قلبه وثن ولم يشغل ضميره كفران وتلك من أكبر مميزاته عليه السلام ، فإذا عقلت ما كتبت إليك أيها القارىء الفطن فانج بنفسك وخالف شيطانك وسارع إلى مجالس الأشياخ فاسمع منهم وافهم عنهم ، فإنك سترى الحق حقاً وما عداه فهو باطل ، وأن الدنيا بجميع ماحوت من أكاذيب النعيم والفتن لا تساوى من تلك الجنة التى تمرح فى ظلالها وتأكل من قطوفها وتتنسم من أريجها قلامة ظفر أو نخامة خنزير فى يد مجذوم . وقبل أن تسمع إلى هؤلاء الماديين الذين ظهروا حديثاً ويدعون مذهب الوجودية هراء مايقولون ، أقبل على مجلس من مجالس الشيوخ ، وافتح قلبك إلى ما يقال فيه من قول ، وما ينثر فيه من معارف ، وما ينظم فيه من حكم ، فإنك ولا شك ستستبين الهداية من الضلالة ، والنور من من الظلمة ، وقوة اليقين من شطط الانحراف والشكوك ، وستعلم

أن للكون خالقاً مدبراً وقادراً مسيطراً ، وحقيقة سرمدية يقوم بقوميتها كل كائن حى ، وعندئذ ترزق قوة التمييز ، وينبلج أمام بصيرتك نور اليقين .

ألا كل شئ ماخلا الله باطل   وكل نعيم لا محـــالة زائل

أي عزيزى المؤمن : إن هؤلاء الملاحدة الذين ينكرون الأديان ومبادئ الشرائع لا يفعلون ذلك عن عقيدة ، لأن الله أظهر فى نفسهم وأسرى فى روحهم وأجلى فى عقلهم من أن ينكروه بمثل هذه الآراء الخرقة والأكاذيب الملفقة ، والحجج الواهية — والحقيقة أنهم لما ثقل عليهم تكاليف الدين ، واشتدت على قلوبهم قيوده ، وضعفت كواهلهم المهزولة عن حمل أمانة الله فى دنياهم ، لينالوا رضوانه فى أخراهم : تحللوا من أثقال الشرائع ، ومئونة جهاد النفس بجحود الله جل ثناؤه ، ونبذ طاعته وأحكامه فسحقاً لهم . لقد جاءوا شيئاً إدا ، تكاد تشقق له السماء وتخر الجبال هداً فدعهم فهم إخوان الشيطان ووقود النيران :

والزم باب ربك   واترك كل دون
واسأله السلامة   من دار الفتون

لذلك عرف الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، أن نور اليقين لا يشع إلا من قلوب الأشياخ ، وينابيع الهداية لا تفيض إلا من معينهم ، فشمروا عن ساق ، وكشفوا عن ذراع ، وعدوا إلى

الداع — ومن هذا الداع غير ابن بجدتها ، وفارس حومتها ، وكاشف غمتها ، السيد السند والحجة الثبت ، والواصل الكامل السيد « سلامة حسن الراضى » شيخ الطريقة الحامدية الشاذلية رضى الله عنه . نعم لقد أقبلوا عليه وجلسوا بين يديه واستمعوا إليه ، فامتلئوا من روحه وقبسوا من نوره ، فكانوا نجوماً يهتدى بهم إذا دجى ليل الخطوب ، وأظلمت جوانب القلوب . حشرنا الله فى زمرتهم ، ونفعنا بهم آمين .

البعث

إن للبيت رباً يحميه ، فما كادت تغرب شمس الشاذلية وراء الأفق وينجر على مبادئ أبى الحسن رضى الله عنه ثوب النسيان ، وتنطمس منها معالم العرفان ، حتى قيض الله لها سيدى سلامة الراضى رضى الله عنه ، فرفع أعلام طريقته وجدد دارس تعاليمه وأطعم القلوب غذاء روحانيته . أجل لقد علم وثقف ، وربى وهذب ، وسار فى الناس يؤلف القلوب ويجمع الشتات ، ويرد الجامح ويهدى الضال ، وينشر فيهم تعاليمه الإنسانية وآدابه الربانية ويغرف لهم من مشربه الطهر وزلاله العذب ، ويروض أصحابه بالآيات البينات ، والحكم الغاليات والمواعظ الهاديات ، تارة فى شعر مصقول يبهر العقول ، وتارة فى كلام منثور ، رقت عبارته وسلست معانيه ، وأخرى فى أزجال يدانيها إلى أفهام العوام حتى لا يفوتهم إكسير حكمه الغالية

وروحه العالية ، ورابعة فى مواويل تتشرب معانيها القلوب وتمتص مغزاها العقول حتى استقاد له العصى ، وألقى المسافر بين يديه عصا التسيار . فلا غرابة أن سرت روحه فى أرواح مريديه وجرى سره فى كيان محبيه ، فظهرت أنوارهم القدسية ، وفاحت رياضهم الندية ، ومشت بأحاديثهم الركبان .

لقد شعر رضى الله عنه ، بأن الله قد اختصه بأمانة وحمّله رسالة ، فلابد من أن يؤديها على وجهها الأكمل وجانبها المرضى . لذلك أخذت الطريقة منه كل تفكيره ، وشغلته عما سوى الله ، فأفرغ وقته كله لإخوان حضرته وتلاميذ مدرسته ، فكان فى صدر النهار يسعى لرزقه فى عمله الحكومى ، حتى إذا أعفى منه اقتعد مكان الإرشاد ، فما يزال ينتقل بتلاميذه من زهرة إلى زهرة ومن دوحة إلى دوحة إلى أن يتقدم الليل وتميل النجوم إلى الأفول ، لا يستطيب لنفسه راحة ، ولا يعتزل عن إخوانه لتناول طعام ، بل يحمل إليه الأكل فى المجلس ، فيكون والله نصفه طاعماً والنصف الآخر للإخوان ، وهل يستطعم مأكلا أو مشرباً أو مضجعاً من نصب نفسه للهداية ووقف وقته للإرشاد .

اعتراف المشيخة به

ترامى ذكر الشيخ إلى جميع الجهات ، فعـــبر البحار واجتاز الفلوات ، فتسامع الناس به وتهافتوا عليه ، حتى أصبح مرمى كل عين وكعبة كل قاصد وحبيب كل قلب ، فسارعت المشيخة الصوفية إليه عدواً لتشد عضدها بعضده وتقوى جانبها بجانبه ، وتعتز بالكون معه والسير مع ركابه فاعترفت بالطريقة فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٣٤٥ هجرية — فنى هذا الشهر قرر المجلس الصوفى الأعلى برياسة سماحة السيد البكرى الاعتراف بالطريقة الحامدية الشاذلية وبشيخها ومنشئها السيد «سلامة حسن الراضى» المكنى بأبى حامد ، وبهذا الاعتراف أصبح المجلس الصوفى مرموق المكانة إذ ضم إليه أكبر وأكرم طريقة وأحبها إلى الله والناس .

وعلى أثر هذا التعيين وضع الشيخ رضى الله عنه للطريقة قانوناً تسير عليه ، وعين لها نواباً بالعواصم وخلفاء بالبلدان والقرى ، ومقدمين ونقباء ومرشدين مما يقتضيه نظام الجماعات .

وقد ترتب على ذلك أن أخلت وزارة الأوقاف بعض مساجدها لإقامة الحضرات ، فكان للإخوان حضرة ذاكرة فى مساء يوم الأحد فى مسجد الإمام أبى العلا وأخرى فى مسجد سيدى الحنفى فى مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع كما ترتب على اعتراف المشيخة الصوفيـة أن أخلى له فى أرض المولد النبوى الشريف أرحب

ركن وأفسح مكان ، كانت تمشى إليه الإخوان فى موكب يملأ جوانب الشوارع ، ويزرع أرضها بأقدام متزاحمة متراصة تأخذ الطريق امتدادا .

ولكن أنى لهذه الكثرة الكثيرة والجماعات العديدة والأفواج المتزاحمة أن تسعها مساجد الأوقاف وبيوت الصلاة ، إذاً فلابد من أن يفكروا فى شىء آخر يسد حاجتهم ويسعف رغبتهم ، وقد كان فكروا فى إقامة المساجد على نفقتهم ، فقامت عالية الذرا سامقة البنيان فى كل مدينة جامعة وبلد عظيم ، وفكروا فى بناء زوايا فى المدن والقرى والعساكر لإقامة الحضرات : فبنوا وشيدوا ، ففى القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة والمنوفية ودسوق وإسنا وأسيوط والمنيا وبنى سويف والفيوم والجيزة ، معالم حامدية وهبات شاذلية ، مساجد وزوايا عمرت بوجوه نورانية وقلوب ندية ، وألسن رطبة بذكر الله ، وهل يبعد عن السيد سلامة رضى الله عنه بعيد ، أو يستعصى عليه مايقصد وما يريد ، إنما هى همم حامدية ، وعزائم راضية وروح قوية ، وعزة ربانية .

مظهر الطريق

تقوم طريقتنا السنية أعزها الله بعزه، وأمدها بروحه، وأيدها بأيده على أربعة مظاهر :

المجلس — الحضرات — المواكب — المناسبات الدينية

وسنفرد لكل مظهر من تلك المظاهر، باباً خاصاً بتوفيق الله وعونه تعالى .

مجلس الإخوان

كان رضى الله عنه قد أعد فى بيته حجرة مستطيلة لمجلس الإخوان، احتجز منها لنفسه مكاناً مطروحاً عليه حَشيّة، تقوم على جانبيها حشيتان أخريان رأسيتان، وعلى يسار المكان مشكاة فيها مصباح، وفى وسط الحجرة بسط مفروشة وحشيّات تدور مع الجدران . وبها ثلاثة أبواب يقفل أحدها إذا كان المجلس قائماً ويقوم على الثانى نقيب الطريق، أما الثالث فللطلبات الخاصة ويأخذ عرض الحيطان لوحات قرآنية، وأحاديث نبوية، وحكم صوفية، وصورة الشيخ، وينير سماء الحجرة ثريات ضوئية مدلاة من السقف . فإذا أقبل الشيخ وقف من كان فى الحجرة، فإذا جلس أذن لهم لجلسوا جلسة التشهد، إلى أن يلمحهم فيقبلهم

منها حيث يجلسون فى أوضاع مريحة ، وماهى إلا برهة حتى يكتظ المكان على سعته بالقاصدين فيقعدون فى زحمة وضغط شديدين ؛ يقعدون كيفما اتفق غنيهم ملاصق لفقيرهم وقويهم مكاتف لضعيفهم وعالمهم مجاور لأميّهم ، قد امّحت بينهم الفوارق ، وزالت الرتب . وتساوت الاعتبارات .

فإذا ما تكلم الشيخ أرهفت الآذان ، وتفتحت القلوب ، وتيقظ الوعى ، يبتلعون كلامه ابتلاعاً ، ويشربونه شرباً ، ويتذوقونه تذوقاً ، ولا يزال الشيخ يتيامن بهم ويتياسر ، ويصعد بهم ويهبط فى أفانين العلم ، وطرائق الأدب ، وألوان الكلام ، ينضح لهم من معين دافق ، ويمتح من سلسبيل جار ، يعطى عقولهم الفكرة ، وقلوبهم الحكمة ، وأرواحهم النور ، وأنفاسهم الشذى صدراً كبيراً من الوقت ، حتى إذا داخلهم الكلال واسترخوا من تعب النقاش والمتابعة ، انتقل بهم إلى لون مازح يرد به إلى أعصابهم قوتها ، وإلى أفكارهم جدتها ، فيطارحهم الشعر أو يبادلهم الطرف ، أو يدخل معهم فى نكتة عفة أو نادرة محتشمة ، فإذا أوشكوا أن يستطيبوا هذا اللون وركنوا إليه لقنّهم رضى الله عنه لفة روحية تجلو غاشيتهم وترقق حاشيتهم وتزيل عالقتهم ، فيأمر أحد المنشدين فينشد لهم طرقة شاذلية أو قصيدة حامدية ، تتمايل لها الأبدان وتتجاذب لها الأرواح وتتجاوب معها القلوب يتصاعدون فيها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، ومن ظلمات الارض إلى أنوار السماء ، ويستشعرون

فى أيكتها الأريجة ونَدها الفياح ورضابها الشهى نغمة علوية وعبقة قدسية ، وشربة صوفية وكأساً نورانية تتعاطاها الأرواح فتسكن والقلوب فتسكر ، والوجدان فينفاعل ، حتى إذا خاف عليهم التوغل فى دأمائها ، والترسل فى بيدائها والتقحم فى متاهاتها ، ردهم إلى الإفاقة وأيقظهم إلى الصحو وانتشلهم إلى الوعى ، فسلك بهم طريقاً له لون جديد .

فأى بحر يمتح منه إذا شقق الحديث فى ظاهر القرآن والحديث ، وأى درر يقذف بها إذا تناول الآية القرآنية أو الحديث الشريف بالشرح والتأويل ، كم حكمة يتصيدها وموعظة يستنبطها ، وعبرة يجلوها ، وقاعدة يقررها ، ثم يكشف عن هذا المعين الذى استخرج منه أصحاب المذاهب فقههم والمبدأ الذى كونوا منه آراءهم والمهوى الذى عثر فيه بعضهم والصحيح الذى كان يجب عليهم أن يلحظوه ، فإذا أشبع سامعيه وروى ظمأهم قلب الآية حيث تتربع على وجهها النورانى وجانبها الإشراقى وباطنها القدسى فكشف الأستار عن حقيقتها ، وجلا الأبصار على أسرارها ، فنفح بها قلوباً ، وأرج بها أنوفاً ، وهذب بها نفوساً .

وقد تسمع فى بعض الأحيان جملة عابرة فلا تلق لها أذناً ، ولا تمنحها اهتماماً ، فيردك إلى باطنها فإذا هى عامرة المعنى غزيرة المادة طيبة النشر .

فلو سمعت جملة « الكمال فى الملاح صدف » ، تلك التى تجرى

على ألسنة العامة من غير وعى أو فهم ، لبدهك منها مايبده الغافل عنها ، ولكنها تترامى إلى أذن الشيخ فيضع فيها كتاباً كاملا تقرأ فيه ما حوت من معـان وما جمعت من درر وما قذفت من جواهر — صدق الله العظيم « اتقوا الله ويعلمكم الله » وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قيل يارسول الله أى جلسائنا خير ؟ قال من ذكركم الله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله » ومن أحسن من الشيخ رؤية وأفصح منه منطقاً وأرضى منه عملا .

أما رؤيته

فكان رضى الله عنه جذاباً تأسر رؤيته من النظرة الأولى ، فكم من مقبل جاء مصالحاً أو مستطلعاً أو معترضاً فما أن يأخذه المجلس وتستقر فيه أعضـاؤه حتى يرى فى الشيخ رضى الله عنه شيئاً غير مألوف ، ولوناً غير معروف ، ووجهاً فاض على ظاهره نور ما فى قلبه ، فيلحظ فيه واسع رحمة الله ، وجمال كماله وضافى نعمته وكريم إحسانه فلا يخرج من لدنه إلا متعاقداً معاهداً .

ذلك لأن قلوب الصالحين مهبط الأنوار ومسرح الأسرار ، وبيت الله ، فيأخذ الجسم من هذا كله لونه ويتشكل بشكله ويشع بفيضه ، وكل مريد يرى الولى بحسبه وقوة استعداده وسلطان روحانيته ، فكم من رأى من الإخوان جسم الشيخ رضى الله عنه

منطوياً فى نوره ومكانه ملفوفاً بمكانته وموصوفه محجوباً بوصفه وظاهره مخفياً فى باطنه ، وأبعاد جسمه من أبعاد همته :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

أما منطقه

فقد كان الشيخ رضى الله عنه فصيحاً لسنا ، وبليغاً ممتازاً ، يشهد بذلك مؤلفاته العديدة ، وعباراته السديدة ، وقصائده المحكمة ، وردوده المقنعة ، ينطق فتنساب الألفاظ من مخارجها طلقة مستقيمة وتدور الكلمات على لسانه رطبة مليئة جرسها موزون ، ووقعها منظوم . فإذا تناول المسألة مهد لها تمهيداً يعين على حل عقدها ، ويقرب مابعد من معناها ثم يجبهها بالحل والتفسير فيفض بكارتها ويكشف خافيها ، فإذا هى فى وضوح الشمس ومقر العقل بأسلوب أخاذ ومنطق جبار وإفصاح مبين .

ومما يدل على قوة منطقه وواسع اطلاعه وغزير علمه ، أنه ربما دخل مع بعض الإخوان الحائزين على أعلى الدرجات العلمية فى مناقشة فقهية أو إلهية أو علمية فيعطى مناظره الجانب الأقوى من المسألة ويتولى هو رضى الله عنه الجانب الضعيف منها ، فما يزال فى ميدانه يحاوره ويداوره حتى يسلم مناظره سيفه إليه ، ويخر صريعاً بين يديه ، فإذا فعل — ولا مندوحة إلا أن يفعل — هداه إلى

الجانب الذى فاته ، والمعتمد الذى ضل عنه ، والمأخذ الذى منه أخذ حتى يستبين له الطريق .

وكان رضوان الله عليه ، صافى المزاج سليم الفطرة حاضر الجواب ، سأله أحد الإخوان عن معنى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وقف على باب الكعبة وقال « والله إن حرمة المؤمن عندى خير من حرمة هذا البيت » فقال له رضى الله عنه من فوره : « ذلك لأن قلب المؤمن بيت الله ففى الحديث القدسى « ماوسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » أما الحرم فبيت الناس قال تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة » وفرق بين بيت وضع لله وبيت وضع للناس » . وكم له من آيات بالغات ، وحكم منثورات . وروائع غاليات رضى الله عنه .

وأما عمله

فلقد والله أطال سجدته ، وأسهر ليلته ، وأرق مقلته ، واظمأ كبده ، وأجاع أحشاءه فى سبيل الله . وناهيك به يشكو مرض بواسير تنزف دمه وتشحب أديمه ولا تقعده مع ذلك عن أن يتلو « لا إله إلا الله اثنتى عشرة ألف مرة كل ليلة » ، حتى إذا انصدع عمود الفجر ظهر من يومه صائماً طاوياً ، ثم يستغرق فى صلاته ساعتين كاملتين على قدمين أضناهما المرض وهزهما السقام ؟؟ أى عمل هذا وأية مجاهدة تلك إنها همة قلب ضعف عن مسايرته البدن

وكلّ عن مجاراته العصب . أخذ نفسه بالشاق من العبادة ، وهو رطب الجسم لين العود صغير السن ، وكان كلما تقدمت به الأيام تضاعفت عليه الأثقال وتحاملت الصعاب ورفع على كاهله أعباءه وأعباء الناس .

إنه ليخرج من عمله فى وقدة الشمس ليدخل بين مريديه وأتباعه إلى خبوة الليل فى أخذ ورد وتهذيب وتقويم ، ثم يأخذ غفوة ساعات ينهض على أثرها إلى مقر عمله ، فإذا دار الأسبوع لا يرفض دعوة داع ينقله إلى نائى البلاد يقطع نصف يوم ذاهباً ونصف يوم راجعاً فى مدى يومين متواليين يستأنف بعدهما عمله من صدر الأسبوع إلى أن يمنح عطلته السنوية فيقضيها رضى الله عنه متنقلا بين القرى والدساكر ، والمدن والعواصم ، فى صعيد الأرض ومنحدرِها ، وبين شمال الوادى وجنوبه ، تكفيه الضجعة ، وتضنيه الجلسة ، وتؤرقه خشونة المضجع ، وهو مع كل هذا صابر محتسب ، راضى القلب ، ضاحك الأسارير ، لا يشكو ولا يتألم بل يرى أن كل هذا قليل فى سبيل محبوبه ، وتافه فى جانب الله ، حتى ذوى جسمه ، وغربت نضرته .

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت فى مرادها الأجســـام

أدب المجلس

مجلس الشيخ مصون الحرمة عظيم الهيبة مشرق الطلعة لا يلجه والج إلا بإذن ولا يجلس فى مكان إلا باختيار ، فإذا جلس لا يبتدر إلى الكلام ابتداء إلا إذا طارحه فيه الشيخ ، فإن تكلم فبصوت خفيض فوق الهمس ودون الجهر ، وبكلام يراعى فيه الدقة والذوق السليم وترطيب العبارة ، وإذا ناقش بإذن الشيخ أحد إخوانه أخذ وأعطى ، لا يسفه له رأيا ولا ينتقص منه قدراً ، بل يتعاون معه لإظهار الحقيقة وكشف صحيح الجواب مثله فى ذلك مثل من أضل طفله فهو يبحث عنه ملحاً فى البحث حتى إذا أنضاه السير وأحفاه السرى وقعد به الآين استعان بجاره فلباه ، وجال جولة أو جولات فى الأزقة والحارات ، فعثر بالطفل منطوياً على نفسه فى ركن يقفقف فحمله إلى أبيه ، فما أسرع ما يقابل الأب جاره فى عناق وتقبيل ، شاكراً له داعياً . هذا المثل ينطبق على الإخوان إن راحوا فى نقاش أو اختصموا مسألة أو نشدوا حقيقة ، فلا جدال ولا خصام ولا حدة ولا مراء ، وكثيراً ما يجلو الحقيقة أحدهم فلا يدعيها لنفسه ولا ينسبها إليه ، ويحاول جاهداً أن يجعل فضله لأخيه ووردها من مائه . تلك أخلاق صقلها الشيخ رضى الله عنه ونفوس رقق حواشيها ، ورجال صبغهم بأنسق ريشة وأجمل طلاء . وكثيراً ما يروعك أن ترى فى الإخوان فقيراً خف دخله وحال لونه ، فما

هو إلا أن يلحظ فيه إخوانه عوزه حتى تندس إليه أيد مليئة ومواساة كريمة وما يعينه على الاحتمال . وقد يجتمعون فيجمعون له ما يصلح ويرسلونه إليه مع أحدهم حتى لا يحملونه منة أو يداينونه بمعروف . وقد يمرض أحد الإخوان ، فواقه ما فرحته بالطبيب المداوى يحمل إليه العلاج والشفاء شيئاً إذا زاره أحباؤه وعاده إخوانه ، بل ولا تساوى زيارة هذا الطبيب نقيراً إذا جاءه رسول يحمل إليه سؤال شيخه ، ودعاءه له بالصحة والمعافاة . ولعلك لو رأيت أحد الإخوان عاطلا من عمل ورأيت إخوانه يضربون فى كل فج ويستتبعون كل قفر ويجتازون كل صعب ليصلوا بينه وبين رزقه لعلك لو رأيت هذا لآمنت كما أومن بأن هؤلاء الناس خلقوا من طينة غير طينة البشر ومن تربة غير تربتهم ، والحقيقة أنهم فطروا كما فطر الناس ، ولكن الذى روى غرسهم وقوم عودهم وشذب فرعهم مربٍّ حكيم وأستاذ عليم وشيخ كريم رضى الله عنه .

وبعد فلا مندوحة أيها القارىء الكريم من أن تعترف بأن مجلس الشيخ سلامة الراضى ماهو إلا قطعة من مجلس الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم كيف لا والولى بين إخوانه كالرسول بين أقوامه — إن لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

مدرسة المجلس

مجلس الشيخ رضى الله عنه مدرسة كاملة فيها نعيم الدنيا والآخرة وغذاء العقل والقلب جميعاً . روضة أريضة فيها أطياف وألوان وزهر وثمار . ومن كل فاكهة زوجان تستطيبها النفوس ، وتستجيب لها القلوب وتتفتح عليها المشاعر وتغرد على أفنانها الأحاسيس . لا تزال تتسع وتربو وتزيد إلى أن تتكشف عن مجلس السيد سلامة الراضى ، إلا أنها زهر وكروم ومجلس الشيخ معارف وعلوم ، وهى أعدت للبطون وهو أعد للقلوب ، وهى جنة الأشباح وهو جنة الأرواح ، وهى تجرى فى البطون فتخمر ، وهو يسرى فى القلوب فتطهر .

هذا الحيز الضيق المتوارى فى حارة خط الرملة كم أخرج من علماء ، وكم طهر من نفوس وكم هذب من أخلاق ، وكم نثر فى سماء الدنيا كواكب ونجوما ، وتفع أركان الشرق معارف وعلوما — لقد انتفع بالسيد سلامة الراضى الأحباب والأعداء جميعاً : أما الأحباب فقد علمت ؟ وأما الأعداء فقد تعلموا منه حلمه إذا سفهوا وعفوه إذا اعتدوا ، ورشده إذا ضلوا ، وكرمه إذا لئموا ، ورفعته إذا أسَفُّوا ، فحكموا على أنفسهم بأنهم هم السفهاء ولكن لا يشعرون. لقد علم الشيخ وهذب وربى وقوم ، واحتز مرارة من نفوس أمارة ، وطهر قلوباً باض فيها الشيطان وأفرخ ، وأخذ بضبعى الضال إلى

مستوى الطريق ، وقطع رأس الغواية بسيف الهداية . وأمن اليائس وأعان البائس ، فرضى الله عنه من تقى نقى أدى الرسالة وزان الإمامة على هدى من القرآن الكريم ، ونور من سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

مادة الدرس

بمجلس الشيخ رضى الله عنه تدرس فيه علوم متنوعة ، إلا أن أخص ما كان يعنى به شيئان : علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وكان الإخوان على أحوال متباينة فيهم العوام وأنصاف المتعلمين والعلماء وكان يمتح لكل نوع بدلوه ، فأما العوام فكان يقف بهم على الضروريات من أحكام الدين والشريعة لا يشوش عقولهم بآراء الفقهاء المتباينة ومذاهبهم المختلفة لئلا يغرقوا فى دوامة لا تتسع خيلتهم للنجاة منها ، فكان إذا بصرهم بحكم من الأحكام شرح لهم سره وأرشدهم إلى جدواه ، فإذا عرفوا كيفية الصلاة وأركانها مثلا شرح لهم معنى الركوع والسجود ومايشير إليه قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم ، ثم يشرح لهم ماهو الصراط المستقيم ، أى أنه لا يلقنهم الأركان جامدة صماء ، كما كان يقرئونا إياها أساتذة العلم الأجلاء ، أما المتوسطون فكان يتخذ معهم طريقاً وسطاً يشبع استعدادهم ولا يشم عقولهم ، فكان رضى الله عنه يذكر لهم الحكم من الأحكام على مذهب من المذاهب ، فيهديهم إلى طريقة استنباطه من الكتاب والسنة على

أصل المذاهب وقواعده ، ثم يرتفع بهم شيئاً فيشرح لهم نقطة خلافية بين مذهبين أو أكثر ويهديهم إلى أصل كل مذهب فيها إلا أنه كان يقف بهم دائماً إلى الماء القريب من شاطىء رقيق الموجة قريب القاع يستطيعون أن يسبحوا فيه آمنين — أما العلماء الدارسون فكان له معهم شأن آخر ، فهو لا يناقشهم فى الحكم من أين جاء ولا كيف جاء ، وإنما كان يعمد إلى الحكم يناقشه ليتبين طريقه إلى إصلاح القلب وتهذيب النفس وكبح الشهوة . أى أنه كان يسلك بهم طريقاً يوصل إلى روح الشرع وسره لا إلى ما يفسره الفقهاء من ألفاظه وبنيانه .

أما فقه الحقيقة فهو الذى كانت تنحنى له ركب الإخوان ، وينحفز لفهمه الوجدان وتعنو له الأسماع وتصغى له القلوب وتستطعمه الأذواق لأنه مخاطبة القلوب ومناجاة الأرواح وإكسير الحكمة ومفتاح الجنة ، اسمع إليه يقول رضى الله عنه :

« إذا أقبل المزيد على ساداته فاز بنفحات أوقاته ، ومتى تباعد عنهم فزيت المدد ينفد من قلبه على التدريج فيضعف نوره كلما قل زيته ولا يزال نور قلبه فى ضعف حتى يتم نفاد زيته فينطفى نور قلبه ، فإذا أراد الله به خيراً وفقه لدوام إقباله على ساداته فيمدونه بزيادة زيت المدد فيبقى مصباح قلبه متقداً إلى الأبد فى زجاجة جسمه الصافى المستنير بالتخلى عن لوث الأغيار والتحلى بوضاءة الطاعات . وهو فى ذلك كله دائم المزيد فى الاستنارة بالمدد حتى يكثر مدده

ويتضاعف ، وبذلك يقوى مصباح قلبه قوة زائدة فلا تطفئه زوابع الفتن والمحن . فإذا آنس منه شيخه هذه القوة وعرف أنه بلغ مبلغ الرجال أمن عليه من تخلفه عن شيخه وقتاً بعد وقت ، ولا يزال يسايره فى طريقه حتى يتكمل ، ويصير إماماً يقتدى به فى طريق ربه ، انتهى .

بمثل هذه الحكم الغالية والجواهر المنتقاه تدور مادة الدروس بين حلقات الإخوان ، فهل رأيت معنى أسمى غاية وأبعد سلطاناً على النفس وأرجى طريقاً للهداية أحسن من هذا الذى ينصحه الشيخ رضى الله عنه لتلاميذه وينفحه لأحبابه ؟ أرأيت البلاغة فى أجلى سماتها والحكمة فى أعلى مراتبها والمثال الرائع الآخاذ فى طريقه إلى العقل وسيره إلى القلب واستقراره فى الوجدان ؟ إنك ولا شك اقتنعت بأن الصوفيين هم المحصورون فى قول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، واقتنعت أيضاً بأنهم هم الذين يشير إليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » .

مناقشات المجلس

ما كان رضى الله عنه يستأثر بالحديث دون أبنائه بل كان يحملهم على الكلام ويشجعهم على التفكير والحديث الطويل ، وإبداء الرأى فى نوع ما يناقشون فيه شأنه فى ذلك شأن المدرس

الخبير الذى يوقظ دائماً أذهان تلاميذه بالسؤال حتى لا يروحوا فى غفلة عن متابعته والسير معه — وكذلك كان الشيخ رضى الله عنه مع مريديه يكلف أحدهم بأن يأتى بحكمة أو مثال أو توضيح موضوع مطروح ، فيأتى بما يحضره ويتلوه آخر وآخر ، والشيخ يمسك بدقة المناقشة ، حتى إذا فرغوا أفاض عليهم من نور قلبه ماشاء الله أن يفيض . وإليك صورة ما كان يدور فى بعض المجالس :

قال رضى الله عنه فى بعض المجالس للإخوان « ليأت بعضكم بحكمة» فقال أحد الإخوان «فتح الباب فى صفاء الألباب» فقال رضى الله عنه « الصد فى القلوب من بقايا النفوس» فقال أحد الإخوان «تنوير القلوب من تجلى المحبوب » فقال رضى الله عنه « من خرج من قشوره ظهر نوره » فقال أحد الإخوان « اترك المظاهر ترى الحق ظاهر » فقال رضى الله عنه « من علامة التعلق بالخلق التغير عند المدح أو الذم » وقال أحد الإخوان « من شهد الأفعال تجلى عليه الفعال » فقال رضى الله عنه « ومن تجلى عليه الفعال سطعت عليه أنوار الصفات ، ومن اضمحل فى أنوار الصفات صار محوه ثباتاً وموته حياة وفناه بقاء وذله عزاً وفقره كمالا » فقال أحدهم كما قال بعضهم :

موتى حياتى محوى ثباتى ذلى عزى فقرى كمالى

فقال رضى الله عنه « نعم » هو ذاك ، ثم قال رضى الله عنه : « من وقف مع الذكر فقد وقع فى الفكر فهو تحت حكم العقل ،

ومن كان تحت سلطان عقله لا يفتح له باب غيبه ، ومن لم يفتح له باب غيبه لم يكن له نصيب من الذوق ، ولم يكن من القوم ، وعلمه وليد عقله ونتيجة وهمه تارة يخطئ وتارة يصيب ، ولم يكن من جنس علم أهل الله ، انتهت المذاكرة .

الله أكبر ماهذه الأنوار الربانية والكمالات الإلهية والنفحات القدسية ، أسمعت مثل هذه المعانى وفقهت مافى هذه المبانى ، وشممت أرواح الرياحين ونفح الياسمين ولمحت الأنوار تسطع من القلوب كما تسطع الشمس فى أفق الشروق — هـذا هو الشيخ وهؤلاء هم تلاميذه ، وتلك طائفة من أقوالهم صدق الله العظيم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذوحظ عظيم ، نفعنا الله بهم أجمعين.

ولم يقتصر مجلس الشيخ رضى الله عنه على ماكان يدرس فيه من هذه الألوان ، فقدكانت هناك ناحية أخرى جديرة بالتسجيل وهى ناحية الأدب ، وقدكان الشيخ ينظم وجدانياته الروحية وغزله الصوفى ، فى أشعار وأزجال ومواويل ، حسب استعداد فهم تلاميذه وتستطيع فهم روحه ، وما هو عليه من وفاء لحبيه وحرص على مريديه إذا سمعت هذا الموال يجرى على لسانه :

من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه

ومن فاتنا ما فتناه وعار علينا ضياعه

ثم إذا سمعته فى مستهل قصيدة عامرة الأبيات ، يستحثك على زيارة أهل البيت ويبصرك بمكانتهم عند الله :

إذا رمت العلا والعز فاقصد سكينة بنت سيدنا الحسين
وعند ضريحها قف باحترام لتشهد نورها فى الخافقين

ثم اسمع إليه بعد ذلك وهو هائم فى محبوبه ، غارق فى بحار نوره فى زجل رقيق :

لما بدت أسراره وتشعشعت أنواره ظهرت لنا آثاره
فتبارك المولى العلى يا صاح كرر ذكره واحذر جفاه وهجره
والزم رضاه وأمره تصفو وقلبك ينجلى

ولك أن تسمع أيضاً أبياتاً من قصيدة صاغها مدحاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الحمد لله الذى قد أوجدا من فضله نوراً به عم الهدى
هو نور خير الخلق طه المصطفى قد كان للأكوان حقاً مبتدا
هو رحمة للعالمين ونعمة فاضت على كل البرية بالندى

فلا مشاحة بعد ذلك أن يحاكيه إخوان الطريق ويجروا على أسلوبه ، فنظموا قصائد عامرات وأزجالا وموشحات ، فراجت سوق الأدب ، وتفتحت أذهان الإخـــوان . على معان سامية ، وأفكار عالية :

رعى الله أياماً تقضت بطيبة وحيا ليالى ما عرفت لها قدرا
ليالى وصال لو تباع شريتها بروحى ولكن لا تباع ولا تشرى

خليفته

لا والله ما تقضت هذه الأيام، ولا تصرم حبلها ولا حال جديدها . فكل ماعهدنا فى شيخنا الكبير لمسناه فى ابنه البار الكريم، إن فى سيدنا وابن سيدنا المحبوب المفدى غنى يعصم من فقر ، وقوة تحفظ من ضعف ، وحناناً يصون من ضياع ، وما كان إلا ليكون هكذا ، فالشمس تعطى الخصب والزهر يمنح العطر ، والعين تهدى النور ، والأصل ينبت الفرع ، وما كان شيخنا السيد إبراهيم سلامة إلا بضة من قلب أبيه ، ومنحة من يده وسراً من أسراره وزهرة من أنواره ، وأشهد لقد قام بالرسالة وأدى الأمانة وأحكم الوصاية ، وحفظ ميراث أبيه من الضياع . لقد خلع الله عليه ثوب الإمامة وهو مقبل على الشباب ، ومهد له دست الخلافة وهو فى ثوب الغلمان فقام بها حفياً ، وسيرها واعياً على صراط مستقيم ولم نفقد بفضل الله وعونه من شيخنا الأكبر إلا وجهه الكريم ، أما ماعدا ذلك فهو هو لم يتغير منه جدة ، ولم ينصل فيه لون ، فالنسيم العليل مازال يسرى ، والزهر الفياح مازال ينفح ، والمجلس مازال عامراً والخير مازال غامراً ، إنه كما كان أبوه مقصد الطلاب وقبلة الأحباب ومنبع البركات ومهبط الرجاء وبيت القصيد وكل الأمل . يطارحك الحديث ويبادلك الحوار ويشقق الكلام ، فأى بحر هذا الذى يقذف جواهره ، وأى عقل هذا الذى تتموج معارفه وأية ناحية تلك التى يشرق بك

فيها ويغرب ، ويتيامن فيها ويتياسر ، يكشف حجبها ويفلق صخرها ويبض ماءها ، بمنطق جبار ساحر ومعرفة فنية جامعة ، ماهذا الفتح ؟ إنه لم يتعلم إلا فى مدارس مدنية لا تمتد إلى هذه المعارف بسبب ، فمن أى طرف جاءته هذه الطرف ، ومن أى منبع ارتوى ، ومن أى ماتقط التقط ثمار العلم والنور والعرفان ، إنها العناية الإلهية والمنح الربانية ، والسر الذى لم يكشف لعقولنا حتى الآن — لقد عشنا مع والده صدراً من الزمان وأخذنا عنه ماوسعه عقلنا وطابت به نفوسنا ، وإذا نحن بسابقتنا وذخائرنا نجلس أمامه فارغين ، ونكسر إليه ركبنا متعلمين ، وهو لا يزال فى بكرة يومه وربيع عمره المديد ونحن قد نيفنا عن الخمسين .

لقد سار بميراث والده قدماً بين الزلازل والأعاصير والمحن المريرة والأشواك الشائكة ، فما وهن ولا استكان ولا أسلم نفسه ليأس ، بل صمد أمام العواصف واستنسر أمام الغربان فتفرقوا بدداً وتناثروا هرباً ، وأخذ هو بدقة الطريق ، فنجت وسلمت ولاذت بالأمان . وكم لسيدى إبراهيم من أياد تذكر فتشكر ، فكم وصل من فقير وأنقذ من غريق ، ووصل رحم والده فى تلاميذه وأحبابه ، فما سمع عن أحد من قدامى الإخوان نزل به هم أو أضناه ضيق أو ألم به عسر أو فاجأته ضائقة إلا أسرع إليه برفده وعزاه بخيره وبره وواساه بحنانه وعطفه — وقد سرت عاطفته هذه فى أرواح إخوانه ومحبيه ، فاختطوا خطته وساروا على قدمه فلا يخلو مجلس من

بمجالسه العامرة إلا نبه عن واجب ، وابتدأ بنائل وغمر بمعروف .

فلله أنت من سيد سدت عن جدارة ، ورفعت عن أخلاق فرقت لك الرقاب ولانت لك الصعاب ، فسر ياسيدى فى طريقك تحدوك الرعاية وتكلؤك العناية ، بين قلوب من إخوان تفديك بسويدائها ، وعيون من أحباب ترمقك بإنسانها ، ومدد من أبيك يرفعك جنابا ، ورضى من ربك يعليك مقاما .

والله نسأل أن ينفع بك المسلمين ، ويهديك الصراط المستقيم ، ويطيل فى عمرك وينسىء فى أجلك ، ويجعلك رجاء الراجين وقبلة القاصدين ، وأن يمنحك صحة وعافية وسعادة كافية ، وعيشاً أخضر ويوماً أزهر ، إنه سميع مجيب .

الشـــاذلية

الشاذلية تنسب إلى سيدى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، ولذلك سميت « الشاذلية » ، وسيدى أبو الحسن قطب عظيم ، ومرب كبير ومرجع علوم وبيت معارف ، نزح رضى الله عنه من المغرب فى أيام الدولة الفاطمية — وهو شريف حسينى — وكان رضى الله عنه بحراً بعيد السواحل فى علوم القوم اعترف بمكانته القريبة كبار الاولياء ، كسيدى أحمد البدوى وتتلمذ عليه جلتهم ، كسيدى العباس المرسى ، وأخذ من مشربه سيدى الشيخ سلامة الراضى رضى الله عنه وإليه انتسب ، وضريح سيدى أبى الحسن مزار فى أرض الصعيد .

ولما كانت طريقته أعلى الطرق وأسماها ، وأكثرها انتشاراً وأملؤها أسراراً كانت نهاية السالكين من غيرها بداية طريقته ، ولذلك قالوا : « من لم يتشذل لحاله لن يتبدل » .

ولما سأل سيدى أبو الحسن ربه بقوله : « رب لم سميتنى الشاذلى ولست بشاذ » ، فوقع فى نفسه جواب ربه « لأنك شاذّلى » ، وقال رضى الله عنه : لوحجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين ، وقال سيدى الحنفى رضى الله عنه : أقل رسل الشاذلية لمن عاداهم ، العمى والكساح وخراب الديار — وقال بعض مشايخنا رضى الله عنهم خصت الشاذلية بثلاث : الأول أنهم مختارون من اللوح المحفوظ ، والثانى : أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو والثالث: أن القطب لا يكون إلا منهم ، وقال مشايخنا : صبغنا يصبغ غيرنا ، وصبغ غيرنا لايصبغ صبغنا ، وقالوا نهاية كل طريق بداية مريدنا ، ونهاية الشيخ بداية المريد .

تكون مريداً ثم فيك إرادة إذا لم تكن شيئاً فأنت مريد

وكان سيدى أبو الحسن رضى الله عنه شخصيته قوية لأنه مجموعة معارف علوية ، ومرجع معارف لدنية ، ومن كمله الله بالعلوم الباطنية ظهر أثر هذا الكمال على أبعاده الظاهرية ، فارتفعت منزلته وقويت هيبته ، فجاء إليه الرجال جائين ، وأسرعوا إلى طالبين .

و يظهر أن الله جل جلاله خلع مثل تلك الحلية التى كان يتحلى:ـ

سيدى أبو الحسن رضى الله عنه ، على سيدى سلامة رضى الله عنه ، فكان ملء النفوس والقلوب ، ودائرة نقطة الجلال والهيبة ، «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً» .

شخصية الشيخ

نقصد بالشخصية قوة سلطان الروح فى قلوب الحاضرين ، وتمكن هيبة صاحب تلك الشخصية من التأثير على قلوب الشاهدين ، وقد كان شيخنا رضى الله عنه بالغاً الغاية القصوى فى تلك الناحية ، فما قصده قاصد ، أو نزل به نازح ، إلا وقع تحت حب هذه الشخصية الجارفة .

وربما تسامع به بعض الناس فيقبل عليه زائرا أومسلّما ، فما أن يحتويه مجلسه حتى يرى نفسه واقعاً تحت حب شخصية عظيمة ، وجاذبية طاغية .

ومن العجيب حقاً أن بعض كبار المتعلمين الذين يخدعون أنفسهم بالوهم ويرونهم أكبر من أن ينطووا تحت أجنحة مشايخ الطرق الصوفية وأعلى مرتبة وأكثر امتلاء بما تعلموه من أن يدينوا لهؤلاء بطاعة ، أو ينخرطوا فى مجالسهم كتلاميذ ، حتى لقد يتحكم فيهم الغرور تحكماً يخرجهم عما لا يليق بالأدب بطعن ظهور هؤلاء السادة من الخلف ، بما يكيلونه لهم من انتقاص وتصغير ، كما كان بعضهم يتعمد الإلمام بمجالسهم ، لا لدواعى رغبة أو لحسن استماع

أو لتحصيل إفادة هم أغنى عنها بما حفظوه من بطون الكتب وبما استظهروه من أفواه المدرسين ، ولكنهم كانوا يغشون بمجالسهم ليتلهوا ساعة أو بعض ساعة بهذه الشخصيات الواقعة تحت تأثير مذاهب بائدة عفى عليها الدهر ، مع تراث ذهب تحت أنقاض زمن سحيق أو ليشبعوا رغبة فاكهة بهؤلاء الدراويش الذين يتصايحون بأذكار تحت أسمال بالية وخرق تحمل شارات الطريق أو للاعتراض على هؤلاء السادة ، بما يزينونه للناس من مذاهب وطرق تشغل السذج عما ينفع ويجرى ، أو لأى غرض آخر غير الغرض الذى يحرص العقلاء عليه من استفادة بعلم أو استزادة بمعرفة ، حتى إذا أقبلوا على مجلس الشيخ رضى الله عنه وأخذوا أماكنهم منه إلا وتبدلوا شيئاً فشيئاً وانكمشوا بين معاطفهم ، ورأوا أنفسهم فوق دوامات فى بحر عميق القاع مترامى الشواطئ ، تصخب أمواجه ويعج عجاجه ، فهنا يستفيقون من أحلام كانت تساورهم فى نوم مؤرق وليل مخدوع ، على يقظة عامرة من صباح فجر مشرق ويوم كريم ، وإذا ماهم عليه من علوم ومعارف طالما تطاولوا بها نجوم السماء زهواً تتلاشى وتتبخر من حرارة هذا القبس الإلهى المشع من قلب هذا الشيخ المتمكن الكريم ، وإذا بهم يبايعونه ويعقدون على يديه ولاء الطاعة ، ويصبحون بين إخوانه من جلة الأصفياء ورجال الطريق .

ومالى أذهب بك بعيداً وفى نفسى مثال من ذلك . لقد كنت

حرباً على الطرق بأسرها فى ميعة الشباب وتفتح العمر ، وكنت أعتقد مايعتقده بعض الناس فى أن هذه الطرق ماخلقت إلا لاستهواء بسطاء الناس وإغراء السذج منهم ، وأن أفكارهم بدائية إن استقامت فى أفكار الدهماء فإنها أعجز من أن ترقى إلى أفكار المتعلمين ، وأن سوقها لايعرض فيها إلا المطعوم والمشروب من أصناف اللحوم وألوان الثريد ، وكنت أنقم على بعض إخوانى المدرسين الذين سبقت لهم السعادة والتحقوا بإخوان الطريق ، وأوسعهم لوماً وتعنيفاً ، وأذيقهم ألواناً من العنت والتصغير .

وكان أكثرهم تحملا وأفسحهم صبراً وأكبرهم قلباً ، الحاج محمد الروبى أحد خلفاء طريقتنا السنية ، فمازال يطاولنى ويستدرجنى ويحتال على ، حتى أجلسنى مجلساً واحداً من الشيخ رضوان الله عليه ، مجلساً واحداً ، خرجت من بعده مؤمناً بأن الله الذى خلق العين وأودع فيها النور ، وفطر الزهرة وأودع فيها العطر ، وذرأ الجسم وأودع فيه الروح ، خلق سيدى وملاذى الشيخ سلامة الراضى رضوان الله عليه ، وخلق فيه النور والمعرفة والسر العظيم ، حتى صرت لا أطيق صبراً على بعده ، وأنتهز فرصة تعطيل المدارس وأنزح إليه من قلب الصعيد ، حتى منّ الله على برعايته ، فنقلت إلى القاهرة ، فنقلت إلى جوار سعيد .

ومن عظيم شخصية شيخنا رضى الله عنه ، أنه ربما اعترض بعض إخواننا من يحول بينهم وبين مواصلة جهادهم فى إعلان

طريق الله ، من حاكم أو غيره ، فما هي إلا رسالة من شيخنا ، أو مقابلة لرئيسه ، حتى تعود المياه إلى مجاريها ، كما حدث فى بيا إحدى مدن إقليم بنى سويف ، وقد حالت إدارة الأوقاف هناك بين الإخوان والمسجد الجامع . فماهى إلا رسالة إلى وزير الأوقاف وإذا المسجد يفتح على مصراعيه .

وليس هذا بغريب على شخص انقطع لله ، فألبسه الله ثوب الجلال والمهابة والاحترام .

ولقد أرسل الله رسولنا الأكرم ، وجاهنا الأعظم ، بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مزملا بحلل الجلال ، مدثراً بخلع الجمال والكمال ، فما رامه رام بشر أو قصده ساع بضر ، إلا وكان من جلاله ومهابته سلطان يقهر من رامه ، ويصد من قصده حتى أنه كان يعلم فى صحابته شدة مهابتهم له وجلال شخصه الكريم فى نفوسهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يهون عليهم الأمر ويقول : « إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد » .

مع العلم بأنه كان صلى الله عليه وسلم ينصر بالرعب ، يلقيه الله فى قلوب أعدائه فتطير شعاعاً وتذوب هلعاً ، حتى لما كان قليلا والمشركون كثيرين ، مستضعفاً وأعداؤه أقوياء ، كان لشخصه وهيبته وقعها فى قلب كل من يحاول إضراره .

لقد بيت له أبو جهل نية طاغية ، واعتزم أن ينفذها بين سمع

الناس وبصرهم فى ندوة قريش ، إذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ويصلى .

فلما قام الضحى فى وجه النهار باكر أبو جهل نادى قومه فى الحرم ، وأعلن فى الملإ بأنه سيقتل محمداً فى يومه هذا ، والحشد من قريش يسمعون ، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذ طريقه إلى الكعبة فطاف ثم استقبلها وصلى ، فلما كان فى سجوده كان أبو جهل وراءه يحمل حجراً ثقيلا يحاول أن يرمى به رأسه الشريف ، ولكن نيته تدفعه وهيبة الرسول تمنعه ، فلما انفتل النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته انفتل أبو جهل فزعاً إلى قومه يرتج وقد سقط الحجر من بين يديه من شدة ما وجد ، والناس من حوله يضحكون .

إن الروح القوية تعطى لباسها البشرى ، سناء من نور يفيض على الموالى عطفاً ، وفضلا من هيبة يكبح جماح المتطرف ويكسر شرة المغرور ، وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم بين أنصاره وأعدائه ، « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ولقد سرت روحانيته القوية فى نفوس أصحابه يوم بدر ، وهم قلة حافية راجلة ، والمشركون فى كثرة كثيرة وعدد عديد ، فانتصر نور الحق على ظلام الباطل ، « وباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » .

من هذا ، كان الممدود بروحانية محمدية وأنوار أحمدية ، مجللا بالهيبة محفوفاً بالوقار ، وشيخنا رضى الله عنه من شجرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم نسباً ، ومن قلبه الكبير روحاً ، فلا غرو أن يكون المهيب الجانب ، المقدر المكانة ، المحاط بالجمال والجلال .

يامن وصلتم إلى حمانا بشرى لكم نلتم الأمانا
من جاء فى حينا محباً أضحى عزيزاً بنا مصانا
نفيض من نورنا عليه وفاز بالقرب فى رضانا
يتيه فى خلعة التدانى والسر يبدو له عيانا

والشخصية القوية هى التى لا تعمّل فيها ولا تكلف وإلا كانت زيفاً ، إن خدعت البصر حيناً فإنها لاتخدعه أحياناً ، كبهرج الزجاج تراه عن بعد يخطف العين ويأخذ القلب ، كأنه اللؤلؤ المكنون ، فإذا دانيته وسبرته كشفت زائفه ووقعت على حقيقته . ورجال الله يتولاهم الله بستره ويحتجزهم لنفسه ، ولا يكشف حقيقتهم إلا لمن كتبت له السعادة ولازمه التوفيق ، وربما رأيت أحدهم فى سمة الناس وبزتهم تمر به فلا تعطيه وعياً ولا تلقى إليه بالا ، وهو قد طوى فى روحه عالماً بحاله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره الله فى قسمه » ، وصدق من قال :

وفضيلة الدنيا يظهر سرها من حكمة لامن ملاحة نقشه

ولقد كانت لشخصية شيخنا رضى الله عنه الفضل الأكبر فى تربية الإخوان وتهذيب نفوسهم — فإنهم ليجلسون بين يديه وقلوبهم واجفة وعيونهم مكسرة ولسانهم مشكول ، فأنى لهؤلاء

أن ينحرفوا عن استقامة أو يقترفوا صغيرة ، أو يميلوا إلى ما يعيب ،
وقد كانت ألسنتنا خارج مجلس الشيخ تضرب فى أثباج البلاغة ،
طليقة معربة ، فإذا دخلنا مجلس الشيخ رضوان الله عليه أصابها
الخلر فلا تكاد تبين . ولقد كان يلجأ من ورث فصاحة سحبان
وبلاغة قس بن ساعدة من إخواننا إلى تدوين ما يرغب أن يطلبه
من الشيخ فى ورقة يدفعها إليه وهو جالس بحضرته خوف العثار
أو عدم استقامة النطق ، مع أن الشيخ رضى الله عنه يحاول كثيراً
أن ينقلهم إلى جو مرح وساعة فاكهة ليشجعهم على التحرر بعض
الشىء ، ولكنه وقت يمر وساعة تمضى والإخوان أكثر حذراً
فى مرح المجلس منهم فى أوقات جده .

ولقد كنت أصوغ قصيدة الشعر لأستقبله بها رضوان الله عليه
فى بعض المناسبات ، ثم أتخيل موقفى بين يديه حين أتلوها فأرى
أن أبياتها التى رقت فى نظرى واستقام خيالها وغزر معناها ، شيئاً
تافهاً لا تحوز إعجاباً ولا تستهوى قلباً فأطويها ، فإذا استعنت الله
وأنشدتها أصابنى (النقرس) وطرت شعاعاً ، لولا تشجيعه رضى
الله عنه وحسن استعداده للسماع .

وكان يعجبه رضى الله عنه وجه الملاحة فى الكلام ، والنادر
المستطرف من جديد المعانى . وأذكر أنى أنشدته قصيدة منها
هذا البيت :

ومقامكم فى الأولياء كأحمد فى الأنبياء سما على الأصحاب

فهش للصيغة وبش رضوان الله عليه :

وإن لم يكن شيخاً يريه شخوصها ... ويدنيه من أم القرى وبثينة
فليس له من عمره غير رسمه ... وعيشته فيها كعيش البهيمة

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله ... فقم بهـا أدباً لله بالله
هم الأدلاء والقـربى تؤيدهم ... فـما حديثهمو إلا عن الله
كالأنبيـاء تراهم فى محاربهم ... لا يسألون عن الله سوى الله

وإن تك مزكوماً فليس بلائق ... مقالك هـذا المسك ليس بفائح

رب شخص تسوقه الأقدار ... للمعـالى وما لذاك اختيار
غافـل والسعادة احتضنتـه ... وهـو مستوحش نفـار
يفعل القبيح عمـداً فيلقـاه جميلا ويسـتر الستار
وإذا قارف الذنوب أتتـه ... توبة طهرته واستغفـار
وفتى كابد العبـادة حتى ... مل منهـا ليله ونهار
يطلب القرب يزداد بعـداً ... وإن رام جنة فهى نار
حكم حارت البرية فيهـا ... وحقيق بأنهـا تحتـار
ومزايا من المهيمن دلت ... بأن الله فاعـل مختار

أيدركنى ضيم وأنت ذخيرتى ... وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرى
وعار على راعى الحمى وهو قادر ... إذا ضاع فى البيدا عقال بعير

طريقته فى التربية

كان للشيخ رضى الله عنه سياسة خاصة فى تربية تلاميذه، فكان إذا جاءه طالب عهد يماطله أياماً بل شهوراً ، ويلاحظه طول هذه المدة حتى يتحقق من صدق إقباله وخالص قصده وقوة تحمله ، فإذا ما استراح إليه وعرف فيه صفاء القلب وحسن الاستعداد وجميل الملازمة ، تعاقد معه على الأخوة ، فاندرج فى سلك مريديه فيقربه إليه ويلاطفه الحديث ويغمره بحنانه ، ثم يبدأ يمده بفيوضاته قطرة قطرة فلا يشعر بها المريد بادئ ذى بدء ، حتى إذا خالطت قلبه وسرت فى دمه شعر بها شيئاً فشيئاً إلى أن ينهض من حبوه إلى مشيه ، فإذا انتظمت خطوته واستوت قامته ، شعر أن الطريق جزء من كيانه وبضعة من قلبه لا يستطيع أن يفارقها إلا إذا فارق الإنسان طبيعته ونزل عن جبلته ، فإذا تفتقت مداركه عرف أنه مسئول أمام شيخه وأمام ربه ، محاسب على خلجات قلبه ووساوس نفسه ، فإذا جمال الشيخ الذى كان يطالعه فى مبدأ أمره فيفرح ، ويطفر فى ظلاله ويلعب ، ينقلب إلى جلال وهيبة تقبضه وتبسطه ، وتطويه وتنشره ، فيخافه ويحذره ، ولكنه لا يجد عنه منصرفاً لأنه مقيد بحبه موثق بقلبه يحبه الحب كله ويخافه الخوف كله ، فياله من محب يخاف محبوبه ، وراغب يرهب مرغوبه .

وهكذا أبعد الناس من الشيخ مكاناً أقربهم إليه مكانة وأخوفهم

منه أعزهم عليه وأدومهم طاعة أكثرهم امتلاء . فلا غرو أن تجد ذلك المطرق الواجف ، والمستخذى الكاسف ، فى مرتبة تتقاصر عنها الأعناق ، ولا تحدها الأحداق .

ومن أروع ما أدب به أبناءه أنه ربما فلتت من أحدهم فلتة تسوء أخاه فلا يردها المساء إليه ويتحملها هاشاً باشاً كأنه لم يكن هو المعنى بها ، لأن الحفيظة والانتصار إلى النفس ليس لهما مكان فى قلوب الإخوان ، « إذا قابلوكم بالنفوس فقابلوهم بالقلوب ، فإن فى القلوب ماء يطفئ نار مافى النفوس » .

ومن كريم ما أخذ به الشيخ أبناءه أن يكونوا عوناً للعاثر ، فقد يصادف أن يأخذ الشيخ هفوة على أحد الإخوان تغير قلبه ، فلا يزال إخوانه يرققون حواشيها ويخففون أوضارها ، ويلتمسون لصاحبها الأعذار والحيل حتى تذوب فى نظر الشيخ وتمحى آثارها من قلبه الكريم . فلا يدهشك بعد هذا إن رأيت العامل الصغير ، والوجيه الكبير على بساط المساواة يغمرهما الحب ويلفهما العطف ، فقيمة الرجل بوزن إيمانه لا بوزن هندامه ، فحيث يكون يكون قدمه وخطره ومكانته ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« إن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ومن أدب الشيخ رضى الله عنه لتلاميذه أنه كان يشعرهم دائماً بأنهم فقراء إلى الله ، حتى أصبحت كلمة « فقير » عادة جارية على ألسنتهم ، فإذا أراد أحدهم أن يبدأ بكلام صدره بقوله الفقير «يقصد نفسه» يرى فى هذه المسألة كيت وكيت ، وكان الشيخ رضى الله عنه الغنى بعطاء ربه وفتحه وعونه لاتفارق تلك الكلمة لسانه فى أحاديثه ومناقشاته ، وكلمة فقير لا يقصد بها الفقر من المال ، فالغنى الواسع الثروة المدل بحوله وقوته هو الفقير حقيقة إلى عون الله ، وإنما يقصد بالفقير فى نظر الإخوان المحتاج إلى ربه المنتظر لرفده الظمآن إلى ورده المستجدى رضاه ، هذا هو الفقير فى تعبير الطريق سواء أملك القصر العظيم أم سكن الكوخ الحقير . وإنك لو قلبت هذه الكلمة على جوانبها ، لاستخرجت منها بديع المعنى وغزير المغزى ، ففيها أن الله هو القيوم وكل الناس قائمة بقيوميته ، فكلهم فقير إليه ، وفيها أنه لاحول لك ولا قوة بجوار حول الله وقوته ، ومن كان كذلك كان ضعيفاً والضعيف فقير إلى سند مولاه ، وفيها أنك تائه فى دنيا الأسباب ، فمن كان كذلك كان فى حاجة إلى من يهديه فيكون فقيراً إلى هذا الهادى ، وفيها وفيها من هذه المعانى الغالية التى يعجز مثلى عن استدراك كنهها أو اجتلاء حقائقها ، ومما ربى به الإخوان رضى الله عنه ألا يخاطب أخ أخاه باسمه مجرداً بل يسبقه بنعت يشعره بالاحترام ، فيقول مثلا سيدى الأوسطى فلان وسيدى فلان بك لا فرق بين كبير، وصغير لأنهم جميعاً فى حضرة الله .

وكان يكره التنطع فى الكلام وتصيد الألفاظ الغريبة ويأمر الإخوان بالسهولة فى التعبير حتى يفهم عنه كل الموجودين . وكان إذا هم أحد بكلام وخانه اللفظ فجاء به على وجه غير صحيح وأراد أحد إخوانه أن يصححه له قال له الشيخ رضى الله عنه: « لاتحاسب اللفظ مادمت تعرف هدف السؤال » يقصد بذلك عدم تجبيه أخيه بما يخجله خصوصاً إن كان من المتعلمين ، ومما ربى به الإخوان أيضاً أنه إذا مدت الموائد وانتظم عليها الآكلون لا ينبغى أن يتناولوا الطعام قبل أن يأذن الشيخ ، فربما كان بعض الإخوان فى خدمة أو فى عمل خارج البيت فيفوته شرف السبق مع إخوانه الطاعمين ، كما كان يكره لإخوانه ارتفاع الصوت إلى حد غير مألوف مادام المخاطب فى صحيح سمعه .

وإذا تكلم أحد الإخوان ترك لإخوانه بقية ، وأذكر أنى حضرت مرة لزيارة الشيخ من مقر عملى فى الصعيد ، فأخذ يسألنى عن الرحلة ، وبدأت أقصها من وقت أن وضعت رجلى فى القطار وتحرك إلى المحطة التالية ، فى أسلوب فيه بعض التطويل ، فقال رضى الله عنه : « قف على تلك المحطة ، واترك إخوانك يتكلموا » ، يعنى أسكت ولا تأخذ على المجلس آفاقه .

ومما كان يوجه إليه نظر الإخوان دائماً أن المريد يجب أن يكون قلبه وتفكيره ووعيه مع شيخه ، يتمثله فى غيابه وحضوره ، ويتأثره فى أعماله وأقواله ، ويأخذ كل مايلقى عليه منه ، مأخذ

المشغوف به الحريص عليه، ولا يعترض على شيخه فى أى شىء، حتى فى الأشياء التى لا يراها بنظره، أنها جارية بجرى العادات.

اسمع منه رضى الله عنه هذه الحكم العالية والآداب الجامعة:

(من لم يعاشر الأشياخ على طريقة الاحترام حرم بركة صحبتهم، فإذا لم تشهد ذاتك لشيخك بالتعظيم وقلبك بالاحترام ونفسك بالهيبة، وتستشعر ذلك من نفسك اضطراراً من غير تعمّل ولا تصنع فاعلم أنك أجنبى عن شيخك، ولم تحصل وصلة بين قلبيكما).

ومن علامة احترامك له إيثارك إياه على الكل حتى لو كنت بين من يرون لك المقام الأعلى، وحضر شيخك كنت بين يديه كمن ارتكب جرماً وأوقفت بين يدى الحاكم، فيظهر أثر ذلك على ظاهرك، بإطراق الرأس واضطراب الجسم وخفض الصوت، وغض البصر، وتغير اللون، وتبلبل اللسان، وضياع الفكر حتى إنك ربما لو سئلت عن نصف الاثنين لاتدرى ماتقول. ولا تفارق هذه الحال كلما تذكرت شيخك فى غيبته عنك، فلا ينبغى لك أن يخطر ببالك عدم غيبته عنك، إذ من ملىء قلبه باحترام شيخه ورأى له الكمال والتعظيم، وأقر له بالترقى والتقدم، والسر والخصوصية. فإنه يكون فى كل أحيانه متيقناً أن الشيخ إن لم يكن معه بجسمه فهو معه بسره، بل إذا تقوّى علم أن المسافة لا تحجبه عن شيخه، إذا علم أن قلب شيخه قد استنار بنور ربه. فإذا كان التلميذ على

الحال التي وصفنا ، فإنه يكون قد اتحد قلبه بقلب شيخه وهذه بداية مقام الاتحاد .

فإذا أراد الله تثبيته رسخ قدمه في حب الشيخ بانشراح صدره لما يستقبله الشيخ به من جفاء وحكم وزجر ، واتهار وتوبيخ وتعنيف ، وإظهار عيب وفضيحة بين إخوانه وبين الناس ، وإهانة وخدمة في خسة ، وغير ذلك مما لا يلائم طبعه ، وهذا محك المحبة ومسبارها ، فيظهر جوهرها ويخرج من الامتحان ، إما ذهباً إبريزاً وإكسيراً حقيقياً ، وإما نحاساً أو حديداً أو قصديراً . فإذا كان صادقاً ثبت قدمه ، وإن كان كاذباً اتضح كذبه ، إذ الصدق يكون في القلب كالبذرة ، فتنبت بذرة الصدق بمداومة استعماله ومراعاته فتنمو وتورق وتعلو وتمتد أغصانها حتى تظهر من باطنه على ظاهره ، ثم تتطاول تلك الأغصان امتداداً حتى تظل أهل محلته ، ثم تزداد حتى تسد أفق بلده ، ثم إقليمه حتى يعرف عند الجميع بالصدق) .

قل لي بالله هل ترى أدباً كهذا الأدب ، وتوجيهاً كهذا التوجيه ؟ فلو أن الله نشر سقراط فيلسوف اليونان وسمع هذا الكلام أتراه يصمم على أستاذيته ، ويطلق على نفسه المربي الحكيم ، أم يجثو على ركبتيه أمام هذه الآراء الصائبة والتوجيه السديد .

إن سقراط وإخوان سقراط من فلاسفة وحكماء ، مشوا وراء عقولهم إلى عالم الترقي ، فاقتطفوا زهرات من روضات ، ورشفوا

قطرات من بحار ، والتقطوا من هنا ومن هناك حبات ، ثم جمعوا كل ماحصلوا عليه ونشروه فى عالم الواقع حكماً وفلسفة ، فهم وإن كانوا قد حصلوا شيئاً إلا أنهم لم يحصلوا كل شئ .

ولكن شيخنا رضى الله عنه ظفر بالحقائق كلها ، ظفر بها إفاضة وغمرته تلقياً ، فوصل إلى الحقيقة من طريق الحق ، وتلقفها من معطيها الأول جل شأنه ، فعلومه علوم لايرقى إليها الشك ولا يأخذ منها الضعف فى أى جوانبها ، بل هى حقائق ثابتة إفاضية لم يكتسبها من مجهود عقل ، ربما كما فى بعض شطحاته أو كل من طول ماجهد .

فسقراط وأشباهه كشفوا ما كشفوا بنور عقولهم ، وشيخنا رضى الله عنه كشف ما كشف بنور ربه فظهر الفرق .

طهارة القلب

العبرة عند الشيخ رضى الله عنه فى سلوك المريد إلى ربه طهارة قلبه ، هذا هو الأصل ، وما عدا ذلك فظواهر .

وقد قلنا : إن هذه المضغة إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك ترى الشيخ رضى الله عنه لم يتقدم إلى مريد ليرسل لحيته ، ولا إلى غيره ليحلقها ، ولا يعنيه من أمر تلاميذه تجمل الثياب ، ولا ملاحة الزى ، ولا تشعث الشعر ، ولا تسريحه وصقله ، فكل

وما اختار ، ولكن الذى يعنيه هو مانصب نفسه له طول حياته وهو تطهير النفوس ، واستقامة القلوب ، فليس الزهد فى قشف الهيئة وشعث اللمة ، ولكن الزهد تطهير النفس من الشهوات .

وكان مما يأخذ به إخوانه عدم التفاخر بالطاعة ، فرب معصية يعقبها انكسار خير من طاعة يعقبها تفاخر .

كان فى مجلس الشيخ أحد الإخوان صائماً نفلا فى غير رمضان ، وكلما مر عليه فنجان القهوة قال أنا صائم ، بصيغة لحظ فيها الشيخ رضى الله عنه نوعاً من المباهاة ، فأمره بالإفطار فأفطر ، فانكسر قلبه ندماً من ملاحظة الشيخ عليه وراح فى دموع واستغفار ، فقال له رضى الله عنه تلك عند الله خير من صيامك — يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

وتلك أخف مما وصل إلينا عن سيدى أبى يزيد البسطامى ، لأن ضياع نافلة بجانب دره خطر داهم ونفس تيقظت ورياء تراءى خير وأعظم أجراً .

أما سيدى البسطامى فقد كان يهيم فى الغابات والأحراش بعيداً عن عيون الناس وألسنتهم ، وعما يوجب التشاغل بهم .

وبعد أن قطع صدراً من الأيام فى تلك العزلة ، أو فى تلك السياحة ، هم بالرجوع إلى محلته ، فعلم الناس بقدومه ، وكان عندهم معززاً ، وفيهم مكرماً ، فهرعوا إليه يستقبلونه رضى الله عنه فى

زحمة كبيرة وترحيب عظيم، وهو والناس فى رمضان صائمون، فما أن وجد هذا الإستقبال الحافل والأصوات المدوية والأيادى الملوحة، حتى أخرج خبزة من جرابه ولاكها بين ماضغيه حتى ظن الناس أنه أفطر، فتصدعوا عن طريقه، وداخلهم منه خيبة أمل كبيرة، ونجا هو بسلامة نفسه وراحة قلبه.

ترى لِمَ أفطر (البسطامى) وأفسد فريضة يوم من رمضان، وإفطار يوم من رمضان لا يكفره الدهر وإن صامه؟ ألا تكون نفسه اهتزت واستراحت إلى هذا الإستقبال العظيم، فخاف منها وخشى أن تدب عقاربها؟ وتظهر براثنها بعد أن جاهدها جهاداً مريراً قلم فيه أظفارها، وأضعف همتها، ودفنها دفناً فى أرض الخمول؟ ولم لا يكون كذلك؟

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه
إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة
وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

وما على سيدى البسطامى أن ينبذه الناس ويولوا ظهورهم نحوه ، إن فى ذلك نجاة بحشاشته .

ولِمَ لم يأخذ سيدى سلامه رضى الله عنه بهذا الدواء الشافى ، وأعدى عدو له النفس ؟ النفس الأمارة ، التى مكث طول حياته يقتلعها جذراً جذراً وفرعاً فرعاً من قلوب تلاميذه حتى نجوا من شراكها وتخلصوا من بوائقها .

وهل سيدى سلامه إلا الطبيب النطاسى ، الذى يضع المكواة على رأس المرض ، والمربى الحكيم الذي يحجز تلاميذه عن مهاوى السقوط ، والخبير المجرب الذى يرى فتصيب رميته الهدف :

أعلت أشرف أو أجل من الذى　　يبنى وينشئ أنفساً وعقولا

وأخشى أن يفهم بعض الذين لم يقفوا على تعاليم الصوفيين وآدابهم ، أن معنى قتل النفس ودفنها فى أرض الخمول هو الرضا بضياع حرمة ، أو هتك عرض ، أو استلاب حق ، أو الانزواء عن مطاردة عدو ، أو دفاع عن وطن ، كلا ، فرجال الصوفية أهدى عقلا ، وأسد رأياً ، من أن يقتلوا همة نشطت فى مجاهدة غاصب ، أو سلب حق ، أو هتك حرمة ، بل إن وظيفتهم الأولى تبصير تلاميذهم بأمور دينهم ، وحثهم على الفضائل فى نواحى مظانها ، وتخلقهم بأخلاق الشجعان الذين يعيشون كراماً أو يموتون أحراراً .

ولقد كان رجال الصُّفَّة ومنهم أخذت الصوفية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الصفوف جهاداً ، وفى طليعة المجاهدين احتساباً ، وكم قتل منهم من رجال فَرَوَوا الأرض بدمائهم الزكية طلباً لمرضاة الله .

فالصوفى الذى يقتل نفسه كل يوم عشرات المرات ، ويحرمها لذة شهوتها ، ورغبات ميولها ، ويقيدها إن همت ، ويكبحها إن جمحت ، لا يضن عليها بموتة كريمة وتضحية عظيمة ، فى سبيل الله العلى الذى رصد قلبه وروحه لخدمته والإذعان إليه .

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من إحدى غزواته فقال ما معناه : « انتقلنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وإنما قصد بالجهاد الأكبر مجاهدة النفس وكبح غوايتها ، وهل الصوفى إلا ذلك المجاهد نفسه ، بعد أن يلقى سيفه ويتحلل من قوسه ، ويرسل فرسه ويخلع لامة الحروب .

مُرَّ على صوفى منقطع إلى الله وحاول أن تخدش شرفه ، أو تعتدى على حريمه ، فستجد فى ذلك الضاوى المنطوى على نفسه ، المنزوى فى طمره ، وثبة الأسد ومخالب النمر وكريم التضحية ، لأنه قرأ وفهم قول الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله

وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » ، وهل دفع مايعيب الشرف أو ما يُميل راية الوطن غير جهاد فى سبيل الله .

فإذا قلنا إن الأشياخ يقومون نفوس تلاميذهم ، فمعناه أنهم يروضون هذه النفوس على التواضع والقناعة ، والرضا والتقوى ، واتباع السنة .... الخ

اسمع قوله رضى الله عنه يحدثك عن الأدب :

« ياأحباب إننا نريد منكم أن تسيروا فى مقام التواضع ، ولسنا نحاسبكم على التواضع الباطنى الآن ، ولكننا نريد منكم أن تأخذوا فى أسباب التواضع الظاهرى ، فإنه يجركم حتما إلى التواضع الباطنى » ، وذلك أن تراعوا الآداب فيما يأتى :

الجلسة : بمعنى ألا يكون الإنسان ممدداً رجليه أو متكئاً .

الإطراق الخفيف :

النظرة : بمعنى أنه لاينظر فى وجه أخيه محلقاً ، بل يلتفت إليه التفاتاً خفيفاً كالتفات المسلم فى الصلاة .

خفض الصوت .

عدم الإجابة بسرعة :

قلة الكلام :

الاجتهاد فى تصحيح الألفاظ ، بمعنى أنه يترفع عن الألفاظ

العامية غير اللائقة إلى العربية الخفيفة، بحيث لا يتفيهق ولا يتعسف في ذلك، بل يجعل الأمر بين بين، لما في ذلك من المساعدة على قلة الكلام.

فهذه الآداب السبعة يجب الالتفات إليها والتنبه لها ومراعاتها ولو واحدة فواحدة.

ثم قال رضي الله عنه:

« ويجب على المريد الذي في طريقنا أن يجتمع فيه خمس خصال حميدة، إن خلا منها فقير فليس هو من الطريق في شيء، وهي:

تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله في القليل والكثير، والرجوع إليه في السراء والضراء ».

فهذه خمس خصال هي رأس مال الفقير، فمن خلا منها فليس له رأس مال في الطريق. وفقنا الله تعالى للتخلق بما يحبه ويرضاه، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

طريقته في التأليف

يكون في المجلس وتلاميذه بين يديه، والمجلس مكتظ آهل، فيدير عليهم السؤال ويتلقى منهم الجواب، مناقشاً آناً ومصححاً آناً، يسير مع هذا في تفكيره يقوم انحرافه، ويثبت خطاه، فيسنده إذا ترنح، ويشجعه إذا تخلف ويأخذ بيده إن عثر، ثم يفيض



على أحبابه عذب الإجابة ، ويبصرهم بوجه الكلام ، وطريقة البحث ، ثم يميل بهم إلى ناحية أخرى يكشفون معمياتها ، أو يوضحون ألغازها ، وهو بينهم بذهنه ولسانه ، سائلا مرة ومجيباً أخرى ، ومناقشاً تارة ومقرراً تارة أخرى ، حتى إذا انتهى المجلس يكون قد انتهى هو أيضاً من تأليف جزء عظيم من مؤلف كبير ، أو قصيدة عامرة الأبيات ، أو مقطع جامع لأنواع الهدايات ، فى زحمة المناقشة وطول المحادثة ، وإجابة سائل ، وتفقد غائب ، وسؤال عن مريض مما يقتضيه الحال فى مثل هذا المقام .

فإذا قرأت ما كتب رأيت نور المعانى فى أسوار المبانى ، وشممت رائحة الزهور فى امتداد السطور ، وسبحان الله الذى لا يشغله شأن عن شأن ، يختص من يشاء بالكرامة المعجزة والعادة الخارقة .

مؤلفاته

هاهى ذى الرياض فارتع فى أفيائها ، وتنسم عبيرها ، وأطعم نفسك ومن شئت من ثمارها ، فإنها غذاء الجائع ، ورى الصادى ، وثوب العارى ، وعزاء الحزين . فى قطوفها خمر ، وفى رحيقها سكر ، وفى ثمراتها حياة ، تعلوها حلاوة ، وتأخذها طلاوة ، تغرد على أفنانها أصوات سماوية ، وموسيقى صوفية ، تطرب وتسكر ، وتوجد وتغنى ، وتأخذ وتعطى ، سبحانك ربى من معط وهاب .

هذه الرياض التي نفحك عبيرها ، وأنعشك شذاها ، وأسكرك حُمَيَّاها ، ليست أشجاراً ترف عليها ورقات ، ولا جداول تنساب فيها مياه ، ولا ألواناً خضراء تحت سماء زرقاء ، بل هي أجمل في العين وأطرب في السمع ، وأعذب في الذوق ، وأشهى في القلب ، من ضحكات الأزهار ، ونور النوار وفيح الطيب ، وهبات النسيم ، إنها مسطورات بها حامديات نورانية ، ونفحات صوفية ، وطرف زكية ، وحكم علية . يجرى إكسيرها في الروح فتصفو ، ورواحها في القلب فيسكر ، وسرها في الوجدان فيتفاعل ، تنشرك وتطويك ، وتأخذك وتعطيك ، وتصعد بك تحت مدارات الشموس وتسفل بك في مدارج الجبال تريك ربك في الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، وتريك قدرته في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى .

تعمق الصوفية فاستخرج لآلئها من محاجر صدفاتها ، وكشف باطنها من حجاب خبآتها ، فظهرت في جمالها وبهائها تجلو الرَّين وتنير القلوب .

تبطن الحقيقة فعرف سرها ، وكشف غورها ، فرأى الآثار بنور المؤثر ، والمخلوقات من طريق الخالق ، والفاني من حقيقة الباقي ، فحكم بأن كل ما خلا الله باطل .

درس القرآن الكريم من جانبه النوراني وسره الروحاني ،

فاتسقت له المعانى وانتظمت به المبانى ، فعرف لكل آية سرها ولكل زهرة عطرها ، فقدس الله تقديس العارف به المتحقق منه المشاهد له .

مشى فى أحكام الشريعة فوفق إلى أغراضها ، فعرف أن الأحكام قائمة على أسرار فمن كشف أسرارها نشط جسمه بأنوارها .

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

عرف أن القلب مضغة إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله ، فشخص أمراضه ووصف له العلاج والدواء .

عرف (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ، فوقفه على حقيقته ، وأصل عبوديته ، وأنه فقير وإن ملك الدنيا ، ضعيف وإن ظاهرته الحياة ، محتاج وإن كفته الدنيا المؤونة والمعونة ، ثم رسم له طريق النجاة ، وكيف يستغنى عن استغنائه ليخلص من طغيانه .

مشى وراء التائه المتخبط فى ديجور الضلالة فرفع له منارة هادية يخطف عليها قبس منير .

وإنك لو قرأت ما كتب وتفهمت ماسطر لوجدت هذه المعانى فى مبان تعطى الحكمة والنور والعرفان ، فعليك بها فإنها والله زاد المسافر ، ودواء المريض ، وسلوة الحزين ، وأمان الخائف ، وكعبة الآمل .

وإنى بعون الله سأفرد فى هذا الباب بعض مؤلفاته رضى الله عنه حروفاً من نور فى سطور ، تهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين .

(١) الجوهرة الحامدية : صلاة على الرسول ومدح فيه ، وهى ورد الطريق وتقرأ فى الحضرات .

(٢) النفحة المحمدية : وهى مجموعة حكم قدسية نورانية .

(٣) شرح الوظيفة الشاذلية : شرح واف كامل لدعاء وتوسلات سيدى أبى الحسن الشاذلى شيخ أستاذنا الأكبر .

(٤) تلقين الطريق : صيغة وضعها رضى الله عنه تقرأ عند تلقين الطريق . .

(٥) المنح الحامدية : حكم وأمثال ، تتناول أغراضاً شريفة وحكماً سامية .

(٦) الجواهر : مقالات صوفية وأناشيد حكمية ، ومدح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٧) نفحات العشاق : مقالات صوفية وأناشيد حكمية ، ومدح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٨) غنية المنشد : مقالات صوفية وأناشيد حكمية ، ومدح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٩) الفيوضات الإلهية : مقالات صوفية وأناشيد حكمية ، ومدح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١٠) مظهر الكمالات فى مولد سيد الكائنات : وهو يتناول السيرة النبوية نظماً ونثراً .

(١١) أسئلة فى البسملة : شرح يتناول أسرارها وأنوارها ونواحيها القدسية .

(١٢) الموعظة الحامدية : موعظة دينية ترمى إلى تهذيب النفس وتقويم الطباع .

(١٣) السلسلة الذهبية : عنعنة تصل بأشياخ الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١٤) نظام الروابط : وهو كل ما يربط قلب التلميذ بشيخه .

(١٥) النصيحة: مجموعة نصائح تتناول أحوال المريد مع شيخه .

(١٦) رسالة فى الأثر الشريف : « نعم العبد صهيب » وهى تتناول بالشرح فضل سيدنا صهيب .

(١٧) رسالة الإنسانية : رسالة طبية .

(١٨) دفتر الديوان : مجموعة زجلية وضعت فى دفتر الديوان ترمى إلى حكم وأخلاق .

(١٩) أسئلة فى التوحيد : وجهت إلى دار الإفتاء ، وترجم بعضها بالانجليزية .

(٢٠) قانون الطريق : بحث فى نظام تكوين الجماعات وروابط الإخوان .

(٢١) شرح الخزبة : شرح لبعض اصطلاحات الصوفيين .

(٢٢) حزب تفريج الكروب : دعاء يقرأ عند الملمات .

(٢٣) الكمال فى الملاح صدف : معان لطيفة وإشارات سامية .

(٢٤) حزب الإخلاص : أدعية يستنجد بها العبد ربه فى غفران السيئات .

(٢٥) رسالة المنتظر : فى بعض إخوان انقطعوا عن عملهم .

(٢٦) إجابة أسئلة الدكاترة : شرح للذكر والقرآن وما يتبعهما من تجليات المستشرقين .

(٢٧) الرسائل الحامدية : وهى ست رسائل أرسلت إلى حضرة ابنه البار سيدى إبراهيم سلامه ، أثناء زيارته لمديرية المنوفية ، وتتعمق التوحيد والمحبة وتشير إلى غير هذا من معان ذاخرات .

• • •

هذا وقد قام حضرات الإخوان بطبع ما لم يطبع وإعادة بعض هذه المؤلفات بعد انتقاله رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى . وهى :

(١) الفيوضات الحامدية : وتشمل رسائل فى النواحى الاجتماعية والدينية وصلة العبد بربه .

(٢) مناظرة بين القرد والجمل : مناظرة اجتماعية بين هذين الحيوانين .

(٣) الحامديات : وهى مجموعة كريمة من قصائد تنشد فى الحضرات وتوسلات إلى الله .

(٤) الأوراد : وهى مجموعة أوراد للسالكين طريق الحق سبحانه .

(٥) الجواهر : من حكم وأمثال وفيوضات إلهية .

(٦) الحامديات : « « «

(٧) المنح « « «

(٨) الفتوحات : لطريق السالك إلى الله تعالى .

(٩) النفحة المحمدية : فى حكم الشيخ الروحانية .

حدة ذكائه

وكان رضى الله عنه حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، قوى الحافظة ، وناهيك برجل يحفظ القرآن وهو فى السادسة من عمره ، ويضع كتيباً فى الأخلاق لا تزال أصوله فى مكتبة الإخوان وهو فى التاسعة ، ويحفظ ألفية ابن مالك فى عشرة أيام ، والحقيقة أنها فى عشر ساعات لا فى عشرة أيام ، فقد كان موظفاً ، وكان بين بيته

وبين عمله مسافة نصف ساعة ، فكان يحفظ خمسين بيتاً فى ذهابه ، وخمسين بيتاً فى إيابه ، فاستظهر الألفية فى تلك الساعات . وكان رضى الله عنه شديد العناية بعمله الحكومى ، فربما يكلف بعمل من أعمال وظيفته تشغل غده كله ، فكان يحمل ما كلف به إلى بيته لينجزه حتى يصبح فى عمل جديد ، فكان يجلس فى مكانه من الإخوان ، — وهل كان له مجلس غير مجلس الإخوان — ويأخذ فى هذا العمل المسند إليه قبل كظة المجلس وامتلائه ، ولقد قص على الأخ الكريم الحاج شكرى محمد ، بأنه ربما يتصادف وجود بعض الإخوان وهو بينهم ، فيطلب إليه أحدهم أن يشركهم فيما هو فيه ، فيعطيهم جانباً منه فينشغلوا بهذا الجانب الواحد مدة يكون فيها قد أجهز على الجوانب الباقية المتعددة ، وينقلب إليهم مساعداً فيما أخذوا فيه .

ومالى أذهب بعيداً ، فإننى أكون فى المجلس ، وقد ظهر على الإخوان شىء من الإعياء ، من طول متابعة المناقشة والحوار ، فيأخذهم الشيخ رضى الله عنه إلى نوع من الترفيه والاستجمام . فيطارحهم الشعر ، وما أكثر من كانوا يحفظون الشعر خصوصاً أشعار القوم من إخوان المجلس ، فينقسم المجلس قسمين ، أحدهما الشيخ فقط ، وثانيهما الإخوان جميعاً فيساجلهم الشعر ، حتى يرهقهم ويسكتهم ، فإن وصلوا إلى تلك الحالة حمل عنهم ما كان يجب أن يقال .

ولقد مر بك أنه رضى الله عنه كان يقرض القصيدة من الشعر فى زحمة المناقشة ، وحدة المحاورة ، ولا يخلص إلى الورقة التى يصيغ عليها إلا فى لحظات ، ومع ذلك لا ينتهى المجلس إلا بانتهائها . ولربما تلقفها أحد المنشدين فأنشدها للإخوان فى نفس المجلس .

وإنه ليعود بذاكرته خمسين سنة لمناسبة بيت من الشعر يذكر فيسرد القصيدة بحالها ولو كانت فى طول المعلقات .

اعتـــداله

كان شيخنا رضى الله عنه حكيماً ، يضع الشىء فى محله ، فلا يرسل كلامه إرسالا ، ولا يطلقه اعتباطاً ، بل يزن الكلمة بميزان دقيق ، ويضعها بين كلمات الجملة فتستريح معنى وغاية ، حتى إذا نقلت إلى السمع استقرت فى القلب بمعناها الذى أراده ، ومغزاها الذى هدف إليه ، فلم يحوج سامعيه إلى تكرارها ، ولم يتعبهم فى تقرى ما فيها ، فلا يعرب إذا كان السائل أمياً ، حتى لا يرهقه فى أخدود الجواب ، ولا ينزل إذا كان السائل متعلماً حتى لا يسفل بتفكيره وهكذا .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن الشيخ رضوان الله عليه لم يؤخذ عليه قول يعطى معنى غير مألوف . كأن يقول بقولة « الحلاج » أو بقول أحد من الحلوليين ، بل أثارها حرباً شعواء على من قال.

بوحدة الوجود ، أو وصف الله بغير ما تواطأ عليه المسلمون ، ويعد بعض ما تفوه به بعض كبار الأولياء « شطحات » جاءوا بها فى غيبتهم ، وأنكروها فى حضورهم ، وليس على غائب العقل من سبيل .

فإذا استعرضت حكمه وفيوضاته ، لم تجد إلا آراء مستقيمة ، وإلا أقوالا سديدة ، معناها فى مبناها لا تزيد .

وقد كنا كثيراً ما نأخذ رأيه فى بعض كلمات صدرت من عظماء صوفيين ، لا تبده العقل بمعناها بدون تفكير وتقليب ، فكان رضى الله عنه يأخذ فى تفتيت ألفاظها ، ثم يجمعها فى قالب مستقيم ، ثم يصب عليها المعنى فإن وسعته ظهر وجه المسألة ، وإن ضاقت عنه نبذها ولم يلتفت إليها ، أما ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث إلا أن معناه فوق عقول بعض الناس فكان يعمد إليه موضحاً ، ورد ألفاظه إلى لغة العرب الخلص ، حتى تتساند إلى معانيها فى سهولة ويسر ، ولقد مر به حديث « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » فتعرض إلى أداتى النفى المتعاقبتين على الحديث ، وما يعطيه تكرارهما من لبس ، فأزال هذا اللبس ، وجلا الحديث فى ثوبه القشيب ، ولقد وضع فى هذا الحديث بالذات كتاباً كامل الصفحات ، محكم العبارات ، لا تزال نسخ منه فى مكتبة المشيخة .

ولقد تعرض لحديث الرؤيا بين نبى عائشة رضى الله عنها

وإثبات عبد الله بن عباس على ماأظن فوفق بين الحديثين توفيقاً عجيباً ، ولم يفسد رواية أحدهما رغم تناقضهما .

وكان يتخذ مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه تعبداً ومع ذلك لم ينتصر له فى كثير من القضايا ويرى الحق بجانب مذهب آخر ، أو على الأقل يوفق بين المذهبين .

حضرات الذكر

الحضرات تأتى فى المرتبة الثانية بعد مجلس الشيخ رضى الله عنه ، فمجلس الشيخ فضلا عن أنه ذكر فهو تعليم وتهذيب وتثقيف وحظوة باجتلاء وجه الشيخ الكريم وسماع يشنف سمعك وجمال يقر عينك ويريح قلبك ، ولدنوّ المجلس من أرواح المحبين كانوا يتزاحمون عليه والحضرة ذاكرة على كثب منهم ولا يتحولون عنه إلا بأمر من الشيخ رضى الله عنه .

نظام الحضرات

لكل بيت من بيوت الطريق أو مجموعة من مجموعاته زاوية تقام فيها ، الحضرات فإخوان القرى لديهم زواياهم وكذلك إخوان المدن . وكل جماعة من الجماعات تقوم بحضرة بعد صلاة العشاء من كل ليلة أو فى ليال معيّنة من الأسبوع تحت إشراف نائب الحى أو الخليفة الملقن — أما الحضرات الجامعة وهى التى تكون

فى المساجد الكبيرة العامة ، فكانت تحت إشراف الشيخ مباشرة
وتقوم بعد صلاة العشاء بفترة تكفى المتخلفين عن صلاة الجماعة ،
فعندما ينتظم عقد الإخوان يجلسون صفوفاً مستطيلة أفقية بحيث
يكون نصف الإخوان فى نصف المسجد متقابلة وجوههم مع
نصف الإخوان فى النصف الآخر من المسجد ويترتب على هذا
أن يتوسط المجلس صفان من المنشدين متقابلان وبذلك يسهل
عليهما تناوب الأناشيد مع بعضهما ويدور حول صفوف الإخوان
المتراصة فى خطوط مستقيمة صف خارجى محيط يحمى ظهور
الذاكرين ، ويقبل الشيخ رضوان الله عليه فيجلس فى منتصف
الجماعات ، ويفتتح الحضرة بتلاوة حزب (الجوهرة الحامدية)
أو (الوظيفة الشاذلية) أو (حزب الإخلاص) أو ببعض من أبهما
ثم يذكر جملة « لا إله إلا الله » ويتبعه سائر الذاكرين فترة مليئة
ثم يقف بهم ذاكراً الاسم « الله» تارة بصوت خافت ، وتارة
بصوت بين الخفوت والارتفاع ، وثالثة بصوت مرتفع ، وبين
تنقلات هذا الاسم الكريم يبدأ المنشدون عملهم بقصائد دينية ،
أو أناشيد صوفية ، أو توسلات بآل البيت . ، والشيخ يصفق
لتنظيم أصوات الذاكرين ماراً بين صفوفهم ينبه قلوب الإخوان
ويلهب مشاعرهم ويوقظ غائبهم ، حتى إذا استوفوا حظهم من
أنوار الاسم الكريم نقلهم إلى غيره من أسماء « الله لا إله إلا هو
الحى القيوم » فى ذكر جلى واضح ظاهر المقاطع سليم النطق إلى

أن يجلس الذاكرون والشيخ رضى الله عنه ، فيتلى شئ من القرآن الكريم يعقبه ذكر جملة « لا إله إلا الله » ثلاث مرات بالصوت العالى ، وتختتم بجملة محمد رسول الله ، ثم إذا شاء الشيخ رضى الله عنه كلف أحد المنشدين بإنشاد شئ من قصيدة أو غيرها ، ثم اللطفية ، فإذا فرغوا ذكروا جملة (لا إله إلا الله) مرة واحدة ، وختموها بجملة (محمد رسول الله) ، ثم قراءة الفاتحة مرات بنيات مختلفات ، ثم تختتم الحضرة بجملة الصيغة الأولى — ويقف الشيخ رضى الله عنه لمصافحة الإخوان بين اثنين منهما معتمداً بمرفقه على يد أحدهما حتى ينتهى من المصافحة مهما كان عدد المصافحين ، فيمشى رضوان الله عليه باب المسجد فى زحمة من الإخوان زاحمة ، وكانت للإخوان حضرتان عامتان فى مسجدين مختلفين فى مسجد سيدى أبى العلا ببولاق فى مساء الأحد من كل أسبوع ، وفى مسجد السلطان الحنفى فى مساء الثلاثاء من كل أسبوع ، وقد كانت تقوم حضرات فى مساجد أخرى بإشراف الشيخ رضى الله تعالى عنه ، كمسجد سيدى الشعرانى ، وسيدى على البيومى ، وسيدتى فاطمة النبوية ، إلا أنه استغنى عنها بالتدريج ، أما فى مناسبات موالد كبار الأولياء ، فقد كان للإخوان ليلة خاصة يحيونها تحت إشراف شيخنا رضوان الله عليه .

أما طريقة المصافحة : فهى أن يضع المريد يده فى يد الشيخ بحيث تكون أصابعها ملتفة على ظهر يد الشيخ الشريفة ، وكذلك

يد الشيخ مع المريد ، ثم يرفعان يديهما كلتيهما إلى قريب من فمهما فيقبلان أو يشمان . ومما هو جدير بالذكر أن المصافحة على هذه الطريقة ترمز إلى المساواة بين أخوين يتصافحان فهما معاً فى قبلة واحدة أو شمة واحدة فى مستوى واحد ، وتلك لفتة من أصحاب الطريق مقصودة لهذه الغاية السامية ، والفكرة العالية ، أسكننا الله معهم فى مقام صدق عند مليك مقتدر .

وإنا لذاكرون لك بعضاً من معانى أسماء الله الحسنى التى اختارها الشيخ رضى الله عنه فى الحضرات ، ومبينون بعض ما اشتملت عليه من أسرار وأنوار ، وما احتوت عليه من فيوضات قدسيات ، ونفحات عاطرات .

أسماء الله الحسنى فى الأذكار

أسماء الله الحسنى التى اختارها رضى الله عنه لحضرات الذكر محصورة فى آية الكرسى ، كما أشرنا إلى ذلك وهى على هذا الترتيب :

لا إله إلا الله — الله — هو — حى — قيوم

واختياره إياها رضى الله عنه ترجع إلى عظيم أسرارها ، وقوة أنوارها .

وسأكشف بعون الله تعالى بعض نواحيها ، معتمداً على ما تلقفته من فيوضاته فى المجالس ، وما اختزنته من مطالعاتى الخاصة ، ومن بعض آراء المؤلفين والمفسرين .

أسرار آية الكرسى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ماقرئت هذه الآية فى دار إلا واهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر، ولا ساحرة أربعين ليلة ».

وعن على كرم الله وجهه أنه قال: سمعت نبيكم على أعواد المنبر وهو يقول: « من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والبيوت التى حوله ».

وتذاكر الصحابة أفضل ما فى القرآن، فقال لهم على رضى الله عنه: أين أنتم من آية الكرسى، ثم قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ياعلى: سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسى ».

أسرار « لا إله إلا الله »

لم أجد كلاماً أشفى للصدر، وأنور للبصيرة، وأهدى للقلب، من شرح شيخنا رضى الله عنه لهذه الصيغة على طول ما طوّفتُ على الكتب، وتعمقت كلام الناس.

وها هو ذا كلامه رضى الله عنه فيها ، أملاه على بعض إخوانه المجلس ، قال :

لا إله إلا الله نفى وإثبات ، (لا إله) نفى ، (إلا الله) إثبات ، النفى ينصب على كل ماسوى الله من المعبودات بغير حق ، فى حالة النفى يلاحظ الإثبات ، الإثبات اعتقادات الألوهية لله وحده ، أو التأثير أو الفعل ، الإله المعبود بحق العبودية والعبودية الاستسلام والانقياد ، النفى على اليمين والإثبات على اليسار بمحاذاة القلب ، ينفى من القلب اعتقاد التأثير أو الألوهية لغير الله ، فيلقيها على اليمين ، ثم يرجع بالإثبات على اليسار فى القلب يلاحظ السفلى ، فى الإثبات يلاحظ العلوى ؛ فيخفض رأسه ذاهباً من اليسار إلى اليمين ، ويرفعها راغباً من اليمين إلى اليسار ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ينشر على بعض عباده يوم القيامة تسعة وتسعين سجلا ، كل واحد منها مثل مد البصر فيقول له هل تنكر من هذا شيئاً ؟ هل ظلمك الكرام الكاتبون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الله تعالى: أفهل كان لك عذر فى عمل هذه الذنوب ؟ فيقول لا يارب ، فيضع ذلك العبد قلبه على النار ، فيقول الله تعالى : إن لك عندى حسنة وإنه لا ظلم اليوم ، ثم يخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » ، فيقول العبد : يارب ، كيف تقع هذه البطاقة فى مقابلة هذه السجلات ، فتوضع البطاقة فى كفة

والسجلات فى كفة أخرى ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع ذكر الله شيء .

وهنا لطيفة جميلة . فقد ورد فى القرآن الكريم ثلاث صيغ وهى : « لا إله إلا أنا » ، « لا إله إلا أنت » ، « لا إله إلا هو » .

أما قوله عز شأنه : « لا إله إلا أنا » لم يحصل العلم به على سبيل الكمال إلا للحق تعالى .

وأما قوله جل وعلا : « لا إله إلا أنت » فهذا يصح ذكره من العبد ، لكن بشرط أن يكون حاضراً لا غائباً ، وهذه الحالة اتفق حصولها ليونس عليه السلام عند غيبته عن جميع حظوظ النفس ، وهذا تنبيه على أن الإنسان مالم يصر غائباً عن كل الحظوظ لا يصل إلى مقام المشاهدة .

وأما قوله سبحانه وتعالى : « لا إله إلا هو » ، فهـــذا يصح من الغائبين .

ودرجات الحضور مختلفة بالقرب والبعد ، وكمال التجلى ونقصانه ، وكل درجة ناقصة من درجات الحضور ، فهى غيبة بالنسبة إلى الدرجة الكاملة .

ولما كانت درجات الحضور غير متناهية ، كانت مراتب الكمالات والنقصانات غير متناهية ، فكانت درجات الحضور والغيبة غير متناهية ، فكل من صدق عليه أنه حاضر ، فباعتبار ؟

آخر يصدق عليه أنه غائب ، وبالعكس . وعن هذا قال الشاعر :

أيا غائباً حاضراً فى الفؤاد سلام على الغائب الحاضر

وقال شيخنا رضى الله عنه معنى لا إله إلا الله على ثلاثة أنواع : نوع تعطيه للمبتدئين هو لا معبود بحق إلا الله ونوع تعطيه للمتوسطين ، هو ، لا مقصود إلا الله ، ونوع تعطيه للمنتهين ، هو ، لا موجود إلا الله .

الله

اسم علم لله تعالى موضوع لتلك الذات ، وأنها ليست من الألفاظ المشتقة .

وأن كل من أراد أن يذكر الله تعالى بالصفات المقدسة فإنه يذكر أولا لفظة الله ثم يذكر عقيبه صفات المدائح مثل أن يقول : الله العالم القادر الحكيم ولا يعكس هذا ، فلا يقول : العالم القادر الله ، وذلك يدل على أن قولنا « الله » اسم علم .

واعلم أن الله تعالى هو المستحق للعبادة ، وذلك لأنه تعالى هو المنعم بجميع النعم أصولها وفروعها ، فجميع ما حصل للعبد من أقسام النعم لم يحصل إلا من الله ، فثبت أن غاية الإنعام صادرة من الله ، والعبادة غاية التعظيم ، وغاية التعظيم لا يليق إلا لمن صدرت عنه غاية الإنعام ، فثبت أن المستحق للعبودية ليس إلا الله تعالى .

وإن من الناس من يعبد الله لطلب الثواب ، وهو جهل وسخف ، ويدل عليه وجوه :

(الأول) أن من عبد الله ليتوصل بعبادته إلى شيء آخر كان المعبود فى الحقيقة هو ذلك الشيء ، فمن عبد الله لطلب الثواب كان معبوده فى الحقيقة هو الثواب ، وكان الله تعالى وسيلة إلى الوصول إلى ذلك المعبود ، وهذا جهل عظيم .

(الثانى) أن من عمل عملا لغرض آخر كان بحيث لو وجد ذلك الغرض بطريق آخر لترك الواسطة ، فمن عبد الله للأجر والثواب كان بحيث لو وجد الأجر والثواب بطريق آخر لم يعبد الله ، ومن كان كذلك لم يكن محباً لله ، ولم يكن راغباً فى عبادة الله ، وكل ذلك جهل .

ومن الناس من يعبد الله لغرض أعلى من الأول ، وهو أن يتشرف بخدمة الله ، لأنه إذا شرع فى الصلاة حصلت النية فى القلب ، وتلك النية عبارة عن العلم بعزة الربوبية وذلة العبودية وحصل الذكر فى اللسان ، وحصلت الخدمة فى الجوارح والأعضاء ، فيتشرف كل جزء من أجزاء العبد بخدمة الله ، فمقصود العبد حصول هذا الشرف .

واعلم أن الخلق قسمان : واصلون إلى ساحل بحر معرفته ، ومحرومون :

فالمحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة ونية الجهالة ، فكأنهم فقدوا عقولهم وأرواحهم .

وأما الواجدون : فقد وصلوا إلى عَرصة النور ، وفسحة الكبرياء والجلال ، فتاهوا فى ميادين الصمدية ، وبادوا فى عرصة الفردانية ، فثبت أن الخلق كلهم والهون فى معرفته ، فلا جرم كان الإله الحق للخلق هو هو — وبعبارة أخرى أن الأرواح البشرية تسابقت فى ميادين التوحيد والتمجيد ، فبعضها تخلفت ، وبعضها سبقت ، فالتى تخلفت بقيت فى ظلمات الغبار ، والتى سبقت وصلت إلى عالم الأنوار ، فالأولون بادوا فى أودية الظلمات ، والآخرون طاشوا فى أنوار عالم الكرامات .

ثم إنه بكنه صمديته محتجب عن العقول ، فلو قدرنا أن الشمس كانت واقفة فى وسط الفلك غير متحركة كانت الأنوار باقية على الجدران غير زائلة عنها ، فحينئذ كان يخطر بالبال أن هذه الأنوار الواقعة على هذه الجدران ذاتية لها ، إلا أنا لما شاهدنا أن الشمس تغيب وعند غيبتها تزول هذه الأنوار عن هذه الجدران ، فبهذا الطريق علمنا أن هذه الأنوار فائضة عن قرص الشمس ، فكذا هنا الوجود الواصل إلى جميع عالم المخلوقات من جناب قدرة الله تعالى كالنور الواصل من قرص الشمس ، فلو قدّرنا أنه كان يصح على الله تعالى الطلوع والغروب والغيبة والحضور ، لكان عند غروبه يزول ضوء

الوجود عن الممكنات ، فحينئذ كان يظهر أن نور الوجود منه ، لكنه لما كان الغروب والطلوع عليه محالا لاجرم خطر ببال بعض الناقصين أن هـذه الأشياء موجودة بذواتها ولذواتها ، فثبت أنه لاسبب لاحتجاب نوره إلا كمال نوره ، فلهذا قال بعض المحققين . سبحان من احتجب عن العقول بشدة ظهوره ، واختفى عنها بكمال نوره .

وإذا كان كذلك ثبت أن حقيقة الصمدية محتجبة عن العقول ، ولا يجوز أن يقال : محجوبة لأن المحجوب مقهور ، والمقهور يليق بالعبد ، أما الحق فقاهر ، وصفة الاحتجاب صفة القهر ، فالحق محتجب ، والخلق محجوبون .

شكا بعض المريدين من كثرة الوسواس فقال الأستاذ : كنت حداداً عشر سنين ، وقصاراً عشرة أخرى ، وبواباً عشرة ثالثة ، فقالوا : مارأيناك فعلت ذلك ، قال : فعلت ولكنكم ما رأيتم ، أما عرفتم أن القلب كالحديد ؟ فكنت كالحداد ألينه بنار الخوف عشر سنين ، ثم بعد ذلك شرعت فى غسله من الأوضار والأقذار عشر سنين ، ثم بعد هذه الأحوال جلست على باب حجرة القلب عشرة أخرى سالاً سيف « لا إله إلا الله » فلم أزل حتى يخرج منه حب غير الله ، ولم يزل يدخل فيه حب الله تعالى ، فلما خلعت عرصة القلب عن غير الله تعالى ، وقويت فيه محبة الله ، سقطت من بحار

عالم الجلال قطرة من النور فغرق القلب فى تلك القطرة ، وفنى عن الكل ، ولم يبق فيه إلا محض سر « لا إله إلا الله » . وقال شيخنا رضى الله عنه : معنى قول « الله » علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد .

وإذا علمت بأن العباد مولهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال ، علمت أن الإنسان إذا وقع فى بلاء عظيم ، وآفة قوية ، فهنالك ينسى كل شىء إلا الله تعالى ، فيقول بقلبه ولسانه يارب ، يارب ، يا رب ، فإذا تخلص من ذلك البلاء ، وعاد إلى منازل النعماء ، أخذ يضيف ذلك الخلاص إلى الأسباب الضعيفة ، والأحوال الخسيسة ، وهنا فعل متناقض ، لأنه إذا كان المخلص من الآفات ، والموصل إلى الخيرات غير الله وجب الرجوع فى وقت نزول البلاء إلى غير الله ، وإن كان مصلح المهمات هو الله تعالى فى وقت البلاء وجب أن يكون الحال كذلك فى سائر الأوقات ، وأما الفزع إليه عند الضرورات ، والإعراض عنه عند الراحات فلا يليق بأرباب الهدايات .

والمحسن فى الظاهر إن كان غير الله فذلك الغير لا يحسن إلا إذا خلق الله فى قلبه داعية الإحسان . فالحق سبحانه وتعالى هو المحسن فى الحقيقة ، والمحسن مرجوع إليه فى كل الأوقات ، والخلق مشغوفون به .

والعبد إذا تفكر فى الله تحير، لأن كل مايتخيله الإنسان ويتصوره فهو بخلافه، فإن أنكر العقل وجوده كذبته نفسه، لأن كل ما سواه فهو محتاج، وحصول المحتاج بدون المحتاج إليه محال، وإن أشار إلى شىء يضبطه الحس والخيال وقال إنه هو كذبته نفسه أيضاً، لأن كل ما يضبطه الحس والخيال فأمارات الحدوث ظاهرة فيه، فلم يبق فى يد العقل إلا أن يقر بالوجود والكمال مع الاعتراف بالعجز عن الإدراك، فهاهنا العجز عن درك الإدراك إدراك، ولا شك أن هذا موقف عجيب تتحير العقول فيه وتضطرب الألباب فى حواشيه:

رضيت بذلى فى منازل أحبابى	يختار من يختار عزاً فإننى
فغاية عزى أن أكون على الباب	ويدخل من يهوى الدخول لحيهم
رضيتك ياعبدى خديماً على الباب	وأقنع من حلو الحديث بقولها

« هو »

لهذا الاسم أسرار لطيفة، فن أسراره مايقوله « الفخر » : أن الرجل إذا قال « ياهو » فكأنه يقول : من أنا حتى أعرفك، ومن أنا حتى أكون مخاطبك، وما للتراب ورب الأرباب، وأى مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم، فأنت أعلى من جميع المناسبات وأنت مقدس عن علائق العقول والخيالات، فلهذا خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال « ياهو ».

ثم إن هذا اللفظ كما دل على إقرار العبد على نفسه بالدناءة والعدم ففيه أيضاً دلالة على أنه أقر بأن كل ما سوى الله تعالى فهو محض العدم . لأن القائل إذا قال «ياهو» فلو حصل فى الوجود شيئان لكان قولنا (هو) صالحاً لهما جميعاً ، فلا يتعين واحد منهما بسبب قوله «هو» فلما قال (يا هو) فقد حكم عن كل ماسوى الله تعالى بأنه محض ونفى صرف ، كما قال تعالى : «كل شىء هالك إلا وجهه» ، وهذان المقامان فى الفناء عن كل ماسوى الله مقامان فى غاية الجلال ، ولا يحصلان إلا عند مواظبة العبد على أن يذكر الله بقوله «هو» .

فإن العبد متى ذكر الله بشىء من صفاته لم يكن مستغرقاً فى معرفة الله تعالى ، لأنه إذا قال «يارحمن» فحينئذ يتذكر رحمته فيميل طبعه إلى طلبها فيكون طالباً للحصة ، وكذلك إذا قال «ياكريم يامحسن ، ياغفار ، ياوهاب ، يافتاح» وقس عليها سائر الأسماء . أما إذا قال «ياهو» فإنه يعرف أنه هو ، وهذا الذكر لا يدل على شىء غيره البتة ، فحينئذ يحصل فى قلبه نور ذكره ، ولا يتكدر ذلك النور بالظلمة المتولدة عن ذكر غير الله تعالى ، وهناك يحصل فى قلبه النور التام والكشف الكامل .

واعلم أن المواظبة على هذا الذكر تورث الشوق إلى الله ، وذلك لأن كلمة «هو» ضمير الغائب ، فالعبد إذا ذكر هذه الكلمة علم أنه غائب عن الحق ، ثم يعلم أن هذه الغيبة ليست بسبب المكان

والجهة ، وإنما كانت بسبب أنه موصوف بنقصانات الحدوث والإمكان ، ومعيوب بعيوب الكون فى إحاطة المكان والزمان ، فثبت أن المواظبة على ذكر كلمة «هو» تورث الشوق إلى الله تعالى ، وثبت أن الشوق إلى الله أعظم المقامات وأكثرها بهجة وسعادة ، فيلزم أن يقال : المواظبة على ذكر هذه الكلمة تفيد أعلى المقامات ، وأسنى الدرجات .

ومن فوائد هذا الذكر العالى ، ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ،أنه قال : —

«من جعل همومه هماً واحداً كفاه الله هموم الدنيا والآخرة» .

فكأن العبد يقول : همومى فى الدنيا والآخرة غير متناهية ، والحاجات التى هى غير متناهية لا يقدر عليها إلا الموصوف بقدرة غير متناهية ، فعلى هذا أنا لا أقدر على دفع حاجاتى ولا على تحصيل مهماتى : بل ليس القادر على دفع تلك الحاجات ، وعلى تحصيل تلك المهمات إلا الله سبحانه وتعالى ، فأنا أجعل همى مشغولا بذكره فقط ، فإذا فعلت ذلك فهو برحمته يكفينى مهمات الدنيا والآخرة . ومن لطائف هذا الفصل أن الشيخ الغزالى رحمه الله كان يقول :

«لا إله إلا الله» توحيد العوام ، «ولا إله إلا هو» توحيد الخواص .

ويحكى أن الشبلى لما قربت وفاته ، قال بعض الحاضرين :

قل لا إله إلا الله ، فقال :

كل بيت أنت حاضره   غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا   يوم تأتى الناس بالحجج

ثم إن النفس مستغرقة فى عالم الحس والخيال ، فالإنسان إذا أراد جذبها إلى عتبة عالم القدس احتاج إلى من ينبهها على كمال الحضرة المقدسة ، ولا سبيل له إلا بهذين الطريقين ، أعنى ذكر صفات الجلال ، وصفات الإكرام ، فيواظب على هذين النوعين حتى تعرض النفس عن عالم الحس ، وتألف الوقوف على عتبة القدس ، فإذا حصلت هذه الحالة فعند ذلك يتنبه لما فى ذينك النوعين من الذكر من الاعتراضات المذكورة ، وعند ذلك يترك تلك الأذكار ويقول « هو » كأن العبد يقول : أجل حضرتك أن أمدحك وأثنى عليك بسلب نقائص المخلوقات عنك ، أو بإسناد كمالات المخلوقات إليك ، فإن كمالك أعلى وجلالك أعظم ، بل لا أمدحك ولا أثنى عليك إلا بهدايتك من حيث هى ، ولا أخاطبك أيضاً بلفظة « أنت » لأن تلك اللفظة تفيد التيه والكبر حيث تقول الروح إنى قد بلغت مبلغاً صرت كالحاضر فى حضرة واجب الوجود ، ولكنى لا أزيد على قول « هو » ليكون إقراراً بأنه هو الممدوح لذاته بذاته ، ويكون إقراراً بأن حضرته أعلى وأجل من أن يناسبه حضور المخلوقات ، فهذه الكلمة الواحدة تنبه على هذه الأسرار فى مقامات التجلى والمكاشفات ، فلا جرم كان هذا

الذكر أشرف الأذكار ، لكن بشرط التنبيه لهذه الأسرار .

الحى القيوم

هو الحى القيوم بالنسبة إلى الموجودات ، فالمتقوم بذاته المقوم لكل ماعداه فى ماهيته ووجوده ، ولما كان واجب الوجود لذاته كان هو القيوم الحق بالنسبة إلى الكل ، ثم إنه لما كان المؤثر فى الغير ، إما أن يكون مؤثر بالعلية والإيجاب ، وإما أن يكون مؤثراً على سبيل الفعل والاختيار ، لاجرم أزال وهم كونه مؤثرا بالعلية والإيجاب بقوله «الحى القيوم» ، فإن «الحى» هو الدرّاك الفعّال ، فبقوله «الحى» دل على كونه عالماً قادراً ، وبقوله : «القيوم» دل على كونه قائماً بذاته ، ومقوماً لكل ماعداه ، ومن هذين الأصلين تتشعب جميع مسائل علم التوحيد .

فأولا : واجب الوجود واحد ، بمعنى أن ماهيته غير مركبة من الأجزاء .

ثانياً : أنه لما كان قيوماً كان قائماً بذاته ، وكونه قائما بذاته يستلزم :

(ا) ألا يكون عرضا فى موضوع ، ولا صورة فى مادة ، ولا حالا فى محل أصلا .

(ب) كونه قائما بنفسه لابغيره ، معناه أن حقيقته حاضرة عند ذاته ، وإذا كان لامعنى للعلم إلا هذا الحضور ، وجب أن

تكون حقيقته معلومة لذاته ، فإذن ذاته معلومة لذاته ، وكل ماعداه فإنه إنما يحصل بتأثيره .

ثالثاً : لما كان قيوماً لكل ماسواه ، كان كل ماسواه محدثاً ، لأن تأثيره فى تقويم ذلك الغير ، يمتنع أن يكون حال بقاء ذلك الغير ، لأن تحصيل الحـــاصل محال ، فهو إما حال عدمه ، وإما حال حدوثه ، وعلى التقديرين وجب أن يكون الكل محدثاً .

رابعاً : أنه لما كان قيوماً لكل الممكنات استندت كل الممكنات إليه ، إما بواسطة أو بغير واسطة ، وعلى التقديرين كان القول بالقضاء والقدر حقاً .

خامساً : قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » فيه بيان التوحيد بمعنى نفى الضد والند ، وقوله : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض » ، فيه بيان الربوبية .

وأما قوله : « الحى القيوم » ، فإنه يدل على الكل ، لأن كونه قيوماً يقتضى أن يكون قائماً بذاته ، وأن يكون مقوماً لغيره ، وكونه قائماً بذاته يقتضى الوحدة بمعنى نفى الكثرة فى حقيقته ، وذلك يقتضى الوحدة بمعنى نفى الضد والند ، ويقتضى نفى التحيز والجهة ، وأيضاً كونه قيوماً بمعنى كونه مقوماً لغيره ، يقتضى حدوث كل ماسواه ، جسما كان أو روحاً ، عقلا كان أو نفساً ، ويقتضى إسناد الكل إليه ، وانتهاء جملة الأسباب والمسببات إليه ، وذلك يوجب القول بالقضاء والقدر . فظهر أن هذين اللفظين كالمحيطين بجميع

مباحث العلم الإلهى ، فلا جرم بلغت هذه الآية فى الشرف إلى المقصد الأقصى ، واستوجب أن يكون هو الاسم الأعظم من أسماء الله تعالى ، وعن على رضى الله عنه أنه قال : لما كان يوم بدر قاتلت ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنظر ماذا يصنع ، قال فجئت وهو ساجد يقول : ياحى ياقيوم ، لايزيد على ذلك ، ثم رجعت إلى القتال . ثم جئت وهو يقول ذلك ، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه ، وكان لايزيد على ذلك إلى أن فتح الله له .

فضائل الذكر

إعلم أن الذكر والعلم يتبعان المذكور والمعلوم ، فكلما كان المذكور والمعلوم أشرف كان الذكر والعلم أشرف ، وأشرف المذكورات والمعلومات هو الله سبحانه وتعالى ، بل هو متعال عن أن يقال إنه أشرف من غيره ، لأن ذلك يقتضى نوع مجانسة ومشاكلة ، وهو مقدس عن مجانسة ما سواه .

فلهذا السبب ، كل كلام اشتمل على نعوت جلاله وصفات كبريائه كان ذلك الكلام فى نهاية الجلال والشرف .

قال عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى : « إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير من ملئه ، وإذا ثبت هذا فنقول :

أفضل الأذكار ذكر الله بالثناء الخالى عن السؤال .

قال عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول :

العبد فقير محتاج ، والفقير المحتاج إذا نادى مولاه بخطاب يناسب الطلب والسؤال كان ذلك محمولا على السؤال ، فإذا قال الفقير للغنى « يا كريم » كان معناه أكرم ، وإذا قال له « يانفاع » كان معناه طلب النفع ، وإذا قال « يارحمن » كان معناه « ارحم » ، فكانت هذه الأذكار جارية مجرى السؤال . وقد بينا أن الذكر إنما يعظم شرفه إذا كان خالياً عن السؤال والطلب ، أما إذا قال (ياهو) مثلا كان معناه خالياً عن الإشعار بالسؤال والطلب ، فوجب أن يكون قولنا بالأسماء التى لا تشعر بالسؤال ، أعظم الأذكار .

والعقل لا يمكنه الاشتغال بشىء حالة الاستغراق فى العلم بشىء آخر ، فإذا وجه فكره إلى شىء يبقى معزولا عن غيره ، فكأن العبد يقول : كلما استحضرت فى ذهنى العلم بشىء فاتنى فى ذلك الوقت العلم بغيره ، فإذا كان هذا لازماً فالأولى أن أجعل قلبى وفكرى مشغولا بمعرفة أشرف المعلومات ، وأجعل لسانى مشغولا بذكر أشرف المذكورات .

ثم إن الذكر يفيد الشوق إلى الله تعالى ، وذلك أعظم المقامات ، ذلك لأن الشوق يفيد حصول آلام ولذات متوالية متعاقبة ، لأن بقدر ما يصل يلتذ ، وبقدر ما يمتنع وصوله إليه يتألم ، والشعور باللذة حال زوال الألم يوجب مزيد الالتذاذ والابتهاج والسرور ، وذلك يدل على أن مقام الشوق إلى الله سبحانه وتعالى أعظم المقامات ، وثبت أن المواظبة على الذكر تورث الشوق إلى الله تعالى ، وثبت أن الشوق أعظم المقامات ، وأكثرها بهجة وسعادة ، فهو أعلى المقامات ، وأسنى الدرجات . ثم اسمع قول شيخنا رضى الله عنه :

« الحضرة بيت القلوب المطهرة من أدران الأعراض ، وأعراض الأغراض ، وأوضار الأمراض التى صفت من الأكدار ، وخلت من الأغيار ، وتخلت عن شوائب الأكدار ، لحنّت وأنّت ، وتواجدت وتخلصت من قيود العادات ، وتحلت بحلى السادات ، فسرت فى معارج مدارج الإرشادات ، ورقت إلى معانى دقائق المعنويات ، فأشرقت أرضها بنور ربها ، وسجدت قلوبها وخيالها وفؤادها وظلالها وسوادها . آمنت به فاطمأنت ، وأحبته فهامت وأنّت ، واشتاقت إليه فبكت ورنت . فنظراتها ولفتاتها طلباً لرضاه حبيبها غارقة فيه ، وفى نور تجليه ، سمت إليه همتها ، وسرت إليه كليتها ، فهى فى مقعد صدق عند مليك مقدر

أترى نوراً بعد هذا النور ، وسراً بعد مافى هذه السطور ، إنها النفحات العطريات ، والنفحات السماويات ، والكئوس الراويات .

ثم اسمع قوله رضى الله عنه فى فائدة الذكر وأقسامه :

فائدة الذكر : الأنس بالحق والوحشة من الخلق . الذكر ترداد اسم المذكور بالقلب أو اللسان .

أقسام الذكر : الذكر على ثلاثة أقسام : ذكر لسان ، وذكر قلب ، وذكر روح ، فذكر اللسان ذكر القشر ، وذكر القلب ذكر اللب ، وذكر الروح ذكر الذهن .

الأول علم يقين ، والثانى عين يقين ، والثالث حق يقين .

إن فى الجسد قلباً ، وإن فى القلب روحاً ، وإن فى الروح سراً ، وإن فى السر نوراً ، وإن فى النور أنا ، أقسم بحياته القدوس ألا يدخل حضرته أرباب النفوس :

أيها المعرض عنا إن إعراضك منا
لو أردناك جعلنا كل مافيك يردنا

لولا شهود جمالكم فى ذاتى ما كنت أرضى ساعة بحياتى
ماليلة القدر المعظم شأنها إلا إذ عمرت بكم أوقاتى
إن المحب إذا تمكن فى الهوى فالحب لم يحتج إلى ميقات

سهر العيون لغير وجهك باطل وبكاؤهن لغير قطعك ضائع
لئن كان هذا الدمع يجرى صبابة على غير ليلى فهو دمع شائع

قاطع لمن واصلت أيام غفلة فما واصل العذال إلا مقاطع

متى يشتفى منك الفؤاد المعذب ونجم الثريا من وصالك أقرب
غرام ووجد واشتياق ولوعة وهجر وتعذيب به العمر يذهب
فلا الوصل يحيينى ولا الهجر قاتلى
ولا المـوت يأتينى ولا أنت تقرب
نصب الهوى شركاً على فصادنى
فغدوت فى شرك الهـوى أتقلب
وما لى ملاذ غير أنك سـيدى
إذا أنت بى ترضى دع الناس تغضب

مما سبق علمت سر اختيار حضرة شيخنا رضى الله عنه ، أسماء الذكر القدسية فى الحضرات ، ولا عجب فهو طبيب القلوب ويعرف مكان العلة منها ، فهو إن اختار هذه الأسماء بالذات فإنما اختارها لحكمة وبحكمة . اختارها لأنها أرجى سبيل للسالكين ، وأسرع مطايا الواصلين ، ثم كونه جاء بها على ترتيب آية الكرسى فلغاية مقصودة ، وقد علمت مما سبق شرحه مافى آية الكرسى من أسرار وأنوار ، وما فيها من فوائد وفرائد .

هذا شىء ، والشىء الآخر أنه رضى الله عنه قد رسم لكل اسم خطوطه وحدوده ، فجعل مثلا جملة (لا إله إلا الله) ذكراً من جلوس وذلك ليتمكن الشخص من أداء حركات المتابعة حين يميل

إلى اليمين نافياً ماسوى الله ، وحين يميل إلى اليسار صاعداً مثبتاً الله في قلبه ، وقد علمت من قوله رضى الله عنه أن جملة (لا إله إلا الله) نفى وإثبات ، وتحتاج فى تشخيص هذين المعنيين إلى تحريك الرأس يميناً ويساراً مع تمكن النصف الأدنى من الأرض . وهذا لا يستقيم إذا كان ذكر الجملة من وقوف .

ثم علمت من لفظ الجلالة لطائف وطرائف تنبهك أن المقصود منها الذات ، فهو اسم وضع علماً لذات الله القدسية ، يشعرك بأنك تناجى ربك ، وتدعوه باسمه الكريم ، كما فهمت معانى باقى الأسماء القدسية ، وما فيها من أسرار وأنوار :

يا صاح ليس على المحب ملامة ... إن لاح فى أفق الوصال ملاح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى ... كتمانهم فنما الغرام وباحوا
سمحوا لأنفسهم وما بخلوا بها ... لما رأوا أن السماح رباح
ركبوا على سفن الدجى ودموعهم
بحر وشدة خوفهم ملاّح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتى دعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم ... أبداً فكل زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم
فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

المنشدون

نشد الضالة بالفتح ينشدها بالضم نشدة ، ونشداناً بكسر النون وسكون الشين فيهما أى طلبها ، وأنشدها عرفها ، واستنشده شعراً فأنشده إياه ، والنشيد الشعر المتناشد بين القوم . إذاً فالمنشد على ضربين : إما أن يكون المعرف المبين لوصف الغائب ، أو المقطع للشعر على نغم خاص ، والمنشد فى اصطلاح الصوفيين يشمل هذين المعنيين :

فالمنشد : هو المقطع الشعر على نغم مقبول يوضح ضال المعنى فى أذهان السامعين بنغم يهز المشاعر ويوقظ الأحاسيس ، والنغم أو اللحن : هو إبراز خواطر النفس، وهو بهذه الصفة أفصح من النطق ، وأسرع إلى القلب ، وأملك للعقول ومجامع الأفئدة .

وبيان ذلك أن النطق على ثلاث درجات : أقلها النثر ، وأوسطها الشعر ، وأعلاها الإنشاد أو التنغم ، فلو أن محباً غلبه الهوى ، وبرح به الجوى ، وأراد أن يوقفك على ما فى نفسه فقال : « لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلذذى بالصلاة عليه ما نعمت بالحياة » فقد أبلغك شيئاً مما يختلج فى نفسه ، وأثر فيك تأثيراً قليلاً أو كثيراً بمقدار قوة هذا الإبلاغ أو ضعفه ، ولو أنشدك قول الشاعر :

لولاك يا زينة الوجود   ماطاب عيشى ولا وجودى

فقد سلك بك طريقاً أوضح وارتفع بك خيالا أوسع ، وأثر فيك تأثيراً أكثر ، بقدر ما يحتمله هذا البيت من قوة المعنى ، وحسن السبك .

فلو أنه كان يجيد التوقيع ويحسن التنغيم ، وأنشدك هذا البيت نفسه ، وأبرز لك فى أوضح صورة مايلاقيه من أوصاب وأوجاع ، لأثر فيك تأثيراً ربما حملك على البكاء .

وكما أن الأبيات قيود المعانى — كما يقولون — كذلك الألحان قيود الأبيات ، فلا يزال المعنى ضالا تائهاً فى منثورات الألفاظ وتجمع الكلمات حتى يستقر قراره فى بيت من الشعر ، فإذا أنشد هذا البيت بتوقيع حسن وتنغيم مقبول تحركت المعانى من مكانها وبرزت نشيطة لتأخذ أماكنها فى عرصة القلوب ، وجوانب الأحاسيس ، فتعمل عملها ، وتترك أثرها . ولعلك تأثرت قليلا أو كثيراً بسماعك القرآن الكريم من قارىء يحسن التطريب أكثر مما لو قرأه عليك تلاوة ، ورفعه إلى سمعك قصصاً وأخباراً .

إن كنت فهمت هذا فقد فهمت ما أرمى إليه من مكان المنشد بين صفوف الذاكرين ؟ فما هو إلا حادٍ يلهب حماس الذاكرين ويوقظ وعيهم إلى معان وضحها التنغيم ، ورفعها شعوراً وإحساساً حياً إلى قلوبهم مما لا تستطيع معه الالتفات إلى غيره فى حضرة الذكر فكأنهم أجازوه ليكون حاجزاً بين الذاكر ، وما عسى أن يعتريه

من خواطر تنقله إلى خارج ما هو فيه .

وإن لك فى حداة الإبل لمعنى ، فالحادى فى القافلة يدرك ماعليه الإبل من تعب ، فما هو إلا أن يرفع عقيرته بصوت غنائى ، فإذا الإبل المتهوكة المتداعية تنشط فى السير ، وتندفع فى طريقها اندفاعاً كأنها على مرأى من كلأ وسيل ، ولا تزال على نشاطها واندفاعها ما زال الحادى يحدو لها ولو أصابتها الكلالة ، وأنضاها الحفى ، فنفقت فى الطريق .

على ذلك كان لا بد لكل حضرة من منشد أو منشدين .

ولقد رتب شيخنا رضى الله عنه للحضرات منشدين يشنفون الآذان ويجمعون القلوب على الله بصوتهم الآخاذ الجميل .

فما أن يأخذ الإخوان فى ذكر الاسم حتى يروح المنشد فى معنى سام ، يرققه ترقيقاً ويطربه تطريباً ثم يرفعه إلى آذان الذاكرين فتتلقفه لتنقله إلى الوجدان والقلب والحس ، فتفيض العيون بالعبرات وربما انفرد بالإنشاد أحياناً ، وفى معظم الأحيان يعاونه بطانة من المنشدين خصصت للإنشاد ، وفى غير الذكر تردد الإخوان مذاهب القصائد يغنى مطالعها فى نبرات حسان .

ومن عاداته رضى الله عنه عند مايجد فى الإخوان شيئاً من ملال البحث فى المجلس ، أن يشير إلى المنشد لينقل هؤلاء

المتهالكين على أنفسهم إلى جو روحي وألوان متيقظة تعيد الهمم إلى جدتها ، وترجع الوعى إلى حدته ، وتسق الروح نوراً ، وتزيد الشعور حساً ، وتضرم فى القلب مشكاة من نور ووجدان .

القلب فرحان بحبيبه	وربنا تمم فرحه
ونال من الأنس نصيبه	أما صفاه شيء طال شرحه
أصل الصفا وأصل الأرواح	وكل شيء طيب منك
محبوب وبتحبه الأرواح	ما الهاش غنى لحظة عنك
النظرة فيك تسوى الدنيا	وبنظره منك تحيا قلوب
إحنا فى نور حبك نحيا	وربنا يهنى المحبوب

المواكب

المواكب فى حقيقتها تجمعات دينية شائعة بين أهل الطرق ، والمقصود منها لفت أنظار الناس إلى شيء من معالم الدين ألا وهو الذكر ، خصوصاً فى هذا الزمن الذى زاد فيه التكالب على الدنيا ، والإقبال على ما فى الحياة من ملاه وملذات ، وأفضل ما يكون الذكر عند اشتغال القلب بغير الله ، وجنوحه إلى مغريات الشهوات ، ولذلك كانت المناداة فى الأسواق بذكر الله مطلوبة لإيقاظ الوعى الذى صرف فى البيع والشراء ، وأيضاً لتذكير البائعين بالله ، فيذكرون بذكره وجوب التحرى فى أوجه الكسب فلا يطففون ولا ينقصون فى كيل أو ميزان .

وهذه الظاهرة عمل جليل لأصحاب الطرق للمعنى الذى وضحناه، ولها أصل فى الشرع.

فإن المسلمين فى صباح عيد الأضحى يخرجون إلى نافلة العيد فى المساجد، أو الميادين العامة، أو منبسطات الأرض القريبة، فى جماعات يكبرون الله، ويمجدونه ويسبحونه، ويحمدونه بأصوات عاليات، وذلك للإشعار بيوم عيد الأضحى، وللإعلان عن قوة الإسلام وامتداده وعظمته وانتصاره على الهوى والنفس، حتى أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا إذا اكتسبوا معركة أكثروا من الحمد والتكبير، وقفلوا إلى المدينة فى ضجيج من التسبيح والتهليل، بما آتاهم الله من فتح مبين، ولما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً، دخلها فى مظاهرة عظيمة، حتى أن بعض المسلمين أخذوا يتصايحون بألفاظ الفخر، وبعبارات كان يتخذها أهل الجاهلية عنوان البسالة والإقدام، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم ولقنهم مايقولون فقال: قولوا:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله العظيم وتعالى بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

فرددها المسلمون فى الآفاق ، ودووا بها فى الأرجاء ، واهتزت لها أفلاك السماء ، وتصايحوا بها تحت أعلام إسلامية ، ورايات محمدية ، فى أزهر يوم ، وأكبر فتح ، وقد اتخذها المسلمون عادة بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، فما أكثر ما كبر الفاتحون تحت قيادة خالد بن الوليد فى فتح فارس ، وما أكثر ما كبروا فى فتح الشام ، وما أكثر ما كبروا وهللوا تحت قيادة عمرو بن العاص فى فتح مصر . . . وهكذا فى كل موقعة كان لهم الفتح والظفر ، وما كان تكبيرهم وتهليلهم رضوان الله عليهم راجعاً إلى انتصارهم وبسالتهم ، وواسع حيلتهم فى الحروب ؟ بل كان منهم ذلك إشارة لانتصار الدين نفسه ، ورفع لوائه فى ربوع البلاد ، وحاشاهم ، بعد أن سمعوا من النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد سأله سائل بقوله : يارسول الله منا من يقاتل حمية ومنا من يقاتل شجاعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل ليظهر شجاعة ، وقتل كان فى النار ، ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ففى الجنة » أو كما قال عليه السلام .

فمواكب أهل الطريق ترمز إلى هذا المعنى ، وهو الإشادة بقوة الدين ، ورفع لوائه بين الناس ، وتذكير الغافلين بأيامه الغر وتاريخه المجيد ، وفيه حث أيضاً للمتقاعدين عن نصرة الدين وترك بلاد المسلمين طعمة للغاصبين ، ورضوخهم إلى الهوان ، بهذا المظهر الجليل الذى يذكرهم بجهاد الرعيل الأول ، والصحابة الميامين .

وإذا علمت أن هذه الطرق مبنية على محاربة النفس ومجاهدتها وقسرها على الخير، وتقييد شهواتها ونزعاتها بقيود الفضيلة والاستقامة والبر والمعروف، وعلمت أن المسلمين كانوا يتهاتفون فى مظاهرة صاخبة بانتصارهم على أعدائهم، وعلمت أن أصحاب الطرق أيضاً يخرجون بهذا الوضع رمزاً على انتصارهم على النفس، وتطهير قلوبهم من المهلكات المردية، والغاشيات الحاجبة، والانتصار على النفس أصعب بكثير من الانتصار على العدو، ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر.

ثم إن خروج المواكب على صورتها الحالية لا تفترق أصلا عن خروج جماعات المسلمين حين يختلفون إلى المساجد جماعات لصلاة العيد، فهؤلاء بين تكبير وتحميد وتسبيح وتهليل. وأولئك أيضاً يسيرون فى هذا الثوب وفى تلك البزة وهذا الذكر، فإن كان الشرع الشريف يحث على غشيان المساجد يوم العيد جماعات بهذا الذكر فلا يمنع أبداً طوائف الصوفيين من أن يسيروا على تلك السنة، ويهتدوا بهذا الهدى، ولا قائل بالفرق.

ولو علمت أن الناس الآن فى دنيا مقلوبة، وحياة معكوسة، وشهوات طاغية، وإلحاد ينمو ويتكاثر وأن العالم راح فى دوامات جارفة وفى مادية عمياء علمت ما فى هذه المظاهر من فائدة وجدوى وما فيها من علاج لبعض المدبرين عن الدين والمنقطعين فى زمر المتخلفين،

فإذا كان المتردى فى حمأة الهاوية ، والمتوشح بأسمـــال الرذائل ، والغافل عن الموت بطول أمله فى الحياة وانخداعه بزهرة الدنيا ، علاجه زيارة القبور ليتذكر بأن كل حى إلى موت ، وأن كل بقاء إلى فناء :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمـول

لسارعت إلى هذه المظاهر الدينية وناديت بها فى الأسواق .

على أن الأمر لا يحتاج إلى هذا التطويل والتفصيل ، ولا إلى هذا العرض والإسهاب ، فكل ما فى الموضوع أن أهل الطريق يخرجون فى مناسبات دينية فى جماعات يذكرون اسم الله فى جهر وإعلان ، تحت أعلام منصوبة فى طريق عام ، وذلك فيه ما فيه من فوائد جليلة ، وإشارات ملحوظة .

فإن كنت من أهل السعادة فأقبل عليهم ، وانخرط فى صفوفهم وافتح قلبك إلى آدابهم ، تشعر بأنك انتقلت من عالم الهوى والزيغ إلى عالم الهدى والاستقامة ، ومن دنيا فارغة إلى أخرى عامرة . بل تشعر بأنك ألقيت عن نفسك حملا من أكدار الذنوب والمعاصى وجئت خفيفاً لتحظى بكثير من التقى والإيمان ، فى صفوة من القلب وظل من الانشراح .

وإنى إذ أتقدم إليك بهذا القول فإنما ذلك من باب النصيحة للمؤمنين وإلا فأنت وما تريد ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إنما النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

ألا يا خائضاً بحر الأماني ... هداك الله ما هذا التواني
أضعت العمر عصياناً وجهلا ... فمهلا أيها المغرور مهلا
مضى عمر الشباب وأنت غافل ... وفي ثوب العمى والبغي رافل
وطرفك لا يرى إلا طموحا ... ونفسك لم تزل أبداً جموحا
وقلبك لا يفيق من المعاصي ... فويلك يوم يؤخذ بالنواصي
ببحر الإثم لا تصغي لواعظ ... ولو أطرى وأطنب في المواعظ
وقلبك هائم في كل واد ... وجهلك كل يوم في ازدياد
على تحصيل دنياك الدنية ... بجدٍّ في الصباح وفي العشية
وجهل المرء في الدنيا شديد ... وليس ينال منها ما يريد
وكيف ينال في الأخرى مرامه ... ولم يبذل لمطلبها قلامه

وفقنا الله وإياك إلى ما فيه صلاح الأحوال .

موكب الشيخ

المظاهر كلها في نظر شيخنا رضي الله عنه لا قيمة لها ولا جدوى من ورائها ، ولكن مظهراً واحداً كان يعض عليه بنواجذه ، ويحرص عليه بكليته ، ويعتبره في المنزلة الأولى ، والوجه الأفضل ، وهو مظهر الطريق . فكان موكبه يمتد أميالا ، وسياراته تنتظم مئات ، تأخذ الطريق فتملأ القلب والبصر ، وتهز مشاعر

الجمهور من المتفرجين ، والزغاريد من أفواه المتفرجات ، والهتاف من كل مشاهد وواقف ، فما من مناسبة يحتفل فيها الشعب احتفالا دينياً إلا وكان اليوم يوم الشيخ ، والموقف موقف الإخوان حتى أن الأهالى ماكانت لتجتمع إلا لرؤية هذا الموكب الفريد ، والصرح المشيد ، وكما يكون المظهر فى المواكب يكون فى المساجد حيث يملأ الإخوان ساحة المسجد ، ويملئون أطرافه . ولقد مر بك أيها القارىء الكريم ماكان لمظهر الإخوان فى ميدان المولد النبوى الكريم ، أما ماعدا ذلك من المظاهر فالشيخ بمنجى منه .

فقد عاش رضى الله عنه حياته كلها لم يتقرب إلى ذى سلطان ، ولم يتعرف على حكام ، ولم يناصر حزباً أو يتزلف إلى طائفة .

وكم كان يتمنى زعماء الأحزاب أن يحرزوا الشيخ إلى صفهم ، وأن يتقووا بجاهه ، فما كان رضى الله عنه يجيب تمنيهم ، أو يشبع رغبتهم ، بل كان ينصح تلاميذه بعدم التورط فى السياسة ، أو السير فى ركاب نائب أو شيخ ، أو أمير ، فجنبهم بهذا مساقط الزلل ، وعصمهم من العثرات .

تنظيم المواكب

طريقة شيخنا رضى الله عنه غنية برجالها ، كثيرة بعددها ، عظيمة بمجموعاتها ، امتد شأنها شرقاً وغرباً ، وذاع صوتها شمالا

وجنوباً ، فنى كل قرية أو مدينة أو عاصمة مديرية أو بندر ، مركز لجماعة ، وكل جماعة لهـا خليفة ، ونقباء ومنشدون وعلم الطريق ، ويشرف على بعض جماعات متقاربة نائب يسمى نائب كذا ، فإذا كانت هناك مناسبة دينية كالاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، اجتمع جماعة الإقليم تحت إشراف نائب الإقليم ، ونظموا أنفسهم فى موكب يسير حتى يبلغ مكان الاحتفال فيجتمعون داخل سرادق أقاموه ، ثم يأخذون فى إحياء الليلة بتلاوة القرآن ، وإقامة الأذكار ، وإنشاد القصائد ، وكما يكون ذلك فى ليالى مولد النبى صلى الله عليه وسلم يكون كذلك فى ليالى موالد الأولياء الصالحين.

جماعة الموكب

ينقسم الموكب إلى جماعات ، وكل جماعة معها خليفتها ومنشدوها ، وعلم مرفوع فى مقدمتهم ، مكتوب فيه اسم الطريق واسم الجهة التى منها تلك الجماعة ومطرز ببعض أسماء الله الحسنى ، فتقف كل جماعة فى صفين متقابلين متشابكة أيدى رجال كل منهما ، ويحيط برأس كل واقف خرقة بيضاء منسوج عليها جملة « الطريقة الحامدية الشاذلية » ، وخرقة أخرى تأخذ كتفه وتدور تحت إبطيه وعليها نفس الجملة .

ويقف الخليفة فى صدر تلك السيارة ، فإذا انتظمت الجماعات ، وقفى بعضها بعضاً ، فى طول الطريق ، وقف الشيخ رضوان الله عليه فى آخر جماعة أو آخر سيارة ، ثم يأذن للموكب فى أن يسير ،

فإذا سار أخذت كل جماعة من الجماعات تنشد نشيدها الخاص ، بطريقتها الخاصة ، تحت إشراف رئيس منشديها ، إلا سيارة الشيخ ، فإن جماعتها تذكر الله بأية صيغة ، والشيخ سائر معهم ، أو راكب في النادر من الأحوال فرساً في ظل رايتين مرفوعتين عن يمين ويسار ، ويستمر الموكب على هذا النظام ساعة أوساعات على حسب طول الطريق وقصرها ، فإذا أوشكت أول جماعة على الاقتراب إلى مكان الاحتفال كان في إستقبالها نائب عن الشيخ رضى الله عنه ، أو الشيخ بنفسه في بعض الأحيان ، فتمر السيارات بين يديه ، ولا تتجاوزه إلا بعد قراءة صيغة الاستقبال ، وهي :

قراءة الفاتحة بصوت جهوري في اتحاد مشترك ، وبعد قراءة الفاتحة يقول سائرهم هذه الصيغة ، إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، الصلاة والسلام عليك يارسول الله ، « مع وضع اليدين على الصدر » الصلاة والسلام عليك ياحبيب الله ، « مع وضع اليدين على الصدر أيضاً » ، ألف صلاة ، وألف سلام ، عليك يا أول خلق الله وخاتم رسل الله ، « مع وضع اليدين على الرأس » ، فإذا انتهت الصيغة صافح الخليفة حضرة الشيخ ووقف بجماعته في مكان معين ، وهكذا كل جماعة تمر بين يدى الشيخ رضوان الله عليه ، تأخذ وضع سابقتها إلى أن تمر سائر الجماعات ، وهنا يجتمعون في السرادق وينشدون الأناشيد

والأذكار طول الليل ، أوصدراً منه : وكم كان يلاقى رضى الله عنه من مشاق وجهد فى هـذا اليوم ، يقطع الطريق بطوله سائراً مع السائرين ، ويستقبل مالا يقل عن مائة جماعة كل جماعة ترددالأناشيد الصوفيةوالقصائدالنبوية فى صيغ مختلفة ، ثم يشارك الإخوان بعد ذلك فيما يكونون فيه ، وقد كنت فى هذاالتاريخ ممتلئاً شباباً وقوة . فما أن أصل إلى نهاية الشوط حتى أترنح إلى السقوط غارقاً فى بحر من العرق ، وشيخنا رضى الله عنه على تقدم سنه ، أشد الناس حركة ، وأكثرهم نشاطاً ، مع هذا المجهود العظيم ، مما جعلنا نعتقد أن قوة الجسم من قوة الروح ، وأن الفرح بالله يمنح القوة ، ويغلب الجهد ، ويأتى بالمعجزات .

ومن الغريب أننا بعد أن نبذل هذا المجهود المضنى ، ونفرغ من هذا الشوط الطويل الحاد ، وتنقضى هذه الليلة بما بقى من زماء فى قوتنا ، يلجأ كل إلى بيته عند اكتساح النور ديجور الظلام من فجر هذا اليوم التالى ، فتحل عليه أوجاع السهر والتعب ، ومالاقاه من تعب ونصب ، فلا يكاد يفارق مخدعه إعياء ، ولكنك لو ذهبت إلى البيت الكريم فى صبح ذلك اليوم الذى اتخذته استجماماً وراحة ، لرأيت الشيخ رضوان الله عليه فى نشاط الشباب ، وفتوة الجسم ، جالساً متحدثاً ، مذاكراً ، مصافحاً ، كأنه لم يكن بالأمس ذلك الرجل المتعب ؟ ؟ ؟

إن الروح العالية ، والنفس الصافية ، والقلب الكبير ، أبعد

من أن يتحكم فيه الجسم ، ويقيده بوهنه وضعفه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد أثبت الناس جناناً ، وأسبقهم إقداماً ، وأشدهم احتمالا ، وأوثقهم بالله ، حتى بعد أن تصدع عنه المسلمون ، ولم يبق فى صفه إلا فئة قليلة من المحاربين ، ولقد كسرت رباعيته ، وشجت رأسه الشريفة ، وأخذته الجروح ، ومع ذلك كان فى قوة قوية ، وعزيمة ماضية ، وصبر كريم ، اتخذه المدبرون مثالا ، فتجمعوا حوله ، وقاتلوا دونه ، ورفعوا راية المسلمين بعد انكسارها ، فدالت لهم الدولة بعد هذا الامتحان المرير .

مولد الرسول الكريم

أكبر مايعنى به شيخنا رضى الله عنه المناسبات الدينية ، وأهم مايشغله منها مولد النبي صلى الله عليه وسلم : فما تكاد تشرق أيامه الكريمة ، ولياليه الحسان حتى يستعد له ، ويذاكر الإخوان فيه ، ولو تصادف وكان فى هجرة شمال الوادى أو جنوبه ، رجع إلى القاهرة فور قرب شهر ربيع الأول ، فيبدأ من يوم وصوله فى عمل الترتيب الكافى للاحتفاء به ، فيوكل إلى إخوانه مهام العمل له ، فترى بعضهم مخصصاً لمعاينة مكان السرادق ، واختياره بين صفوف السرادقات الأخرى ، وبعضهم فى مهام النور ، وبعضاً ثالثاً فى تنظيم نفحة الطعام التى تقدم فى مساء الليلة الختامية للمريد وخاصة القادمين من جهات ، وآخر رابعاً فى توفير أسباب الراحة للمشتركين فى الموكب .

وهكذا يأخذ كلٌ من وكل إليه أمر فى تنفيذه على أدق وجه ، وأحسن صورة ، فإذا كانت الأيام الأولى من ربيع الأول راسل حضرة الشيخ ، رضوان الله عليه ، إخوان الجهات فى وجوب الحضور والاشتراك فى ليالى المولد السعيدة ، فمن تعود منهم أن يحتفل بالمولد فى مدينته ، أخبر الشيخ بهذا فيأذن له ، ومن لم يتعود بادر إلى الاشتراك مع إخوانه فى القاهرة .

وكان فرح الإخوان بالقدوم إلى القاهرة فى هذه المناسبة فرحاً مزدوجاً ، فرحاً لاشتراكهم فى الاحتفال ، وفرحاً لمطالعتهم وجه الشيخ الكريم ، وربما يكون بعضهم قد حرموا رؤيته من مدة مديدة ، فينتظر فرصة العيد ، ليحظى بالمحبوب ، والوقت السعيد . فما أن يشرق اليوم الحادى عشر من ربيع الأول حتى تتقاطر الوفود أبابيل ، تزحف بهم القطارات من صعيد الوادى وشماله فى لهفة واشتياق كأنهم حجيج إلى الحرم يسرعون ، ومالهم لا يقدرون فى أنفسهم أنهم ذاهبون إلى بيت أبى حامد حاجين إذا فاتهم الحظ ، وشحت عليهم الأيام عن أن ينالوا بغيتهم بجانب حبيبهم الأكبر ، ورسولهم الأعظم ، وشفيعهم المرجى صلوات الله وسلامه عليه . ولعلهم يتفاءلون بهجرتهم تلك الصغيرة ، ليكتب الله لهم حجة مبرورة ، وزيارة كريمة لقبر رسوله الكريم ، وإنك لو رأيتهم فى الموكب بين أهازيجهم الصوفية ، ونغماتهم الإنشادية ، وإشراقاتهم

النورانية ، لرأيت ملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين ، كيف لا وبينهم شيخهم فى حلته الربانية ، وشمائل طلعته البهية ، يمدهم بمدده وينفحهم بسره ، ويلازمهم بشخصه ، إنها السعادة كل السعادة ، والرفادة كل الرفادة ، والخير المعجل ، والثواب المؤمل ، وهل أقرب إلى الله وسيلة ، وأسرع إليه عملا من حب لرسوله ، وتعظيم لصفيه وخليله ؟

فما أن يدور الحول ويقبل أسبوع مولد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، إلا رأيت فى ساحة المولد الفسيحة ، وميدانه المترامى ، سرادقات الوزارات ، ومخيمات مشايخ الطرق ، ورأيت بين هذه المشيدات جميعاً سرادقاً علا ارتفاعاً ، واتسع جناباً ، وترامى أطرافاً ، تأخذه الملاحة ، وتمسه الطرافة ، ويستملحه النظر ، ويهفو إليه القلب ، تزينه مصابيح يتماوج نورها ، وسطور كهربية منتظمة أضواؤها ، وأرائك مذهبة تدور مع السرادق فى اتجاهات منسقة ، وأوضاع ملائمة ، ثم رأيت هذا الفضاء العريض والمكان الفسيح ، مطموراً بكتل بشرية ، وإخوان حامدية ، مختلفى الشكل والهندام والدرجات ، فترى قروياً تحت قلنسوته ، وشيخاً تحت عمامته ، وأفندياً تحت طربوشه ، وشاهدت بينهم الفقيه والقاضى ، والطبيب والمهندس ، والضابط والمدرس ، وما لا يحصى من أصحاب الرتب والمقامات ، جالسين وواقفين ، وملاحظين ومشرفين ، وسمعت من هذه الجموع الجامعة ، والمحافل الحافلة ،

دوياً كدوى النحل ، وأصواتاً كحنين العود ، بعضهم فى أناشيد صوفية ، والآخر فى مدائح نبوية ، وبعض ثالث فى مناقشات علمية حتى إذا صليت العشاء الأخيرة ، توسط الشيخ رضى الله عنه تلك الحلقات المتداخلات ، والصفوف الدائرات ، ثم راح بهم فى ذكر تتجاوب أصداؤه فى السماء ، ويتعالى نوره فى الفضاء ، والألوف النظارة واقفون وقد أخذتهم نشوة ، وسرت فى عروقهم جاذبية ، حتى إذا انتهت الحضرة أطعم الإخوان ، ثم شغلوا بما كانوا فيه من سبحات وحالات حتى ينصدع عمود الفجر . فلا غرو أن كان سرادق شيخنا رضى الله عنه عروس الليالى ، والقمر السارى ، والكوكب العالى ، مما دعا السيد البكرى إن نزل به طائفة من أصحاب السلطان أن يصحبهم إلى سرادق الشيخ يحمى به مكانته ، ويستر به ضاحيه ، وهل كان شيخنا إلا دفئاً للمقرور ، وجبيرة للمكسور .

موالد بعض الأولياء

على أن نشاط الشيخ رضوان الله عليه لم يقتصر على إحياء مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، بل تعداه إلى جهات مختلفة فى مناسبات دينية متعددة ، فهناك فى طنطا سرادق يأخذ من سرادقات الطرق موضع الصدارة ، وشرف المكانة ، تعلوه جلالة ومهابة ، وتحيط جوانبه هالة ، وتشرق فيه شمس أبى حامد المحبوب ،

ولرأيت مثل هذا فى الإسكندرية والمنصورة ، وكل بلد فيه ضريح ولى من أولياء الله الصالحين .

لقد كان شيخنا رضوان الله عليه جابراً لخاطر الأولياء ، مكرماً لهم ، مثنياً عليهم ، وكان بدوره عندهم أثيراً . وله مكرمين .

كم أقام للأولياء موالد ، وشيد لهم مساجد ؛ وسجل لهم قصائد مشهورة ، وجدد لهم ذكراً جميلا .

عز عليه أن يرى مسجد سيدى سليم متهدماً ، فرفع أنقاضه ، وجدد دارسه ، وأجرى مياهه ، وأضاء أجواءه ، وكم اقتعد من مسجده مكاناً ، ورفع له بين الحى شأناً .

ولم يزر قرية فيها ضريح لكبير أو صغير إلا وترضى عليه ، وذكر مآثره ، وأحسن المقالة فيه . ولامشاحة فى ذلك فهم إخوانه ورهطه ، أحبهم الله لحبب فيهم عباد الله .

لله رجال قد صبروا	وبسعدهمو سبق القدر
قاموا لله بأمر الله	ولولا الله لما قدروا
كسروا بالذل نفوسهمو	جبروا والله وماكسروا
بحديثهمو وبذكرهمو	المسك يفوح وينتشر

رمضان

كان شيخنا رضى الله عنه يستقبل المناسبات الدينية استقبالا كريماً ويعدها أيام النفحات والبركات . . . فإذا دار الحول وأقبل

شهر رمضان في وشيه البديع وثوبه الجديد ، أدب شيخنا رضى الله عنه مأدبة حافلة للإخوان في مساء أول يوم منه بين أنوار كهربائية وأسلاك نورانية تمتد داخل البيت وعلى واجهته . ويقبل الإخوان في زحمة زاحمة ، وأفواج متلاحقة ، ومن ذا الذى لا يحرص على استمتاعه بأول وجبة في صومه في بيت شيخه المحبوب وما يدريك لعل فيها الشفاء والصحة ، ولعل فيها النفحة والبركة ، ولعلها تدور في الجسم فتعطى القلب نوراً والعقل هداية والأعضاء قوة والأعصاب متانة وربما قصد إليها المضعوف المعتل ليتناول مع تلك النفحة الراضية الشفاء والدواء والصحة والعافية ، وقد يحظى بهن جميعاً ، وما له لا يحظى والاعتقاد نفسه سلم النجاة ، واعتقاد الإخوان في الشيخ رضى الله عنه اعتقاد جازم حازم ، كاعتقاد المرء بأن عينه تعطى البصر ولسانه يعطى النطق وعقله يعطى التفكير وأنه إنسان حى له شعور وفيه قدرة ولديه إدراك .

ثم أليس الشيخ رضى الله عنه يحضهم على تحرى الطيب من الرزق والحلال من المطعم والخالص من المشرب وأن يتقوا الله في أجسامهم فلا يدخلها الخبيث ولا يجرى فيها حرام . . . . ومن أنقى من شيخهم طعمه وأعظم منه ورعاً وأدق منه في تحرى الطيبات ؟ إذاً فهذه الوجبة في أول يوم من شهر رمضان تعين على لأواء الصوم ومشقة الجوع ولفحة العطش ، نكهتها طيبة وخلوفها مسك ، وتعاطيها قربى وسريانها شفاء .

إن مائدة شيخنا رضى الله عنه مبسوطة فى كل يوم ، يتناول منها الإخوان الغرباء المنتجعون من أطراف البلاد يتناولون منها مصبحين ويتناولون منها ممسين ، أما إخوان القاهرة فلم يهيئ لهم قرب مساكنهم شرف هذا التناول . ولكن الشيخ رضى الله عنه يختصهم بهذه النفحة الممنوحة فى أكرم شهر وأزهر يوم . فلا عجب إن أقبلوا عليها متسابقين ، وفتحوا أصابعهم طاعمين . ولكن الإخوان لهم عاداتهم أيضاً فقد قسموا أيام الشهر بينهم وخصصوا لكل واحد منهم يوماً ينزل فيه الشيخ رضى الله عنه كريماً — وكان يجيبهم إلى طلبهم ويسعد رغبتهم : أليس كل وقته لهم ؟ وحياتهم من حياته ووجودهم من وجوده . ولم لا يغمر عائلات الإخوان بأنواره ويعمهم ببركاته ويمنحهم جانباً من وقته السعيد ؟ ؟

فإذا نزل بساحتهم نزل بها الغيث وعمها الفرح ، وطاف بها السرور ؟ فالبيت الذى به تتهادى على واجهته النسائم وترف عليها الأعلام ويغمرها النور ؟

ويقبل الإخوان ويقتعد منهم رضوان الله عليه مقعداً ، فما يزالون بين ملح مستطرفة ومناهل مشبعة وأحاديث عامرة ، حتى ينطلق مدفع السحور . فيبقى من الإخوان من يبقى ، وينصرف منهم من ينصرف .

الوقت طاب والنور زايد　　　نور عــلى الـكل

من نور جمالك يابو حامد ما هو أنت الأصـــل
وكل من جمالك قاصد يرجـــع فـــرحان

ثم لا يزال رضوان الله عليه ، ينتقل من بيت إلى بيت ، كتنقل الشمس فى أبراجها ، والبدر فى مداراته ، والعطر فى زهراته والنسيم فى أجوائه حتى ينصرم عمر الشهر .

أيام العيـد

فإذا كان آخر يوم فى رمضان رجع إلى بيته العامر ، فاستقبله ملء الأحضان وضمه إلى صدره الرحب وقلبه المشتاق .

فإذا انبلج صبح يوم العيد وتناهضت الشمس من مشرقها تهدى للكون نفحة محمدية وعبقة قدسية ، ويوماً أزهر وصبحاً أنضر ، تقاطرت أفواج الإخوان من كل فج وأتت القطارات والسيارات بأفواج حامدية ، من طول البلاد وعرضها تضيق بهم السرادقات وتزدحم منهم الطرقات ، فى أناشيد دينية ، وتوقيعات ملائكية ، وأصوات موسيقية ، وهتافات صوفية ، تهز الوجدان ، وتوقظ المشاعر ، والشيخ بين هؤلاء فى ابتسامة مرحبة ، وإشراق منور ووجه صافى الأديم يسمع لهذا قصيدة شعرية ؛ ولهذا معايدة زجلية ولآخر أنشودة تخطب وده ، وتبارك يومه .

وليس للإخوان فى هذا اليوم مزار ولا جار ، يبادلونه تهانى

العيد ، ومباركة الصوم ، إلا بعد أن يعقدوا على يد الشيخ رضى الله عنه قبلة المعايدة والتهنئة بهذا اليوم السعيد .

فإنهم بعد أن يخرجوا من نافلة الصلاة فى ضحوة اليوم ، يولون وجههم شطر بيته الكريم ، وهل لهم غير شيخهم من يرجونه ، أم لهم سواه يعودونه ؟ إنه صبحهم المشرق ، وأملهم الوضاء ، وعيدهم السعيد ، ويومهم الجديد ، إنه كل شىء . فيه السعادة والهناءة والخصب والحياة ، ومن الذى يفوت على نفسه حظها وحياتها وهناءها وزادها فى قطع فيافى الأيام .

أى رجل هذا الذى تمكن من أن يؤلف بين أشتات ، ويجمع بين قلوب ويربط القاصى والدانى ، بحبل الوفاء ، ويذكى فى تلك القلوب المحبة والرحمة والحنان ؟ إنه أكثر من رجل إنه أمة كاملة ، تجمعت فى هذا الجسم الذى هزه الجهاد وأبراه الكفاح ، وأبعده طول السرى فى طريق الله .

هذا الشيخ العظيم والوالد الرحيم والأستاذ الخبير الذى وقف وقته وصحته وراحته فى سبيل أن يجمع للدين كتيبة إلهية ، وصفوة خيرة وجماعات موحدة ، لجدير بأن يخلد فى كل قلب وينبض فى كل حس ويتربع فى سويداء الضمير ، وما فى تقاطر الناس عليه ، وانجذابهم إليه شىء من الإرادة ، ولا مكان من الاختيار . بل هو اندفاع لاشعورى ، وانجذاب لا إرادى ، لا يملك الشخص

معه حزنة ولا تفكيرا .

لقد ربطت المحبة بينهم وبين هذا الشيخ العظيم ، والمحبة لاقانون لها ولا دستور ، فهى تخرق الحواجز وتهتك الأستار وتهدم الحصون.

فلو أنك تعمدت مصارمة حبيب لنمت عندك شهوة القرب منه كلما أردت بعداً عنه . ذلك لأنك مربوط مع المحبـــوب بعقدة واحدة فى روح واحدة فمهما اختلفت الأجسام وتباينت الأعراض فمركزها واحد وهى منه فى محيط متصل .

وربما امتحن الشيخ رضى الله عنه بعضاً من تلاميذه ، فأظهر له جفوة أو غض إليه بصراً ولا يفطن المسكين إلى سببه فيخشى أن تكون القطيعة أو النذير بفجيعة ، فإذا هو واقف بين زفراته ودموعه يطلب إليه ويرجو منه ولا يستطيع غير ذلك ولو طرحه الشيخ وراء الباب ؟ فلا غرابة إذَن إذا باكر أحبابه إلى استباق بابه فى يوم العيد قبل أن يطوفوا بأسرهم ويشموا أطفالهم .

لقد كان رمضان خيرا كله ويوم العيد خيرا كله فى هذا الجوار الكريم .

هذا الحبيب مع الأحباب قد حضرا ... وسامح الكل فيما قد مضى وجرى
وقد أدار على العشاق خمرته ... صرفاً يكاد سناها يخطف البصرا
ياسعد كرر لنا ذكر الحبيب لقد ... شنفت أسماعنا يا مطرب الفقرا
ومجلس الأنس بالمحبوب يجمعهم ... والكأس قد دار فيما بينهم سحرا

الشيخ فى بيوت الإخوان

ماكان رضى الله عنه إذا دعى إلى زيارة بيت من بيوت الإخوان تنحر أمامه البقر والشاء، وتمد الموائد، وعليها أصناف من الطعام، وفنون من الألوان، ومختلف من المطعوم والمشروب حتى إذا تحول عن البيت تحول إليه العوز، وركبه الدين، وضاقت به ميزانية الأسرة، لا والله ماكان شيخنا رضى الله عنه كذلك، ولكنه يدخل البيت فينفل أطفاله قطعاً فضية، ثم لا يكلف صاحب البيت أكثر من طعامه العادى يقدم إليه، ويقدم إلى زواره، فلا يشعر المزار بثقل الزوار، ولا يحس بأنه زاد شيئاً عن مألوفه، ولا أنفق كثيراً يضارّ به. وما للشيخ رضى الله عنه وكظة البطون. وتخمة الأحشاء. وهل رسالته فى الناس أن يملأ أجوافهم بالقديد، ويبشم أمعاءهم بالشواء. كلا، وإنما جاء إلى القلوب ليطهرها. وإلى النفوس ليهذبها. وإلى العقول ليهديها الصراط المستقيم — دخل مرة بيتاً من بيوت لأحباب مستور الحالة فاجتاز طريقاً لحظ فى منعطفه زحمة من القدور تفهق بألوان الأكل. واشتم ما احتوته من رائحة اللحوم. فتأثر فى نفسه تأثراً شديداً. فلما كان ميعاد وجبته. طلب إلى صاحب البيت أن يوافيه برغيف وقليل من «الملوحة». فبهت وعرف من هذه الإشارة الصامتة، واللفتة القاسية. أنه أتى أمراً إداً. فما زال يستعطف

الشيخ ويسترضيه ، ويتوب إلى الله من هذه المخالفة التى لا تتمشى مع سنة الإخوان وعاداتهم . حتى عفى عنه رضى الله عنه . ولهذا استدعاه إلى زيارته الفقير المعدم قبل الثرى المستكفى . وماذا يمنع الرقيق الحال من دعوة شيخنا . وهو إن وافاه . وافاه خفيف المئونة كثير النفحات والبركات — وكان من رحمته بإخوانه أنه إذا نزل بمحلة من المحلات . أو قرية من القرى ، سأل عن مسالك الطرق إليها ، حتى لا يتعب الإخوان القادمين من الجهات فى وعثاء الأرض وغلظ الطريق . فإذا انتقل منها إلى قرية أخرى سأل عن وسيلة الانتقال ليريح ملازميه ، وكثيراً ما انتجع الأماكن القصية عن القاهرة ليعطى إخوانها بعض حظهم ويعفيهم فى الوقت نفسه مشقة النزوح إليه فى أوقات متقاربات . وربما كان فيها تفويت لمصلحة ، أو ضياع لفائدة . كل ذلك على حساب أعصابه ، وعلى حساب شيخوخته . وعلى حساب بناته الصغيرات ، وأبنائه الأطفال الذين كان يغادرهم الشهر والشهرين والشهور . سائحاً متنقلا فى نجود الأرض ووهادها ، حتى يضطرهم إلى ملاحقته والإلحاح عليه فى عودته فيجيبهم بعد لأى ، فإذا ما عاد لم يلبث طويلا حتى يعود إلى سيرته الأولى ، وجهاده المرير . حقاً فإن من أحب مولاه انزوت عنه الدنيا كلها حتى أبناؤه وفلذات كبده المحبوبون ، وصدق الله العظيم : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن

ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) .

وقد كان الإخوان يتزاحمون على باب الشيخ رضى الله عنه ليشرفوا به فى بيوتهم ، وكانوا يتسابقون أيهم أكثر حظاً ، وأوفر سعادة فى سبق إخوانه إليه . وكان الشيخ رضى الله عنه يفوض الإخوان فى حسم النزاع ، حتى لا يكسر قلب أحد منهم إن مال إلى غيره وأجاب دعوته قبل سواه ، فيعمل الإخوان جهدهم فى التوفيق بين هؤلاء المتنازعين ، فإذا شرف الشيخ بيت أحدهم أصبح الشيخ صاحب البيت ، أما أهل البيت فهم خدم يسعون بين يديه ، يأتمرون بأمره ، وينزلون عند رأيه ، ولا يعملون عملا صغيراً أو كبيراً إلا بإرشاده ، ولهذا كان صاحب البيت لا يملك حرية الاختيار فى أن يتغالى فيما يقدمه للإخوان من مأكول أو مشروب ، وما يتمنى أن يقدمه إلى شيخه من طيب الطعام ، فكان يتلقى من الشيخ رضى الله عنه أن يقدم لإخوانه مما فى البيت فعلا وبدون زيادة ، وقد لا يكون فى البيت إلا الخبز وبسيط الإدام ، وكانت الوجبة على بساطتها ، ورقة حاشيتها ، أطعم فى أذواق الآكلين ، وأشهى فى نفوسهم ، من مائدة تفهق بالشواء والقديد ، لأنهم يعتبرونها نفحة الشيخ نفسه ، ونفحة الشيخ شىء تضرب عليه آباط الإبل . ويمكث رضى الله عنه فى البيت ما شاء الله أن يمكث فلا يحس صاحبه بغير ما هو مألوف ، فإذا أراد أن يحوله منه أخ آخر إلى بيته امتنع فى هذه الحالة عن

إجابة رغبته إلا بإذن من صاحب البيت ، مهما كانت دواعى النقلة وشدة لزومها . ولو إلى بيت الشيخ نفسه ، وهنا يقوم بعض الإخوان بملاطفة هذا المفوض إليه ومداورته حتى يرضى ، فإن رضى وأعلن رضاه صافح الشيخ أهل البيت وغادرهم بين دموعهم وأشجانهم .

وكان لبعض الإخوان أيام خاصة يزورهم فيها الشيخ من كل سنة ، فإذا طلب إليه إخوان آخرون تشريف بيوتهم فيها أبى إلا أن يستأذنوا من أصحاب هذه الأيام ، فقد كان رضى الله عنه ملكا لإخوانه فى هذه الناحية ، وإن كان يمتلك منهم بعد ذلك روحهم وقلبهم وكل عزيز كريم .

وكان للشيخ عادة كريمة فى اختيار بيوت مريديه ، فإن دعاه أحبابه فى المنوفية مثلا راعى أن يكون فى وسط الإقليم حتى لا يتعب القادمين إليه من أطرافه ، وكان لا يعنيه الطقس : فربما كان بين إخوان الإسكندرية فى فصل الشتاء ، وبين إخوان المنيا أو أسيوط فى وقدة الصيف ، كأنه يقصد رضى الله عنه أن يشارك أحباباً تآخى معهم فى بأساء الحياة وضرائها ، وإذا حالت الظروف عند انتقاله من قرية إلى أخرى فلا بأس أن يركب حماراً أو يمشى على قدميه ، وماله لا يغبّر قدميه فى سبيل الله ، وهو الذى وقف حياته كلها على مرضاته .

ميله إلى الرياضة البدنية

وقد يكون رضى الله عنه فى قرية من القرى . أو فى منزل من منازل المدن . فيصطحب الإخوان إلى جولات رياضية فى الحقول . أو المتنزهات غير المطروقة ، وكثيراً ما جلس بجوار ساقية . أو على ضفاف نهر ، أو فى مزرعة من مزارع القرية ، أو فى ظل نخلات ، فإن كان فى القاهرة خصص لنفسه بين الآن والآخر نزهة طبيعية على شاطئ النيل . أو فى متنزه على شواطئه ، أو ركب عربة تمضى به شيئاً ما فى الهواء الطلق فى بعض الضواحى .

وأذكر أنه فى فصل صيف اختار رضوان الله عليه أن تنصب له خيمة على صحراء أهرام الجيزة . طوى فيها أياماً فى هذا الجو الطليق ، ولكن الإخوان لم تتركه حتى يأخذ قسطاً كافياً من راحته فى عزلة سعيدة مريحة . وكيف تستطيع صبراً وهو قرة العين وسويداء القلب . وخصب الحياة وروحها . بل كانوا يباكرونه ويجالسونه فى مجلس يمتد إلى منتصف الليل . والشيخ رضى الله عنه سعيد بهم . وإن كان يؤسفه فى بعض الحالات ما يلاحظه على كبار السن من نصب وتعب . فى قطع رمال الصحراء وتلالها فى غدوهم ورواحهم . ومن الطريف أن نذكر أن شيخنا رضوان الله عليه كان أحرص الناس على مجالس الإخوان ، فكان يجلس إليهم صدر النهار كله . إلى الساعة الثانية من بعد الظهر . ثم يختلى

إلى أن يصلى العصر ويستأنف الجلسة بعد ذلك إلى الساعة الثانية عشرة حيث يختتم المجلس ، وينفض الإخوان . فإذا كان له حاجة من الحاجات . أو ميل إلى نزهة فى إحدى الجهات ، لا تستطيب نفسه الخيرة أن يقضيها على حساب مجلس أحبابه . بل يتحرى وقت خلوته هو بين الساعة الثانية ظهراً إلى صلاة العصر ، ويركب عربة يروح بها فى نزهة خلوية على شاطئ النيل . أو فى أحد المتنزهات القريبة ، ويقع له ذلك كثيراً فى أيام الجمعة حيث يتأهب الإخوان إلى صلاتها ، فيكون له من الوقت متسع يذهب فيه بعد الفريضة إلى بعض الرياض ، كأنه يرى أن المجلس حق لأهله ، وهو ممن يقدس حقوق الغير . فمن الإجحاف أن يفوت عليهم منه شيئاً ، بالله . ومن فرضه عليه ؟ فرضه عليه ميله إلى الخير ، وحرصه على الإفادة ابتغاء مرضاة الله .

دنيا الشيخ

شيخنا رضى الله عنه عرجت روحه إلى السماء وما يملك من حطام الدنيا إلا بيتاً متواضعاً وقفه على بعض أولاده ، وإلا معاشاً شهرياً محدوداً ، وقد كان له فى وقت ما فدادين فى أرض البحيرة ينقصها الخصب ويعوزها الماء ، ولم يجد من وقته متسعاً لملاحظتها وإدارتها ، فباعها ودفع ثمنها فى المطلوب منه حين ثبت فى داخل هيئة الموظفين — وكان راتبه كله موقوفاً لحساب البيت ،

ومع هـذا فقد كان ينفح زوار الجهات ، والمنتجعين إليه ، وما أكثرهم — بوجبة غداء وعشاء لا ينقطع لهما مدد على مدار السنة وقد يصادف أن يكون فى بيت أحد إخوان القاهرة ويلاحظ فيه رقة الحال ، فيحول زوار الجهات إلى بيته هو ليصيبوا مطعماً ومبيتاً ؟ وكان يتقرى الفقير المحتاج فيسعى إليه ببره ، ويرفده بما وصلت إليه يده ، أما قرابته القريبة فى أخواته فكان يعطيها من كسبه وإن قل مالا ، ويمنحها من قلبه الكبير حناناً . فعاش من عاش من أهله فى رحم موصولة ، ودنيا مكفولة . على هـذا عاش شيخنا رضى الله عنه فى حياة وديعة فقيرة الدخل ، ولو أراد أن يبسط يده لأحرز الدنيا بحذافيرها ، فإن مريديه على استعداد فى أن يمنحوه أرواحهم قبل أموالهم ، ووجودهم قبل موجودهم ، ولكن أنى لهم هـذا ، وشيخهم بفضل الله وعونه أصبر الناس جلداً ، وأقواهم تحملا ، وأشدهم بأساً فى خشونة العيش وتكاليف الحياة ، وما له لا يكون كذلك ، أليس جده الكريم صلى الله عليه وسلم هو الذى علم الناس أن الفقر عافية ، وتحمل العسر جهاد ، والتخلص من الدنيا نجاة ، ولم لا يتشبه بجده عليه السلام الذى شد بطنه ، وطوى على أحشائه حجراً من شدة السغب ، وعاش على الخشن من الملابس ، والغليظ من المآكل ، وهو لو شاء عليه السلام لانقلبت له الدنيا جنة ، والجبال ذهبا .

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم



وتأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

يفعل ذلك كله، ويتحمل ذلك كله، وهو يعلم أن وراءه ذرية ضعيفة ليس لها بعده من عائل يعصمها من نكبات الأيام وأعاصير الزمان، ولكنها النفس المطمئنة الراضية المرضية، تأبى إلا أن تجرى على سنتها، ونهج طبيعتها. ولقد عاش عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد ملكا وبين يديه مفاتيح الأرض، ومات ولم يترك لأبنائه مايتفوتون به يوماً واحداً، وقال إنى تركتكم لله. ولقد علمنا رضى الله عنه بأن الكلب على الدنيا، والكلف بها، تفوت مصالح الآخرة، وكلما اقترب الإنسان من إحداهما بعد عن الأخرى. نعم، إنه كان يحثنا على العمل، وأكره شيء لديه المتواكل العاطل، الذى لا يسعى فى طلب رزقه، ويعيش عالة على الناس، وإن الآخذ بأسباب الدنيا ليعيش غير الذى يأخذ بأسباب الدنيا ليجعل ما يصل إليه أكبر همه، ومرمى أمله، وما خلقت الدنيا إلا ليمر عليها الإنسان خفيفا، فإن أثقل على نفسه لفتنه الأيام، وأقعدته الليالى عن اللحاق بالسابقين إلى دار النعيم، ولقد شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقنطرة فقال (اعبروها) وما أسهل عبور القنطرة على الخفيف العجلان. من هذا كان الشيخ رضى الله عنه لا يأخذ منها إلا الجانب السهل الذى لا يشغل بالا، ولا يتعب تفكيراً، لأنها ليست مقصودة لذاتها، ولا مرجوة لنفسها، بل هى طريق إلى جنة أو طريق إلى نار، والعاقل

من ترك الدنيا ولو كانت من ذهب ، وجنح إلى الآخرة ولو كانت من خزف ، فما بالك والدنيـــا من خزف ، والآخرة من ذهب ، والدنيا موقوتة بزمان ، والآخرة دائمة على الدوام . ولقد كان الشيخ رضوان الله عليه يضرب الأمثلة لتفاهة الدنيا حتى بأكله ، فكان يعزف عن الطيب من المطعوم ، ويتركه لإخوانه ، ويقنع بالسهل البسيط الذى لا يزحم أمعاه ، ولا يكد بطوناً ، بل وربما طوى اليوم والليلة على وجبة واحدة لا تزيد ، وكما كان يكره الكلف بالدنيا ، كان يكره أيضاً على الثرى من الإخوان ألا يتمتع بطيبات دخله ، وأن يزوى عن وجهها المليح ، والله جل جلاله يقول : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيـــامة) . وإنى ليحضرنى قصة درستها لتلاميذى فى بعض بلاد بنى سويف ، ملأتنى إكباراً لقائلها ، وإجلالا لهذا الرأى السديد ، والقول الرشيد . دخل سيدنا على رضى الله عنه داراً فسيحة لرجل من رجال المسلمين فقال ياهذا ؟ ما تصنع بهذه الدار ، أما لها فى الآخرة كنت أحوج وبلى إن شئت أوصلتك الآخرة : تقرى فيها الضيف ، وتطعم المسكين ، وتخرج الحقوق إلى أصحابها ، فقال يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخى « عاصما » إنه لبس عباءته وتخلى عن الدنيا ، فقال كرم الله وجهه علىّ به ، فلما جاءه قال له : ياعدو نفسه ، أترى أن الله قد أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذ منها ، أنت أهون على الله

من ذلك ، فقال عاصم : هذا أنت يا أمير المؤمنين ، فى خشونة ملبسك ، وغليظ مأكلك . فقال له علـــى كرم الله وجهه : ويلك لست كأنت ، إن الله قد أخذ على أئمة العدل أن يضعوا أنفسهم مع ضعفة الناس ، حتى لا يهيج بالفقير فقره .

فانظر يرحمك الله ، أترى أن شيخنا رضى الله عنه تخطى هذه الحدود فى رسم الطريق إلى أبنائه ، أم اقتفى أثر جده أبى الحسنين رضى الله عنهم جميعاً فى رسم خطوط الحيــاة ، وهى تتلخص فى كلمتين اثنتين « لا تعبد الدنيا ولا تهملها » بل خذ منها ما يصلح حالك ودع الباقى لمن يريد .

ما أحسن ما كان يضرب رضى الله عنه لتلاميذه من أمثـال ، يضربها بفعله لا بقوله ، وكذلك كانت خطته ، فكان يعمل ويأمر بالعمل ليكون عمله نموذجاً فعلياً ومثالا حياً لمريديه ، والحمد لله لقد أثمرت تعاليمه ثمرتها ، وآتى الزرع حصاده ، فإن أحبابه قلدته وحاكته فى كل شىء ، حتى فى حركاته وسكناته ، وأقـــواله وأفعاله ، وطريقة تفكيره ، أليس هو المثال الكامل ، والقدوة الصالحة ، وإنسان العين ، وبيت القصيد ؟

أنتم صلاتى ونفلى	أنتم حديثى وشغلى
وقبلتى فى صلاتى	إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى	إليه وجهت كلى
وحبكم فى ضميرى	والقلب طور التجلى

حكم الوراثة

عرفنا مما تقدم أن شيخنا رضى الله عنه منحدر من سلالة هاشمية وذرية نبوية ، إذ ينتهى جده الأعلى بسيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما ، ومعنى ذلك أن دماء العترة المحمدية تسلسلت فى أصلاب آبائه وجدوده حتى وصلت إليه ، واستلزم ذلك أن يكون القبس النورانى قد خالط تلك الدماء المتنقلة من بطن إلى بطن فى هذه السلسلة الطويلة حاداً قوياً ، أو ضعيفاً واهناً ، حسب استعدادها فى حفظ هذا التراث القديم .

فالشيخ رضى الله عنه ذرية المرحوم الشيخ حسن سلامة الراضى وقد علمنا أن هذا الوالد التقى كان يصلى فى كل ليلة مائة ركعة تهجداً لله ، فلو أضفت إلى هذا أنه حج راجلا لتبين لك من تلك قوة الصلاح فى نفسه ، وحدة الدين فى قلبه ، فإن حجه راجلا فى وقدة الصيف ، أو لسعة الشتاء ، وقطعه البرارى والقفار وما فيهما من وحشة وتعرض للمخاطر ، لا تكون إلا فى اثنتين .

إما الفقر ، وإما النذر ، وكلاهما مدفوعان بباعث قوى من حب الله تعالى وحب رسوله الكريم عليه السلام ، فإن كانت الأولى دلت تلك الحالة بصورة أوضح على مدى ما كان يتمتع به من صلاح وعرفان بربه .

وحسبه أن أسقط عن نفسه فريضة ما كانت تلزمه لفقره ، والفقير لاحج عليه ، لأن الحجة لمن استطاع اليها سبيلا بحكم القرآن الكريم ، إذا كان الدافع إليها تغلغل الإيمان فى قلبه ، وتركز محبة الله ورسوله فى وجدانه ، وتسرب تعظيم الشرع الحنيف فى روحه ، وصاحب تلك الهمة لاتعوقه صعاب ، ولا تلوى به أوصاب ، بل هو مندفع اندفاعاً بقوة خفية لايعرفها إلا من خالط قلبه الصلاح ، وملأ جسمه الهيام ، وأضناه البعد عن محبوبه الكريم .

والحب حتى على أخس صوره ، وتفاهة موضوعه . قد يرى صاحبه فى المهالك ، ويطرحه فى مفازات الهلاك ، ويعرضه إلى كل ذى ناب وظفر من سباع الغابات . وأظنك سمعت بقصة (بشر) وكان صعلوكا من صعاليك العرب برح به الغرام . واشتد به الهيام ، وأضناه الجوى على ابنة عمه تلك التى خلع عليها مزركش الثياب ، ومطرز الوشى ، فى شعر يسيل ولهاً ، ويفيض وجداً وغراماً . فأراد والدها أن يتخلص من هذا الذى جر عليه ألسنة الناس ، فأطلقوا فيه مايعيب من سر القول وجهره . فأمهرها عليه بألف ناقة من نياق قبيلة يعزلها عنه سبع كاسر ، وأفعوان سام . فلم يسع بشراً إلا أن يجيب . وهو يعلم أنها المخاطرة بعينها . فاخترط سيفه ولبس لامته وسار ، فتعرض له هذان الحيوانان ، فقتلهما وساق النوق . فإذا كان هذا فى حب تافه . وعرض زائل ، ينتهى لامحالة

مع الأيام ، فما بالك بحب الله ورسوله ، لمن يعرف ماهو حب الله ورسوله .

لقد استطابه سيدنا (ياسر وزوجته) فقتلا فيه ، وكانا أول قتيلين فى الإسلام ، واستطابه بلال فعذب ، واستطابه المسلمون الأولون فأخرجوا من ديارهم وأبنائهم إلى أرض نائية وراء البحر أو فى أطراف الصحراء .

إذاً فهجرة والد الشيخ رضى الله عنهما كانت لشىء عظيم ، فوجب أن تكون المشقة عظيمة .

وإذا كانت الثانية : وهى نذره أن يحج إلى الله راجلا ، دلت أيضاً على حدة قوية من الدين والوفاء فى نفسه ، فالوفاء رأس الصلاح ، ينطوى تحته الوفاء لله فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، قال تعالى « وليوفوا نذورهم » .

ووفاء النذر على الصورة التى رسمها والد الشيخ رضى الله عنه أمر لا يستطيعه إلا من كان على غراره من الأصفياء المحظوظين .

على- إذا ما جئت ليلى بأرضها   زيارة بيت الله رجلان حافيا

وكيفما كان الأمر . فإن أى حالتيه تدل على ما كانت تتمتع به تلك الأسرة الكريمة من تقوى وصلاح ومحبة لله ولرسوله .

فإذا أضفنا إلى هذا أن عمه أيضاً ، كان فى نزعة أخيه الدينية تبين لنا وجه الطريق .

ولقد قررت الأطباء بأن الولد يأخذ من أبيه أكثر صفاته الجسمية والخلقية ، وهذا حق لاشبهة فيه ، ومادام ذلك كذلك فشيخنا رضى الله عنه ، ورث من أبيه تلك الخصائص مجتمعات ، ورثها ضيقة محدودة . فما زال ينميها ويغذيها بجهده وقلبه إلى أن صارت فى قامة العمالقة وامتد ظلها امتداداً .

ولا غرابة فى أن يرث الابن عن أبيه روحه وميله وشعوره كما يرث منه لحمه وعظمه ، وربما كانت الأخيرة أضعف الاثنين .

فلقد كان عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فيه تلك النزعة القوية الحنفية التى اضطرته أن يهم بذبح ابنه عبد الله لنذر نذره ، لولا أن جاءت الأقداح على الإبل المائة ، والتى فعلت فعلها حين استودع الله الحرم ولاذ بأهله إلى الشعاب خوفاً من أصحاب الفيل ، فأهلك الله الفيل وأصحاب الفيل بطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول .

وقد ورث عبد الله عن أبيه هذا السر العظيم ، والدفعة النورانية الكريمة ، فاحتفظ بها أمينا ، وسار بها كريما ، حتى لقد هامت به « فاطمة الخثعمية » بنت سيد قومه ، ورصدت له الطلائع وبثت عليه العيون لتظفر بأملح وجه بزغ فى سماء قريش ، ولم تيأس من أن تنال إربتها منه حتى بعد أن تزوج من آمنة ، وانقطع حبل رجائها فيه ، فدعته يوم مرجعه من ندوة أبيه فاقتادته هى وصواحباتها إلى داخل البيت ، وأخلى لهما المكان ، ودفعتها الفتنة

فيه إلى أن تهم به ، ولكنه لم يهم بها وقال مرتجزاً مبتعداً متجافيا :

أما الحرام فالممات دونه   والحل لاحل فنستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه

وعصم الله عبد الله ، وحفظ سره فى صلبه ، ليتفجر نوراً من بطن آمنة حين يشاء الله .

إذن فشيخنا رضى الله عنه سلالة طيبين من طيبين .

نشأ ومعه هاد من قلبه ، ونور من بصيرته ، على طريق لم يعبد لغيره ، ولم يمهد لسواه من لداته وقرنائه ، فخالف ما تواطأ عليه أهله وقرابته وعرف جهته فى سلوك أبنائهم فى المدارس المدنية ، وعزفت نفسه الصالحة عن أن تضيع حياته فى شىء لا روح فيه ولا حياة ، وخالطه شك غريب فى عقول هؤلاء الذين يدفنون أبناءهم فى تعليم لا فائدة فيه ولا جدوى ، وراح هو تحرسه عناية الله ورعايته إلى ذلك الجدول الرقراق ؛ والشهد المذاب ، فوضع فمه فيه ، وما زال يكرع حتى أتى عليه . فقل لى بعيشك ، كيف تفسر هذا ، طفل يوجه إلى حفظ القرآن الكريم فيحفظه فى ست سنوات ثم يوجه إلى المدارس الابتدائية فيشمس ، ويخرج على عرف الناس ، وتقاليد البيئة ، وعلى إرادة أبيه .

أكان أهدى من أبيه قلبا ، وأكثر منه رشداً ، حتى وهو فى تلك السن الباكرة ؟؟ ؛ ولم لا يكون كذلك . ولم لا يكون ذلك القبس الذى تفجر فى أصلابهم من لدن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لا زال يتشعب ويتشعب فى مسارب أرواح أسرته المتعددة فى طيات هذه القرون الطويلة ، حتى إذا وصلت إليه تجمعت شعبها جميعها فى روح ذلك الإنسان الكريم ، فنظر بعين أبصر نوراً من عيونهم ، وعقل أرشد فكراً من عقولهم ، ومضى بقلب أهدى سبيلا من قلوبهم (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

ولقد انبثق نور النبي صلى الله عليه وسلم من صلب سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فما زال يتنقل فى العرب بطوناً وقبائل وأفخاذاً وأصلاباً ، إلى أن تسرب إلى صلب عبد الله ، فتكشفت عنه بطن آمنة ، فأنار المشارق والمغارب (وأشرقت الأرض بنور ربها) .

من هذا كان شيخنا رضى الله عنه مجمع الأنوار وكعبة الأسرار ، والسر الأظهر والنور الأبهر ، وناصر شريعة جده الأكبر ، صلى الله عليه وسلم .

نعم من هذا كان ، وستكون ذريته من بعده ، وإن لنا فى ابنه الكريم ، وخليفته العظيم السيد إبراهيم سلامه الراضى الأمل المرجى إن شاء الله تعالى .

بقيت لى كلمة : وهى أن البيئة قد تؤثر فى أهلها فتلونهم بلونها وتصبغهم بصبغتها ، ولكن هناك من يشق عصا الطاعة ، ويتمرد على هذه القوانين ، إذا كان معاناً بسر إلهى ، ومحفوظاً بروح قدسى .

وله من فطرته السليمة ، ومزاجه المستقيم ، تفكير غير تفكير الناس ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلم تؤثر فى شيخنا رضى الله عنه تلك البيئة التى تنشأ فيها . فلم يأخذ بلهو الصبيان ، ولم يسلك طريقهم فى عبث ومجون ، بل جالس الكبار فأخذ من عقولهم ، والفضلاء فأخذ من فضلهم ، والعلماء فاغترف من علمهم ، وما زال فى جد الحياة واستقامتها صغيراً فشاباً فرجلا . لم يدخل قلبه ما يشين ، ولم يؤخذ عليه ما يعيب ، حتى نهض بواجبه وتصدر يومه ، وأدى رسالته على أكمل وجه وأتم تعبئة .

لم تؤثر البيئة وإن تعددت ألوانها ودبت عقاربها على المسنود بعناية الله ، ولكنها تؤثر التأثير كله إن كانت صالحة فى أبنائها وأهلها ، ذلك لأن الاستقامة والصلاح وما إليهما فطرة النفس التى فطر الله الناس عليها . فإن لم يكن هناك من يسود صفحتها ، ويلطخ عزتها ويغير جبلتها ، امتد بها الأجل على صفائها الفطرى ، وخلقتها الطبيعية ، ووضعها الأصيل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » أو كما قال عليه السلام .

ومن يطع الرسول ينال عزاً ويحظى بالمسرة والأمانى
شفيع المذنبين رسول صدق ومن قد خص بالسبع المثانى

خفاء وظهور

عرفنا أن شيخنا رضى الله عنه كان إذا أمه قاصد ، أو جاءه راغب يود أن يعقد على يديه ميثاق الطريق طاوله أياماً وشهوراً . وربما ثقلت على هذا المريد المدة وأمله طول الانتظار فانصرف ، وانصرف عنه الشيخ دون أن يعقب عليه سائلا ، أو يتفقد فيه غائباً ، أو يستوحش منه خالياً ، ومكث رضوان الله عليه مدة مديدة على هذا الوضع ، بين قلة من الإخوان معدودة ، اصطفاهم اصطفاء ، واختارهم اختياراً ، فقطع بهم الطريق خفافا .

ولكن تطورت حالة الشيخ رضى الله عنه تطوراً ملحوظاً ، فبعد أن كان لا يظفر بمعاقدته مريد إلا بشق الأنفس ومصاحبة الحظ ، أصبح يدعو إلى الطريق ، ويرغب فيه ، ويدعو الناس إليه . فإذا أقام حضرة ذاكرة فى مسجد من المساجد ، أو ناحية من النواحى ، بسط يده الكريمة لمن يشاء أن يتخذه شيخاً وأخاً فى الله ، فتقاطر عليه الناس والتفت حوله الجماهير . تتلمس تلك اليد التى كانت مقبوضة عنهم منذ أمد بعيد ، وكان الشيخ رضى الله عنه لا يتعب نفسه فى التحرى عن مريده قبل أن يمضى معه ، بل يكفى أن يحضر المتلمذ ويطلب إلى الشيخ معاهدته وإذا بالشيخ يمد يده إليه ويأخذ بيعته .

. وهذه الظاهرة جديرة بالبحث ، حرية بالتفكير . لأنها تتصل

بين عصرين ، وتميز حالتين ، ورأيي الخاص في هذه الحالة لا يعدو أمرين .

الأمر الأول : أن الشيخ رضي الله عنه كان يميل إلى التستر ، لأن فيه سعادة بالمحبوب ، وانقطاعاً إليه ، وتفرغاً له ، وهي منزلة عليها بعض أصحاب المقامات ولا يريدون بغيرها بديلا ، وتصور مثـــلا إنساناً في روضة من الرياض ، زاهية خضرتها ، متفتحة أزهارها ، جارية أنهـارها ، عليل نسيمها يعبق منهـا أرج فياح ، ويحلو فيها جنى شهي ، وتعزف على أيكاتها أصوات أخاذة جذابة تعمل في الأرواح مالا تعمله الراح ، وترقى بالوجدان إلى خيال حلو من جمال وكمال . فإذا تنقل في أرضها مالت عليه الأغصان بظلها الظليل ، وإذا تشمم أجواءها هب عليه عرف الطيب ، وإذا اجتلى أشجارها لاحت لعينيه ألوان الأزهار ، ووشي الألوان ، بين غصون مياسة ، وفروع وارفة ، ماذا يكون من أمر هذا المنعم بالطيبات ، لو سرح بخاطره إلى مشية في الأسواق والحارات والأزقات ، بين فرث يخنق ، ونتن يزكم ، وجو ثقيل ضغطه كاو حدته في وقدة الشمس أولذعة الـــبرد ، فإذا رأى رأى حشرات زاحفة ، وأجنحة منكوسة على قذر ، وناساً في أسمال ، وإذا سمع سمع لغواً ، وصوتاً يأخذ من الحمر نهيقها ، ومن البوم نعيبها ، ومن الذئاب عواءها في عالم استجار منه أبو العلاء المعري في قوله :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطـــير

فماذا يختار من الحالتين ، وماذا يرغب فى الناحيتين .

فالولى الساكن بقلبه فى حضرة الله ، المنقطع بكليته إلى وجهه الكريم ، هو صاحب هذا الروض البديع الذى لم نجد مثلا أعلى منه يقربنا إلى صادق التشبيه غير هذه الشجيرات والزهرات التى لا تساوى قلامة ظفر بجوار ما يتمتع به الواصل إلى حضرة القدوس؟ فلو انتقل هذا الولى إلى عالم الأسباب ، انتقل إلى تلك الدروب والمستنقعات ، وكل خانقة فى الأرض ، وهابطة من السماء . وهذه الهموم الغزيرة التى وصفتها ، والتى لم أجد مثالا أقبح منها فى وجه المتنزل من سمائه إلى تلك الأرض الوبيئة ، الأرض التى فر منها سيدى أبو اليزيد البسطامى إلى الأحراش والغابات ، لينجو بمحبوبه من الشواغل الدنيات . أراد شيخنا رضى الله عنه أن يكون من أصحاب الخلوة ، وأرباب الجلوة ، وسمار المحبوب ، حتى إذا أطلعه الله على مقام يقربه إليه زلفى ، ويدنيه منه درجات فوق درجات ، كشف له حجب الأسباب لينزل إلى هذه الدنيا ، وينخرط فى صفوف الناس يعالج غثاثاتهم ، ويشفى أمراضهم . ويقوم عوجهم ، ويأخذ بأيديهم إلى سماء الكمال ؟ ؟ ؟ ولم لا يكون ذلك كذلك ؟ ؟ ؟ فنى التمرس بالشدائد قربان ، والسعى بين الناس بالصلاح حسبة ، وميل الكاهل تحت أثقال الجهاد أسرع طريق إلى الله ، إنها وظيفة الرسل ، ومن أعلى من الرسل مقاماً وأرفع جناباً ، فلئن كان سبحانه وتعالى اختار هذا الأمر لرسله . واصطفاهم له ، فهو تكريم أكرم

الله به أحسن خلقه ، وأقرب عباده إليه ، أفلا يطمع ولى الله فى وظيفة الرسول ، والدرجة بينهما واسعة ، والدائرة فسيحة ؟ ؟ إذاً فلقد كرم الله شيخنا رضى الله عنه بهذه المنزلة الرفيعة وللدرجة العالية ، فخصصه للناس ، وماله لا يكون قار العين ، منشرح الفؤاد ، مغبوط المكانة ، وهذا شيخه أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، كان يركب (برذونه) ويأمر من ينادى فى الناس « من أراد القطب ، الغوث ، الفرد ، الجامع فعليه بسيدى أبى الحسن الشـــاذلى » ، والشاذلى رضى الله عنه بلغ من منزلته ، وقرب مكانته أن قال: «قدمى هذه على جبهة كل ولى لله تعالى ، فانحنى لقولته تلك رءوس الأولياء؟ إذاً قد استجاب شيخنا رضوان الله عنه إلى هواتف قلبه ؟ وتوجيه ربه ، ونزل إلى الناس يدعوهم إلى الله ، ويضمهم إلى طاعته . حتى كثر من حوله وضاقت بهم الباحات . وامتدت لأجلهم السرادقات ، وسال بهم الوادى سيلا ، فأخذوا بين الناس مكانة مرموقة ، ومنزلا كريماً ، وصارت الحامدية الشاذلية مسبحة المتعبد وخلوة المسبح ، وصومعة العابد ، وقبلة القاصد ، وأمل المؤمل ، علا صوتها فأسمع الخافقين ، وقبس نورها فطوى النيرين .

أما الأمر الثانى فى نظرى ، فهو أن الشيخ رضى الله عنه ، كان يعرف أنه أهل لهذه المكانة ، كفء لهذه الزعامة ، ولكنه لم يشأ أن يوطئ طريق الله إلى من ليس من أهلها ، ولم يستطع أن يجرى على عرفها ويصبر على لأوائها فقبض يده عمن لا يتوسم فيه الأهلية

واكتفى بخلاصة يستطيع أن يسلك بهـــا الطريق ، ولو حف بالمكاره ، وغلظ بالأشواك ، إبقاء على أسرار الله من أن تتفشى بين الدهماء ، فيشوه وجهها ، أو تؤخذ على غير مايراد بها ، والطريق كالعروس ومهرها قتل النفوس ، كما يقول شيخنا رضى الله عنه ، ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر كما يقولون ، والمهر ليس هو الذهب البراق ، وإنما هو أغلى قيمة ، وأعز مطلبا . فهو فى هذه الأبيات :

محب الله فى الدنيا عليل — تطاول سقمه فدواه داه
كذا من كان للبارى محباً — يهيم بذكره حتى يراه
ويزهد فى قصور مع نعيم — وفى الدنيا ويفنى عن هواه
ولو قال العذول به جنون — لقال فإن جننت فمن هواه

إذاً فربما كان هذا هو الذى أراد الشيخ نفسه عليه ، ولكن الله أرحم بعباده ، وأحن عليهم من أن يتركوا هملا ، ويروحوا بددا ، ويضربوا فى متاهات الضلال ، من غير أن يسخر لهم الراعى الرحيم ، والمنقذ العظيم ، فهز قلب الشيخ إلى أولئك المتخلفين ، فذهب إليهم حثيثاً ، ودعاهم رفيقاً ، ومازال يشرق بهم ويغرب ، حتى لانت قناتهم ، ودخلوا فى طاعة الله مسرعين .

سبحانك ربى إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وليس أحوج إلى الصدقة من العصاة والمذنبين ، ترى لو لم يقيض الله للناس هذا الولى الكامل ، والقطب الجامع ، والشيخ الواصل أفلا كانوا

لايزالون تحت أثقال الذنوب ، وبين نشوة المعصية ، ثم من كان يرفع المساجد ويعمرها ، ويبنى الزوايا ويسكنها ، ويرفع أعلام الطريق وينشرها ؟ ؟ ؟ ومن كان يذكر الناس بالله فى الشوارع والحوارى فى جماعات يقفو بعضها إثر بعض ، تحت رايات منصوبة ، وأعلام منشورة ، وسمات ملائكية ، يفيض عليها نور من إيمان قلوبهم ، وتعلوها نضرة من صفاء أرواحهم ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون .

الصوفية هى الدين الخالص

جاء الإسلام طهوراً للناس من رجس الوثنيـــة ، وطهارة للقلب من أقذار الأوزار ورواسخ الأكدار ، وافترض على المسلمين فرائض سهلة ميسورة توصل العبد إلى ربه ، ووصول العبد إلى ربه ليس وصولا مكانياً . فالله جل جلاله لا يوصف بمكان ولا زمان ، ولكن الوصول هو قربه من رضوانه ، ونوال جزاء إحسانه ، ولا يستطيع إنسان أن يصل إلى هذه المرتبة إلا إذا كان نقياً من خبائث قلبه ، نقاء يؤهله إلى مناجاة ربه فى حضرته القدسية « فالله طيب لايحب إلا الطيب » .

وعلى ذلك فمدار الأمر جميعاً يرجع إلى طهارة القلب ، وعزل النفس عن مخالطة المعصية ، وتخليص الروح من شهوات الجسم .

فإن أدت هذه العبادات المفروضة هذه النتيجة كانت عبادة خالصة لله مقبولة شكلا وموضوعاً ؛ وإن لم تؤد إليها فلا خير فيها ، لأنها لا تعدو أن تكون رسوماً ونقوشاً وزخارف خادعة إن خدع بها الإنسان نفسه فلا يستطيع أن يخدع بها ربه ، والخداع زيوف ولا خير فى عبادة لم تؤد إلى الغرض المنشود ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رب مصل ليس له من صلاته إلا التعب ورب صائم ليس له من صومه إلا الجوع » .

عرفت الصوفية تلك الحقيقة ، فجعلت همها حفظ القلب من غواشى الفتن ، ومحاربة النفس بسلاح الفضائل ، وكبح جماح الجسم من النزوات المهلكة ، ووضعت لذلك كله قواعد ورسوما ، وألزمت بها من تتلمذ عليها لينجو من شر نفسه ، فكان عملها هذا طريقا مأموناً للسالك يؤدى إلى غايته المرجوة ، وأمله المنشود .

والحقيقة التى لامراء فيها أن العبادة إذا كانت خالية من روح الخشوع والتدبر وإعمال القلب ، لا تؤدى إلى شىء أبداً ، ولو قطع صاحبها الليل قائماً والدهر صائما ، وعندى أن من أدى الفرائض فقط على وجهها خير ممن يشمر على التهجد طوال ليلته وقلبه مشوشر ، ووعيه سابح فى آفاق بعيدة . وأزيد على ذلك أن من دخل على مولاه ، وقلبه معرض عنه فهو سيئ الأدب ، ولمولاه أن يطوى صلاته تلك ويضرب بها وجهه ، فلو استأذن

محكوم على حاكم فأذن له ، فدخل عليه وتركه ، وأخذ يتفقد ما فى الغرفة من أثاث ، لكان جديراً بالطرد والعقاب ، وبألا يعاود زيارته مرة أخرى ما دام على هذا السفه ، فإذا كان هذا الأمر يشين محكوماً قد يكون فى ثقافة حاكمه وهو فوق ذلك إنسان مثله ، فكيف يكون الوضع مع أحكم الحاكمين .

لذلك كانت العبادة المليئة بالإخلاص وإن قلت خير من العبادة الفارغة وإن كثرت ، فرب متصدق بدرهم واحد يبتغى به وجه ربه خير بما لا يقاس من متصدق بالآلاف رئاء الناس ؟

ومن هذا لا يعول الصوفيون على هذه المظاهر ، ولا يعطون لها أهمية ، إنما تعويلهم على مدى تأثر الشخص بما هو آخذ فيه من عبادة ، وعلى حظه من تلك العبادة ، فإن هى جردته تجريداً ونفضته نفضاً من غبار الأوساخ ، وصل إلى ربه راضياً مرضياً ، وإن هو مازال مطموراً تحت أنقاض بشريته ، فهو بعيد عن نور الإيمان الوضاء .

كان النبى صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه يوماً فقال عليه السلام : سيطلع عليكم رجل من أهل الجنة ، فتلفت أصحابه حتى رفع لهم سواد فإذا هو أعرابى أقبل فسلم وجلس ، فلما انصرف لحقه واحد ممن سمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فيه وتعلل له ببعض العلل لينزله ضيفاً فى بيته بغية أن يعرف فضل

الله عليه ، فمكث عنده ثلاثاً لم ير فيها إلا ما هو معتاد ، فالرجل ينام بعد العشاء ، ويستيقظ فى الفجر فيؤدى الفرض ، ثم يأخذ فى أسباب رزقه بياض يومه ولا أكثر ، فقال له الضيف إنى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيت وكيت ، فتعللت عليك لأنزل فى بيتك وأراك من قرب فما رأيت شيئاً غريباً ؟ فقال له الأمر كما رأيت ، فلما استأذن منه وانطلق ناداه صاحب البيت أن قف ، فوقف الرجل وأقبل عليه صاحبه يقول : إنى لم أحقد على أحد ولم أحسد إنساناً على نعمة أنعمها الله عليه ، فقال له الضيف من هنا جئت .

نعم من هنا جاء إلى الله فبشره نبى الله صلى الله عليه وسلم بالجنة من غير أن يعمل فى العبادة جاهداً ، أو يوغل فيها مكثراً ، وإنما اقتصر على الفريضة فأداها كما يؤديها المؤمن العارف ، والمسلم الخالص ، فنقت قلبه ، وأضاءت بصيرته ، فنجا من الحقد والحسد وأمراض القلب المردية ، وهذا هو سلوك الصوفى ، أو جهاد الصوفى نفسه . يقتل أنانيته فلا تراه إلا منزوياً ، ويحط من كبريائه فلا تلحظه إلا متواضعاً ، ويتستر على نفسه فلا تشاهده مرائياً بعبادة ، أو مكثراً فى نافلة ، فإذا دعا داعى الوطن أو الدين فهو المفتدى بنفسه ، المضحى فى سبيل دينه ومولاه ، وهل يطلب الدين من العبد إلا هذا ، وهذا هو الدين الخالص الذى لا شبهة فيه ولا رياء ، وهو ما يدعو إليه الصوفيون .

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهموا وتأدب فى مجالسهم
وخل حظك مهما قدموك ورا
وحط رأسك واستغفر بلا سبب
وقم على قدم الإنصاف معتذرا
وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم
وجه اعتذارك عما فيك منك جرى
قوم كرام السجايا حيثما جلسوا
يرى المكان على آثارهم عطرا
يُبدى التصوف من أخلاقهم طرفا
حسن التآلف منهم راقنى نظرا

منزلة شيخ الطريق

شيخ الطريق هو الأب الروحى لكل من تعاقد معه على الوصول إلى الله ، وليس تلاميذه كتلاميذ المدارس أو المعاهد ، تربطهم بمدرسهم مواد الدرس وسقف الفصل ، حتى إذا ما انتهت حصة الدراسة مضى كل منهم فى سبيله دون أن يلوى على صاحبه ، ودون أن يعنى بشئونه الخاصة أو العامة ، ما دام يؤدى واجبه الدراسى على أى وجه ، وقد تمضى عطلة تعطيل المدارس بدون

أن يراه ، أو يسمع عنه شيئاً ، أو يتسقط صدراً من أخباره وأحواله ، فالرابطة بينهما رابطة مدرسة فحسب ، فإذا أتم دروسه وارتقى بدراسته إلى معهد أعلى انقطعت الصلة به إلى الأبد ، إلا إذا رآه صدفة فى طريق أو محال عامة .

ومثل هذه الحالة لا تصلح بين شيخ ومريد ، فالمريد فى طريق إذا ضرب يده بيد شيخه أصبح مملوكا لشيخه ملكا تاما ، لا يصدر إلا عن رأيه ، ولا يعمل عملا كبيراً أو صغيراً إلا بإرشاده ، ولا يغادر مجلسه إلا إلى سعيه فى طلب الرزق . وللشيخ الحق فى أن يتحرى خصائص حالته ودقائقها ، ويعرف ما يجول بخاطره من أفكار ، وما يتركز فى قرارة نفسه من اتجاه ، حتى إذا أسلمه قياده سار به شيخه على طريق مستقيم ، يطب نفسه ، ويوجه قلبه ، ويكمل نقصه ، ويملأ روحه بالخير والاستقامة والصلاح ، وليس كل شيخ يصلح لهذه الوظيفة ؛ أو يحمل تلك الأمانة ، أو يؤدى هذه الرسالة على وجه نافع ، ووسيلة مرضية ، إذاً فلا بد أن تتوافر فى الشيخ شروط لابد منها لمن يتصدر هذا المركز الخطير .

الشروط التى تتحقق فيه

فأول شروط تتحقق فيه أن يكون تقياً يخشى الله ، فالفاسق لا يقوم ، بل هو فى حاجة إلى من يقوم فيه هذا الاعوجاج . وناقص الكمال لا يعطيه .

ثانياً : أن يكون ذا أخلاق ، والخلق ملاك الصفات جميعها وما ملك النبي صلى الله عليه وسلم قلوب أصحابه لأنه كان أعلمهم ، أو أشرفهم ، أو أفصحهم ، أو أعلاهم نسباً ، أو أرشدهم عقلا ، أو أسبقهم إلى المعارف قدما ، بل أسر قلوبهم لأنه كان أعلاهم خلقاً وأرفعهم كمالا ، وبتلك الأخلاق وحدها ووحدها فقط ، ألف بين القلوب المتنافرة ، والعصبيات الثائرة والقبائل المتناثرة ، والقلوب المنفرقة وضمهم إليه وآواهم فى حرزه ، وصدق الله العظيم فى قوله : (ولوكنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، وقد امتدحه ربه بنعت جمع له فيه فضائل ما تفرق فى عوالم الأولين والآخرين حيث قال جل ثناؤه : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ثالثا : أن يكون ذا علم ومعرفة ، لأن الجاهل لا يعرف وجه المصلحة لنفسه بله الآخرين .

على أن علوم الأشياخ تختلف اختلافاً كلياً عن تلك العلوم التى تحتجزها الكتب بين أغلفتها وربما لا تستسيغها العقول فتمجها مجا وتلفظها لفظا . بل هى علوم لاتدون فى كتاب ولا تخط بقلم، لأنها علوم تتذوقها الروح ، وتتسربها العواطف ، وتهفو إليها القلوب ، وتحن إليها الأفئدة .

فعلوم الشريعة عندهم : معالم وضعها الدين لصلاح الدنيا والآخرة ، فأى شعيرة من شعائر الدين إنما تهدف إلى صلاح القلب

ونزع رين الصدور ، فإن أدت إلى هذا استقام الحكم فى نظرهم ، وإلا فلا وجه غير ذلك.

فالصوم مثلا له ثلاث درجات ، أو على ثلاثة مراتب :

صوم العامة : وهو الإمساك عن شهوة الفرج ، وشهوة البطن من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وهذا الصوم إن اقتصر عليه الصائم ، وأرسل نفسه الأمارة على سجيتها فى مجاهل المعصية ومتاهات الشرور فليس فيه جدوى ، وإن صام الدهر كله — « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع » .

صوم الأبرار : وهو الإمساك عن شهوة اللسان ووساوس الصدور ، فيبدو بين الناس عف اللسان ، غاض البصر ، سليم القلب ، صفى الروح ، متسامحاً كريماً ، لا يحمل لأحد ضغينة ، ولا يكره لغير خيراً ولا يجر على أحد ضيما ، ولا يرد على شاتم قولا ، فإن هزته نفسه إلى ما يفسد شيئاً من صومه هذا زجرها وعنفها بقوله : « إنى صائم ، إنى صائم » .

صوم المقربين : وهذا لا يستطيعه إلا الولى الواصل ، والعارف الكامل ، لأنه أكثر مئونة ، وأكبر طاقة من أن يتحمله كواهل السالكين ، وإلا فمن يستطيع أن يكون كسيدى أبى الحسن الشاذلى الذى يقول : « لو غاب ربى عن قلبى لحظة واحدة ، ماعددت نفسى بين المسلمين ، هذا هو صوم المقربين ، وعبادة المشاهدين ، ومنزلة

الواصلين ، لا ينالها إلا أولو العزم من الرجال ، وأصحاب الفتوة من الفحول ، وقل فى سائر العبادات ماقلته فى الصوم . فالشريعة عندهم مطايا توصل إلى الله ، لا رسوم وخطوط تتمايل بها الأجسام وتغيب عنها القلوب ، فالركوع فى الصلاة ليس معناه عندهم وضع اليدين على الركبتين ، ومساواة الرأس بالجسم ، ولكن معناه عندهم ما يرمز إليه انحناء الجسم وكب الوجه على الأرض ، والإغراق فى الثناء على الله ، هذا هو الوجه الذى يكشفونه لتلاميذهم ، ويقيدونهم به ، أما العبادة الخالية من روح الشرع فهى عندهم قشور يخدع بها الإنسان نفسه ، ويرائى بها قلبه ، وليست من العبادة ولا الطاعة فى شىء .

أما علوم الحقيقة : فهى أسمى ما يعتزون به ، ويعملون له ، فالشيخ الكامل فى عرفهم ، هو الملم بأطراف الشريعة والحقيقة ، فشريعة بلا حقيقة تفسق ، وحقيقة بلا شريعة تزندق ، وشريعة وحقيقة كمال ، ، وعلم الحقيقة لابد منه للشيخ المتصدر ، لأنه يطب القلوبَ ، ومن طب شيئاً عرف داءه ، وإلا كان دجالا والشيخ فى حقيقته لابد أن يعرف أسرار القلوب ، وخلجات النفوس فى أشخاص مريديه .

ولقد شرحت هذا السر فى باب من أبواب هذا الكتاب فلا داعى للإفاضة فيه إلا بمقدار ماسنح من هذه المناسبة ، فتعاقد

المريد مع شيخه يؤدى إلى امتزاج روحيهما ، وإذا امتزجت الأرواح شعرت بشعور واحد وإحساس واحد ، فيعرف الشيخ مايطرأ على قلب تلميذه من قلبه هو ، فقلبه مرآة تلميذه تنعكس عليها مرئيات ضميره بأجلى صورة وأدق بيان ، فيعرف من أين أخذ ، ومن أى باب دخل عليه وفد الشياطين فيجلوهم إجلاء ويطردهم طرداً قبل أن يضربوا قبة من الرّين تتناوح فيها أعاصير الشرور ، إذ الشيخ هو الديدبان الساهر ، والحارس اليقظ ، والبواب الأمين على قلوب مريديه .

رابعاً : أن يكون ذا شخصية : لأن المربى إن لم يكن مهيب الطلعة ، ملحوظ المكانة ، استخف به تلاميذه . وتهاونوا فى بعض أو كلّ مايجب للمربى من تقدير ، وإن وصل إلى هذا لم يجد بين يديه تلميذاً يعى له أو يذعن إلى ماوجه إليه . وما هكذا تكون الأشياخ بين المريدين .

فشخصية الشيخ ومهابته وكيانه فى قلوب تلاميذه ، كافيات لجلب وعيهم ، وإيقاظ حسهم ، والاستماع إلى إرشاداته ، وانطباع تعاليمه فى أذهانهم وقلوبهم .

وأنا كمدرس بلوت من أخلاق التلاميذ فى تجاربى الطويلة ماأقنعنى بأن المتعلم يفيد من المعلم الحازم المهيب ، وإن كان قليل المعرفة متواضع المحصول أكثر مما يفيده من معلم مضيع شخصه ،

نازلة كرامته ، واهنة هيبته ، ولو حاز علوم الأولين والآخرين .

ولقد مرّ بك كيف أن الله تعالى جلل مقام نبوة محمد صلى الله عليه سلم بالهيبة حتى أنه رآها تهز فرائص صحابته ، فحاول أن يرفه عنهم فيقول : « إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

خامساً : أن يكون له طريقته فى التهذيب ، فيضع السيف فى موضع السيف ، والندى فى موضع الندى ، والنفوس ليست من عجينة واحدة ، أو طبيعة واحدة ، فرب إشارة تغنى عن عبارة ، ورب سوط يلهب جسما ولا يقوم نفساً .

ولقد كان شيخنا رضى الله عنه له طريقته المثلى فى هذا الباب فربما حمل شخصاً على هدم مكانته بين معارفه أو أهل محلته ، إن رأى فى قلبه صلفاً واستعلاء ، أو ربما كلف آخر بأن يقطع ليلة قائماً ، أوشهراً صائماً إن رآه مستحقاً لهذا العلاج ، أو يكتفى بقصة يقصها بين الإخوان يعرض بها تعريضاً ، ويشير بها إشارة تكون لصاحبها شفاء وغناء . وهكذا لايزال يروض النفوس على مايخمد جذوتها ، ويطفىء شعلتها حتى تستقيم ، فإن أبت فآخر الدواء الكى ولا أقصد بالكى طرده أو حرمانه من مكانه ، فالشيخ رضى الله عنه لايلجأ إلى قطيعة مريد أبداً ، وإنما الكى عنده إشعاره بالألم إشعاراً يؤرق جفنه ، ويذهب غثاثة نفسه .

سادساً : زهده فى زخارف الدنيا : فإن الشيخ الزاهد فى الدنيا ، المنطوى عن بهارجها ومغرياتها مثل حى لتلاميذه فى عدم التكالب

عليها والاحتفاء بها ، وليس معنى التكالب عليها أن يسرّح طيباتها ، ويعزف عن خيراتها ، بل معناه اعتداده بها وجعلها كل شيء فى حظوظه . وما خلقت الدنيا إلا مطية للآخرة ، وما اتقى الإنسان ربه فيها إلا وكانت له أحسن موصل إليه .

وقد كان شيخنا رضى الله عنه يدخل بيت الثرى وبيت الفقير ، وما ميز بينهما فى شىء أبداً إلا بقوة إيمان أحدهما وتقواه .

ولقد تعرضت لرأى شيخنا رضى الله عنه فى هذا الموضوع فى باب من أبواب هذا الكتاب فليرجع إليه من شاء .

هذا أهم مايجب أن يتوافر فى الشيخ ليكون مربياً نافعاً وشيخاً كاملا ، فإن وصل إلى هذا الحد كان له الحق فى أن يشترى المريد ، ويتصرف فيه تصرف السيد فى القن ، وعلى المريد أن يبيع نفسه إليه بيعاً ، وإن يسلم قلبه إليه تسليما ، وأن يتخلص من حوله وقوته وإرادته ، إلى حول الشيخ وقوته وإرادته ، فإن الله ما كمله بهذا الكمال ، وجمع له هذه الصفات ، إلا وهو يعلم جل علمه ، أنه خير من جلس على أريكة العلماء ، وأفضل من حمل وظيفة الأنبياء .

ولا إخالك إلا قرأت قصة سيدى عبد السلام بن بشيش رضى الله عنه مع تلميذه أبى الحسن الشاذلى لما جاءه الأخير معاقداً ، وكان بينهما حوار لطيف . فقد كلف سيدى ابن بشيش تلميذه هذا بأن يتطهر قبل أن يعاهده ، فذهب إلى ماء أراقه على جسمه ثم رجع إليه ، فقال له ثانياً ارجع فتطهر ، فظن التلميذ أنه يقصد شدة العناية

بالتطهير فأمعن فيه ، فلما رجع لم يكن نصيبه من الثانية بأسعد من نصيبه من الأولى ، إذ أمره الشيخ للمرة الثالثة بأن يتطهر فذهب وتحرى أصول التطهير والطهور جميعاً ، ولما رجع إليه وغض منه قال ياسيدى ماتركت شيئاً إلا وطهرته ، فقال لم أقصد تطهير جسمك ، وإنما قصدت تطهير قلبك ، إنزع من قلبك علمك وعملك وأتنى .

هذه قصة الشيخين الكبيرين رضى الله عنهما لخصتها لتعرف أن تسليم المريد قلبه لشيخه أمر أولى لانزاع فيه ، لأن علمه وعمله لم يغنياه شيئاً ، وإلا لما احتاج إلى مرشد ، ولربما كان ضرر العلم إنه لم يوجهه فى طرائقه أستاذ أكثر من ضرر الجهل ، ولربما كان العمل خالياً من روح الفضيلة ، فلا يؤدى إلى غاية ، ولا يحمل على كمال ، وإن سماه صاحبه عملا ولو مخدوعاً فيه وراكناً على عمده المائلة ، ودعائمه المتداعية .

حاجة الناس إليه

شيخ الطريقة هو الوصلة بين الشخص وبين ربه ، وما اكتظ مسجد بالمصلين ، ولا عَجّ حجيج بدعاء ، إلا وشيخ الطريقة هو الدافع إلى هذا .

أرأيت إلى العسس كيف يتصيدون اللصوص وقطاع الطريق والمجرمين ، بين الأزقة والدروب ، وعلى المقاهى والحانات ، وفى مكامنهم وأجحارهم ، إن هؤلاء العسس هم مشايخ الطرق لافرق. بين الطائفتين ، إلا أن الأولين يجمعون هؤلاء المفسدين ليقفوهم

تحت قسوة القانون ، وأما مشايخ الطرق فيجمعون هؤلاء ليقفوهم بين يدى الله ؟

إن عمل شيخ الطريق لا يكون فى المساجد ، ولا يكون فى قاعات الوعظ والإرشاد ، إنما عمله فى شوارع المدن وعلى فرضة القرى والدساكر والعزب ، يجمع هؤلاء المنحرفين عن الطاعة ، الضالين على وجوههم ، المؤذين خلق الله ، فيعاقدونهم على الطاعة والاستقامه والخير والمعروف ، ولو أنك تشبثت بشقى لتدخله المسجد فربما لم تجد منه كبير مقاومة ، ولم المقاومة ، إن هى إلا ركعات ينطح بها الأرض ثم يخرج إلى مكامن سطوته ، ووكر جريمته ، لم تحوله ركعات ركعها عن أن ينغمس فيما هو فيه انغماساً ، أما لو تشبثت به ليأخذ عهداً أمام الله على يد شيخ الطريق لقاومك مقاومة ، وخاشنك مخاشنة ، بل وقاتلك إن لم تنج بنفسك من وجهه وتخل له طريقاً ، ومقاومته هذه لعقيدة أصيلة فى نفسه يحسها بوجدانه كله وشعوره كله وجوارحه جميعاً ، فهو يعلم علماً أكيداً لا يتسرب إليه وهن أن معاقدته مع شيخ الطريق غل لا يستطيع منه فكاكاً ولا عنه مزحلا ، لأنه عهد بينه وبين الله ألا يقارف ذنباً ، أو يعصى رباً ، وإنه لو نقض هذا العهد وقع فى الكوارث ، وغمت عليه آفاق النجاة وأصيب فى بدنه أو ولده ، أو فى أى شىء عزيز عليه ، وأن هذا « العهد » يحسم الموقف بين حالتين : حالة ولت وانتهت بشرورها وآثامها ، وحالة جاءت بخيرها وهديها ، والتحول عن المألوف

دفعة واحدة، فيه غضاضة على النفس، وثقل على الطبع، فهو لا يرضخ له إلا بشق النفس وسلطان قاهر. فإن علمت أن أمثال هؤلاء هم المصادون من أكدار الرذائل — بشباك الشيخ، والمقيدون إليه بحباله، عرفت أقدار مشايخ الطرق وخطرهم، وما يقدمونه للأفراد والجماعات والشعوب من خدمات.

أما الأفراد: فإن الشيخ لايزال يجذب الجانف، ويمهد للعازف حتى يحتضنه، فإن احتضنه لم يستطع منه فكاكا.

وأما الجماعات: فهم الواحد الدائر، والفرد المكرر، فإذا صلحت أفرادها صلح سائرها.

وأما الأمة: فهي مجموعة هذه الجماعات، استقامت فقامت بما يتطلبه الوطن وتدعو إليه الحكومات.

حاجة الأمة إليه

لذلك فالأمة في حاجة إلى مثل هذا الشيخ الذي له سلطان من روحه، وهدى من قلبه، ونور من بصيرته، يستطيع أن يطب بها القلوب فيشفيها، والعقول فيهديها، والهوى المردى فيدفعه، والمعوج من الخلُق فيقومه، ولا تستطيع الأفراد أن تفهم إلا لغته ولا تتثقف إلا بثقافته، ولا تدين إلا لسلطان روحه.

ومن الغريب في طبائع البشر، أن الفرد قد يأتي الرذيلة، ويحاول جاهداً أن يخفيها عن أعين الناس، وهو عالم أن الله قد

اطلع عليه ، فيطمع فى حلم الله ومغفرته ، ولكنه يخاف ألسنة الناس وغمزات عيونهم ، فيعمل جاهداً على التستر والاحتياط ، وربما تعرض له أحد الناس فعابه ببعض ما اشتهر به من نقيصة ، أو ما أشيع عليه من شائعة ، فيدفعها عن نفسه بلسانه ويده ، ويستعدى القانون عليه ، وتستعر بينهما خصومة حادة ربما استمرت إلى آخر الحياة ، وربما تولد عنها مضاعفات تسيل من ورائها دماء .

والعقيدة السائدة بين الناس ، أن مشايخ الطرق قوم ملهمون تكشفت عن بصيرتهم أستار الغيوب فهم يرون بنور الله ، ويقفون على مافى القلوب من خواطر ونزعات ، فإذا أقبل عليهم مقبل ، أو اتصل بهم مريد ، لا يستطيع أن يرائى الشيخ ، أو يظهر له غير ما يبطنه ، فإذا همّ بمعصية كتلك التى كان يقترفها فى غفلة من أعين الناس ، ويتستر عليها تستر المرأة على عورتها ، لا يستطيع أن يقربها ، أو يفكر فيها ، لأنه يدرك أن شيخه مطلع عليه ، فإن كان الله يستر على عباده رحمة منه ، أو استدراجاً ، فالله صاحب التصريف ، والناس عبيده يقلبهم كيف شاء ، ويصرفهم عما يشاء . أما الشيخ فليس إلهاً له حق المغفرة لعباد الله ، وإنما هو عبد من العبيد ، أقامه الله فى هذا المقام ليدفع عن حرماته ، ويذود عن حدوده ، فهو لا بد آخذ بحق الله من هذا المريد الذى آخاه فى الله وتعاقد معه على اتباع ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى الله عنه . هنا يعرف المريد أنه مجبر على الاستقامة إن لم يكن حياء من الله

لحياء من الشيخ ، وإن لم يكن خوفاً من الله لخوفاً من الشيخ .

وقد قلنا إن مبايعة التلميذ الشيخ ، معناها تسليم نفسه إليه ، وما دام الشيخ مكتملا تلك الشروط التى ذكرناها ، والتى تؤهله للإمامة والصدارة ، فلا يجوز إذاً للمريد أن يتصرف فى نفس ملكها غيره ، فيكون تصرفاً فى غير ملكه ، فمفارقة الذنب جريمة إن وقعت من المريد ، ومصيبة تقع على رأسه ، والشيخ لا يفوتها له لأنه فى مقام تعليم وتهذيب ، والتلميذ إذا أخل بواجبه ، ولم يؤاخذه المربى بهذا الإخلال تعوده ، ومرن عليه ، وقل أن تستقيم له حال ، أو يرافقه نجاح .

ومن رحمة الله بعباده ، أن يكرم بعض المرشدين الأولياء بخوارق ، وإن كانت لا تفيدهم هم شخصياً بشىء فعائدتها فى الحقيقة تعود على الناس . فإن كرامة الولى معناها شهادة له بأنه حسن الصلة بالله ، طيب المنزلة عنده ، ولذلك حباه بتلك الشهادة الفذة ، فإذا ما تعارف الناس عليه ، وتعالموا بأمره ، حجوا إليه منتسبين وآووا إليه راضين .

وظيفة شيخ الطريق

ومشايخ الطرق من أكرمهم الله بالرفعة ، وسندهم بالعون وميزهم بجمال القرب ، فوجودهم بين الناس رحمة من الله وفضل ، وهدًى وهدًى .

وما أرسل الله رسولا إلا وأيده بالمعجزة الخارقة ، والكرامة الجامعة ، شهادة منه سبحانه وتعالى بصـــدق دعواه ، وتحدياً للمكابرين ، وانتصاراً للمرسلين .

والرسول صاحب دعوة عامة ، ورسالة جامعة ، والولى سائر على هديه ، قائم بخدمته ، مبلغ رسالته ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » وماذلك إلا لأن أنبياء بنى إسرائيل حملوا التوراة بعد موسى عليه السلام إلى الناس ونشروها بينهم ، ووقفوهم على أحكامها حلالها وحرامها . فإذا انتقل منهم نبي قام بالأمر بعده نبي آخر ، حتى أرسل الله المسيح عليه السلام ، فكمل هذا الناموس بإنجيل الله الكريم ، وعلماء أمة النبي صلى الله عليه وسلم ، هم فى وظيفة أنبياء بنى إسرائيل ، غير أن هؤلاء كانوا يبشرون بالتوراة ، وعلماء الإسلام يبشرون بالقرآن ولذلك قالوا : (الولى بين إخوانه كالنبي بين أقوامه) .

وكلمة عالم لا تنطبق على من تعلم العلوم وتبحر فيها ، وعرف ظاهرها وخافيها ، ونطق مع القائل :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً
عن حرف واحدة لكى أزدادها

إذا اتخذها زينة (ورتوشاً) ، ومطايا تقربه إلى الناس .. أما العمل بهذه العلوم ، والانتفاع بما فيها من نور وهدى فآخر ما يفكر

فيه ، بل ربما لا يفكر فيه إطلاقاً ، ولا يجتمع نظر إلى الناس ونظر إلى الله فى أفق واحد فأولئك هم «المعلّمون» بتشديد اللام وفتحها لا العلماء .

أما العلماء فهم العاملون بعلمهم الواقفون على حدوده ، النافعون الناس بهديه وبما فيه من أحكام ، هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

قيل للشيخ محمد عبده رحمه الله : إن فلاناً حفظ صحيح البخارى كله عن ظهر قلب ، فقال : ومافى هذا ، لقد زادت نسخة فى البلد . وحقاً ماقاله الشيخ محمد عبده ، فإن إنساناً يحفظ أحاديث البخارى ومسلم وسائر مافى الكتب الستة مضافاً إليها القرآن الكريم ، ولا يعى ماحفظ ، وإن وعى لا يعمل بما يعيه فليس فى شىء ، ولا يهمك من الرجل أن تلقاه فتسأله فيجيبك من فوره بإجابة صحيحة وإنما الذى يهمك منه تأثره بما علم ، وظهور نوره عليه ، والعلم أخلاق قبل كل شىء ، فمن ذهب خلقه نقص دينه ، ومن نقص دينه فلا فائدة بعلمه .

إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة والناس تلعنه فى البر والبحر

ولا أريد من قولى هذا أن أقصر وظيفة الإرشاد على مشايخ الطرق وحدهم ، فهناك كثير من علماء عاملين ، ووعاظ راشدين ، انخرطوا بين الناس ، فأفادوا الناس بعلمهم وهديهم ، بل بالعكس

فكل من كان فى نفسه أهلية لهذا العمل ، وتوافرت فيها الشروط التى تتوافر فى الشيخ الكامل وتقاعس عن الإرشاد والتهذيب ، فإنه يكون مسئولا عن ضياع ما حمل من أمانة بين يدى الله .

يقول الله تعالى فى آيتين كريمتين ، أولاهما : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ، وثانيهما : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

من ذلك شدد الله سبحانه على أرباب الهداية ، وعلماء الدين ، والقادرين على نفع الناس فى عاجلهم وآجلهم بألا يبخلوا على الناس بما فقههم الله من الدين ، ورزقهم من المعرفة ، وكيف يكون ذلك والرسول يقول : « لئن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من الدنيا وما فيها » ؟ ولقد بعث صلى الله عليه وسلم بكثرة جليلة من فقهاء الصحابة إلى أطراف الجزيرة العربية كاليمن ، ونجد ، وشواطئ الخليج ، ليرشدوا الناس ، ويثقفوهم ، ويعلموهم أصول الدين وقواعد الخلق الكريم . ولقد كان شيخنا رضوان الله عليه فيما مضى كله المجلى فى مضماره ، المحلق فى آفاقه ، السابق إلى غاياته ، والفارس الذى لايشق له غبار ، فاقرأ إن شئت ما فصلته عنه فى أبواب الكتاب ، وأعدك بأنك ستخرج من هذه القراءة حاسر الرأس إعجاباً بهذا القطب الفريد والشيخ الرشيد .

رسوخ قدمه

إذا تأملت ما قصصت عليك مما يجب أن يتحقق فى شيخ الطريق من شروط ، ومايبنى على تلك الشروط من أهمية للأمة والناس ، لرأيت أن شيخ الطريق عمادة قوية فى بناء الدنيا والدين ، وسند مكين لصلاح حياة الناس فى عاجلهم وآجلهم .

وشيخنا السيد سلامة حسن الراضى رضى الله عنه ، فى هذا الميدان السابق المجلى ، والنجم الهادى ، والعلم الدال ، فكل نواحيه غنية مشبعة . فإذا أردت أن تشيد منها قصوراً لوجدتَ الآجرَ والجص ، لترفع بهما مدينة كاملة .

أما أنه تقى يخشى الله ، فخذ هذه الصفة من كلامه رضى الله عنه فى بدء جهاده ، وكيف أنه لم تأخذه سنة فى ليلة قام فيها إلا فى ضجعة عند منبلج الصباح ، ولم يطوه نهار إلا وهو طاو على معدة جوفاء ، وكيف يشبع من يصوم من السنة ثلاثمائة يوم ، وإنه ليحمل فوق هذا الجهاد المر أثقالا من الأمراض تنزف دمه نزفاً ، حتى أصبح وكأنه انتفض من قبر كما يقول رضى الله عنه ، ومع ذلك فقد طالت به المدة ، وكلما حاول الرهط من أهله إرجاعه إلى الهوينى اندفع بكليته فى هذا الطريق الغليظ .

وإنه ليكفى الإنسان لأن يكون تقياً أن يبتعد عن الآثام ، ولكنه كيف يستطيع أن يقهر نفسه ، ويغلب شهوته ، إلا إذا

استشعر قلبه الخوف ، ولا يملك هذا إلا بالمداومة على طاعة شاقة ووقوف طويل على سدّة مولاه ، ولقد جاهد شيخنا رضى الله عنه جهاداً استثقله عليه حتى والداه ، مع أنهما فى التقوى والصلاح على عرق ودين .

وأما أنه ذو خلق فهذا طبعه وجبلته ، كأنه خلق من عناصر الفضائل والكمال . ويكفى تدليلا على هذا تلك الأمواج المتلاطمة من تلاميذه ومريديه ، يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، فهذه الكثرة الكثيرة ممن التفوا حوله ، ومشوا فى ركبه أكبر شهادة على ما كان يتمتع به من خلق كريم ، وفضل عميم .

وأما أنه بعلوم الحقيقة والشريعة أبصر ، وبهما أخبر ، فهذا لا ينكره عليه قريب سمع منه ، أو بعيد قرأ له ، فهو البحر العميق ، والقاموس المحيط .

لقد يكفى الإنسان من حياته التعليمية كلها أن يلم بمعارف مذهب واحد يتعبد عليه ، أو يرشد به ، ولو أنعم النظر فى دقائقه ، وأحاط بها لكان ذلك منتهى أمله ، وربح نصبه ، فكيف وشيخنا رضى الله عنه ما كان يند عن ذاكرته شاردة من مذاهب متعددة ، مذاهب درست وضاعت فى طيات السنين ، يظهر أصولها ويستوعب أحكامها كأنه أخذها من فم واضعها مشافهة ومجابهة ، فلقد يعالج

حكماً من أحكام الشريعة على مذهب ما ، فيدعوه هذا إلى أن يأتى بآراء أصحاب الآراء من الرعيل الأول إلى المذاهب الأربعة السائدة مبيناً الأصول التى بنوا عليها هذه الآراء .

فإذا كان علم التوحيد : كان البحر فى عبابه ، والشهد فى مذاقه . والروض يعطى النظر ألواناً ، والعطر أنفاساً ، وكم من معضلة جثى أمامها الفحول ، وانحنى عنها المتضلعون ، فصلها تفصيلا ، ورتبها ترتيباً ، ورفعها إلى العقل فى وشى مصقول ، وقول معقول . وإنك لو أسعدك الطالع ، وواتاك الجد ، فحضرت عليه وسمعت منه ، لوثب إلى ذهنك قول الرسول الكريم صـــلى الله عليه وسلم : « إن فى أمتى ملهمين » .

تلك هى علوم الشيخ التى كانت مادة درسه ، ودراسة مدرسته . ودفتر إعداده . وطأها توطيناً ، ووصفاها تصفية ، وسقاها تلاميذه رَوْحاً ورُوحاً ، وشراباً يشفى ، وأنار بها بصائرهم ، فكانت الهاديات من الغاشيات ، والمنقذات من المرديات ، والإقالة من الكبوة ، والنهوض من العثرة . وهل أهدى من علم يسرى إلى الروح فيصفيها ، وإلى القلوب فيجلوها ، وإلى العقول فيحميها من شطط الإسراف ، وملتويات الانحراف ، وإلى الشعور فيوقظ فيه وعياً كريماً ، ونظراً سليماً ورأياً سديداً .

ما كان العلم عند شيخنا كلاماً يقال ، ولا حكماً تحفظ ، ولا قواعد

وأصولا ، وإنما كان العلم دواء لمريض ، وطريقاً لمريد ، وتوجيهاً لخلاص ، وبذلك انتفع بعلمه العلماء ، وارتوى بغيثه الصوادى ، ونجا بهديه الواصلون .

وأما زهده فى زخارف الدنيا ، فقد كان رضى الله عنه المثل الكامل فى هذا الباب ، يضربه لتلاميذه ، فى مأكله ، وملبسه ، وطريقة معيشته .

أما فى مأكله : فقد كان يكتفى باليسير من المطعوم ، والموجود من المأكول ، والحاضر مما فى البيت ، لا يقترح شيئاً ، ولا يميل إلى كظة ، ولا يسرف فيما يقدم إليه ، فربما أغنته الوجبة الواحدة فى يومه وليلته ، وربما كفته كسرة مأدومة بالشائع بين طبقات الفلاحين ، أو المألوف بين العمال الفقراء ، علماً بأنه رضى الله عنه كان مستور الحالة ، وفوق متوسطى الدخل .

والحكمة فى هذا ألا يضار فقير بفقره ، ولا يتسخط محدود على حظه ، ولا يشعر محروم بغضاضة دخله ، أو تفاهة دنياه ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، أنه يعمد إلى ذلك ليعرف الناس أن الدنيا ليست فى أكلة طيبة ، أو بزة حسنة أو قصر منيف ، ولكن الدنيا وجدت لشىء آخر ، هو كسب يوصله إلى نعيم الآخرة ، ورزق يؤدى به إلى رضوان الله ، وليس ثمة فارق بين اللقمة

الثقيلة واللقمة الخفيفة إلا بمقدار ماتلاك بين الماضغين ، فإن تسربتا فى مجارى الأمعاء تساوتا كماً وكيفاً ، بل ربما كان فى الخفيفة الغناء ، وفى الثقيلة العناء ، بما تحمله من رواسب ترهق الغدد ، وتعيي إفرازات البطن والأمعاء . وعلى ذلك فما سمعنا بفقير يشكو البطنة ، ويعالج الكظة ، ويتردد بأمعائه وأوجاعه على الأطباء . بقدر ما نرى ذلك متوافراً فى أصحاب الموائد العامرة ، والأطباق الحافلة بحلو الطعام وشهى الشراب .

والحكيم من اقتصد ، والخبير من تخفف ، فأطول الناس أعماراً أقلهم أمراضا ، وأخفهم أمعاء .

أما ملبسه رضى الله عنه : فقدكان بعيداً عن الزاهى المتطرف ، أوالوشى المزخرف ، فهو قباء من قطن عليه جبة من الصوف من نسيج قاصد ، وغزل مناسب ، لايتلف مالا ، ولا يأخذ عباً ، وماله ونمنمة الثياب ورقشها ؛ فكل مادفع من برد ، أو أظل من حر يكفيه . فإذا جدد ثياباً خلع ما عليه على فقير أو محروم ، وقدكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الثوب الواحد أو الثوبين ، فإن قصده سائل نزل عن أحدهما .

والتفانى فى الرياش يدعو المرء إلى النظر إلى نفسه ، وشدة التحرز عما قد يحمله الهواء من غبار . فربما كان فى طريقه والصلاة قائمة فى مسجد ، فلا يلوى عليها مخافة مما يصيب ثيابه من بلل .

الوضوء ، وتكسرها فى الركوع والسجود ، فيؤخر فريضة عن وقتها إن كان فى عمل حتى يرجع إلى بيته ، فيريح ملابسه الغالية على مشجب ، ثم يأخذ فى العمل للفريضة المفوتة والحاضرة جميعاً ، هذا أمر يسلم به كل من لبس جديداً قيما ، أو غالياً مترفاً ، وكل دنيا تفوت ديناً فهى ملعونة ، وكل نعمة تشغل الوعى فهى نقمة .

وأما طريقة معيشته رضى الله عنه ، فكانت يسيرة سهـــلة ، لاتركيب فيها ولا تعقيد ، فرتبه الشهرى من عمله منقسم إلى جزئين ، جزء لصالح أسرته وجزء مرصود لمصالح إخوان الطريق المغتربين الذين يختلفون إلى بيته .

وهل كان يستطيع أن يفعل غير ذلك : إخوان من أطراف بعيدة وفدوا عليه فاتخذوا داره سكناً مدة إقامتهم ، فوجب أن يطعموا إذا آووا إلى مخادعهم ، ووجب أن يطعموا إذا تيقظوا من منامهم ، والوافدون متلاحقون ، لا ينقطع لهم مدد طوال السنة . والشيخ فى كرم البحر ، وهمة الدهر ، فما الذى يعوقه عن إكرام الضيف ، وسد عوز النزيل .

هذه هى نزعة الشيخ رضى الله عنه فى مصاحبة دنياه ، بساطة ، وسهولة ، لا تعمل فيها ولا إعداد ؟

وما هى الدنيا التى تلفت وعى أصحاب الهمم ، وتشغل بال أصحاب المقامات ، إنها كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ».

أما طريقته فى التربية ، وهيبته فى النفوس ومكانته فى القلوب ، فقد أفردت لها أبواباً خاصة فى الكتاب فارجع إليها .

وبقى أن نعرف مكانة الشيخ رضى الله عنه بين الناس ، ومدى تأثرهم بأخلاقه وسجاياه .

كان شيخنا رضى الله عنه ، العَلم الأشم ، والمنارة الهادية ، والمفزع الأمين ، فما يحل محلة ، أو ينزل مكاناً فى قرية أو مدينة ، حتى يأخذ آفاقها طوائف كأرجال الجراد يقفو بعضها إثر بعض ، حتى تميل القرية بالوافدين . وتضيق ساحاتها بالزائرين ، ويتقدم إليه الطالبون . فهذا شقى قد طال به المقام بين المعاصى والآثام ، وغربت عن وجهه شمس الهداية ، فهو يتخبط فى ديجور لا منفذ فيه من نور ، ويخبط فى ليل ساقطة نواحيه ضريرة سماؤه ، بين شعاب من الرذائل تخمد أنفاسه ، وتقطع نياط قلبه ، وهو ينتظر فجراً مشرقاً يكسح تلك الحجب المسفة ، والرزايا المتساقطة من سمائه ، والنابعة من أوحال أرضه . فإذا فجره هذا الذى ينتظره ينشقق من غرة « أبو حامد » شيخنا الكريم ، فيأخذه ملء الأحضان ، و يسكن فيه هائجاً وقده ، ويمسح عن عينه هتون الدموع ، ويعده بأن التوبة تمسح الحوبة ، وأن الله غفور رحيم ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ،

فإذا هذا المتربع فى أحضان الشيطان بات وأصبح فى حمى الرحمن ، إنساناً كريم الخلق ، صافى القلب ، حلو اللقاء .

وهذا قد تألبت عليه الحياة ، واصطلحت عليه الأنواء ، فلا يجد كلما أوغل فى منافذ الحياة إلا باباً مسدوداً ، أو هماً مصبوباً ، فإذا الشيخ رضى الله عنه يهون ما به ، ويبصره بما يجب أن يأخذ فيه ، فإذا هذا المرزأ فى حياته ، طيب النفس قرير العين ، ولم يترك الشيخ باباً من أبواب الإصلاح إلا سلكه ، فقد دخل بين المرء ونفسه ، فقوم مائله وهذب نافره ، وطهره من الأرجاس والأدران ، ودخل بين الأسر ، فبنى منها ماتصدع ، وأقام مانهدم ، وأصلح مابين الزوج وزوجه ، والأب وأبنائه ، والأخ وأخواته ، والجار ومن جاوره ، ودخل بين العشيرة ورئيس العشيرة ، فوفق بين القلوب ، وأزال مانشب من خلاف ، وضرب على أيديهم جميعاً عهد الوفاق ، ودخل بين الرجل ووجه كسبه ، فبصره بالرزق الحلال ، والربح الخالص. فقال للتاجر : لا تطفف كيلا ، ولا تبخس وزناً ، ولا تحتكر صنفاً يحتاج إليه المحتاج ، ولا تدلس فى سلعة ، ولا تخف عيباً فى مباع . وقال للزارع : صن أرض جارك ، وأعنه إن عجز ، واحمل عنه إن وهن ، واقتصد فى نفقاتك ، واجعل لنفسك مرجعاً من المال مدخراً. وقال للصانع : عليك بالأمانة فإنها أس النجاح ، وجودة الصنعة فإنها أس الفلاح ، والصدق فى القول والفعل ، فإن الصدق حلية الصانع وميزة العامل . وقال للعامل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، وقال للمدرس : أد الأمانة على وجهها وأقم لله وجهك ، واعلم أنك فى عمل المرسلين ، ووظيفة المرشدين ، فاتق الله فيمن أنت عليهم قوام ، وقال للطبيب كما قال للمهندس كما قال للموظف . حتى أخذت تعاليمه رضى الله عنه مكانها المشرق ، وموضعها المستقر فى قلوب الناس . لقد حارب شيطان النفس فغلبه ، وطاغوت الشرور فهزمها ، وحال بين المرء ونفسه الأمارة بالسوء .

كم من مصفد بأغلال الرذيلة قد حل وثاقه ، وسائر فى طريق الغواية أخذ عليه طريقه ، وراكب متن الشيطان خطفه من سرج الشيطان ويائس من رحمة الله أمنه من غضب الله ، وناكص على عقبيه ، وجهه إلى الصراط المستقيم .

ومن طريف مايذكر ، أن شيخنا رضى الله عنه كان محبوباً حتى من هؤلاء الشطار قاطعى الطريق ، فكان إذا نزل بقرية من قرى الوجه البحرى أو القبلى ، أضرب اللصوص عن عملهم ، وعطل المفسد أدوات مفاسده مادام الشيخ مقيما فى هذه الأرض .

وقد حدث أن كان الإخوان قاصدين زيارة حضرة الشيخ رضى الله عنه بإحدى القرى فتعرض لهم اللصوص ، وما إن عرفوا مقصدهم ، حتى هامت قلوبهم إلى الانضمام إليهم ، فأصبحوا إخواناً .

بالانكسار دول نالوها	لما نفوسهم باعوها
ونفسهم حلوة وطايبه	لما داووها وصفوها
سابوا نفوسهم وارتاحوا	وسلموها لمولاها
واللى تكون نفسه حامضة	يحجب ويفضل وياها

طريقة الشيخ المحبة

العمل فى نظر الشيخ رضى الله عنه ليس أنجب مطية توصل إلى الله ، فقد يكون العمل للظهور ، أو للشهرة أوالكسب ، ومهما كان خالصاً لله فإنه لا بد أن تدخل فيه النفس ، وإذا دخلت النفس فى عمل من الأعمال كان العمل حظ النفس ، ومتاع الحس ، فلا ينصرف منه شىء إلى المقصود المعبود ، لأن الله لا يحب إلا العمل الخالص له ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

لذلك كان السالك إلى الله بأداء الفرائض والنوافل فحسب ، سالك فى طريق محفوفة بالأخطار . لأن العمل إن لم يقوه دافع قلبى ، وحب كلى ، زاد ونقص ، وربما ضعف وتخففت منه الأعضاء وربما أصبح عادة ، ومتى صار إلى ذلك لا خير فيه ، ولا جدوى

وراءه ، لأن الفرائض المفروضة ماهى إلا مطايا توصل إلى الله ، فإذا فرغت من روحها ، وفترت عن حسها ، لم تنتقل بصاحبها خطوة إلى الأمام ، يقول الله تعالى : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» فإذا شاهدنا مصلياً مكث على صلاته أربعين سنة ، ولم تنهه عن فاحشة ، أو تبعده عن منكر ، علمنا أنه إلى الآن لم يصل ، وإن أدمى جبهته ، وأورم ركبته ، فالعبادات تهذيب وإصلاح ، لا أشكال وألوان . أما المحبة فمعناها استدامة المحبوب فى قلب المحب ، فهو مشغول به ، ساكن معه ، منقطع عن غيره ، لا ينظر إلا إليه ، ولا يرى فى العوالم كلها من يدانيه حسناً وجمالا ، وصفاء وماء ، حتى أنه يود لو ينزوى عن الخلق فلا يكلم أحداً ، لأنه لا فضلة له من وعى تحسن مخاطبة المخاطب ، أو تفهم عنه قليلا أو كثيراً ، ولو شاء أن يخلص إلى غير محبوبه لما استطاع ، لأن محبوبه جار فى دمه ، سار فى روحه ، اسمع إلى مجنون بنى عامر فى ليلاه حين يخاطب قلبه بهذين البيتين :

أليس وعدتنى ياقلب أنى ... إذا ماتبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى ... فمالك كلما ذكرت تذوب

والمحب الهائم يتجمل دائماً لمحبوبه ، ويحذر الحذر كله من أن يصيب عليه المحبوب نقصاً يكرهه فيه ، أو عيباً يلحظه عليه ، فيهجره ويقليه . لذلك تجد المحب دائماً مقيداً بهوى محبوبه نازلا تحت أمره ، ليناً لإشارته ، خاضعاً لقسوته ، راضياً بأحكامه ،

يستعذب المشاق و يستطعم العذاب إن كان فى هذا قرة عينه :

علىّ إذا ماجئت ليلى بأرضها زيارة بيت الله رجلان حافيا

إذن نحب الله على الطريقة التى رسمتها غاية الغايات ، وختام العبادات . ولا تظن أنى أحاول أن أفصل المحبة عن العبادات ، فأفضل الأولى وأترك الثانية ، كلا ، فالاثنتان متلازمتان . ولكن المحبة أساس العمل ، فان غربت شمسها أدركك العثار .

وها أناذا أسرد عليك من قول الشيخ رضى الله عنه ، مافيه الشفاء والغناء .

قال شيخنا رضى الله عنه : « علامة أهل المحبة الهيام ، وغيبتهم عن رؤية الأنام . ومن أحب ولم يسع فى رضا الأحباب ، فإنه مدع كذاب . ومن أحس بثقل المحبة ، لم يذق منها ولا حبة . ومن تأسف على غير الحبيب ، لم يكن له فى المحبة نصيب . ومن كان فى قلبه محل لغير المحبوب ، فهو بذلك الغيب محجوب . ومن وصل إلى حقيقة المحبة شاهد كل شىء بقلب كسى بالحب ، ويأبى أن ينظر إلا لجمال محبوبه . فلو شاهد غيره سلب مقامه ، وإذا تحققت بالمحبة زال كل حائل بينك وبين المحبوب ، فلا يرد على قلبك خاطر ، ولا هاجس ، ولا شك ولا وهم ، ولا فعل ولا ترك ، ولا شىء يخالف أمر محبوبك ، وكل خلاف يرفع الائتلاف ، ومتى وجد الحائل فالحب زائل ، ومتى وجد البين ، فهو حائل بين الاثنين ، واثنينيتك عين غيريتك ، وذلك يقوى بشريتك ، وتتكاثف به

أنيتك ، فلو توحدت فى المحبة ارتفعت الاثنينية ، وارتفاعها بمحو إرادتك بإرادته ، وقدرتك بقدرته ، وعلمك بعلمه ، حتى يكون الأمر كله له ، فلا تنازع ربك فيما هو له ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . وفى ذلك كله لاتخرج عن محض عبوديتك برجوعك إلى حقيقة إمكانك الثابت لها الفقر والاضطرار . والفاقة لمولاك ، فحقيقة محبتك لمولاك خروجك عن دعواك ، والله يتولى هداك .

هل سمعت جرس هذا الكلام ووعيته ، إنه لم يكن كلاماً يسمع بأذن ، ولم يكن سطوراً تقرأ بعين ، وإنما هو أنوار تشع فى القلب ، وحكم يهضمها العقل . وعبقة ربانية تسرى فى الروح ، وعلوم خضرية تأتى من ضياء الحقائق إلى عالم الظهور . هذا هو الحب كما يقرره الحبر الأكبر ، والأستاذ الأجل ، والعالم الواصل . حقاً « إن من أحس بثقل المحبة لم يذق منها ولا حبة » ، لأن المحبة ليست تكليفاً تسأمها النفوس ، ولا توجيهاً يثقل على القلوب ، وإنما هو شىء إذا خالط القلب كان قلباً ، وإذا مس الروح صار روحاً ، وإذا دار فى الدم كان تفاعلا . ووجداناً وهياما . هو ليس ثانياً منفصلا عنك تقربه وتبعده ، ولكنه وحدة قلبك وروحك ودمك ، تنطق به وتسمع ، وبه تغدو وتروح ، وإذا تحققت المحبة زال كل حائل بينك وبين المحبوب ، فلا يرد على قلبك خاطر ولا هاجس ، ولا شك ولا وهم ، ولا فعل ولا ترك ، ولا شىء يخالف أمر محبوبك » صدقت يا مربى الجيل وبحر الأسرار .

إن كنت سمعت هذا الكلام ووعيته . فاسمع آخر غيره فإن البحر لاينقطع له مدد ، ولا تخبو له لجج ، (إنى لما انتسبت إلى الطريقة الشاذلية) علمت أن مشرب أهلها المحبة ، إذ أنها بنيت على ذلك لا على المجاهدة الشاقة ، وتحمل أعباء التكلف والتصنع ، فتشبهت بأهل الحب ، من أهل هذه الطريقة العلية ، وكنت أهيم شوقاً إلى محبوبى ظناً منى بأن هذا هو الهيام الذى يشيرون إليه ، ويعولون عليه ، ولكنى لم أشعر إلا والمحبوب قد أمطر على قلبى وجسمى أنواع البلاء صباً ، فكاد قلبي أن يتقطع ، وجسمى أن يتمزق ، وكبدى أن يتفتت ، فوضعت خدى علــى ثرى أبواب محبوبى ، وأرسلت الدموع من عيون قرحتها الليالى فى هوى مليك الجمال ، وصرت أستعطف المحبوب بحلو الكلام ، وأظهر ذلى بين يديه ، وأنا خاضع لأمره صابر لحــكمه ، وفى كل ذلك تترادف على البلايا ، وأنا أعدها هدايا ، وأنها من المحبوب عطايا ، والمحبوب لايعــيرنى نظرة ، ولا يسعدنى بلحظه ، ولم أجد غير الصبر نافعاً فى محبته . فوطنت نفسى على الصبر الجميل ، عسى أن يعطف عــلىّ المحبوب ، ويقرب عبده إلى بابه ، فأكون لديه محسوباً ، وصرت لاأتلفت ولاأحن إلا إليه ولا أبكى إلا عليه ، وكل كلام يطرق سمعى أجده يدل على محبوبى ، فأهيم بكل ناطقة ، ولا أنتظر إفطارا ، لشرب الراح انتظارا ، وما سمعته مما يدل على الهيام فى المحبوب كلام موزون ، باطنه عين المحبة — والجنون

فنون — فإن كنت منا ، فافهم كما فهمنا ، وإن لم تكن معنا ، ولم تفهم المعنى ، فلا تلمنا ودعنا ، وما عليك إن تهتكنا ، فنحن إن تهتكنا على المحبوب لاملام ، وكل لوم على المحب حرام .

كلا والله لالوم ولاتثريب ، فاكرع منها راحاً شهيا ، وامتلىء منها ورداً روياً ، فقد خاطبتك ليلى فى مجالى حسنها ، فوجدتك المجلى فى سماء الجمال ، فخطبتك لنفسها ، وأودعتك سرها .

يافرحتى سمح الحبيب وزارنى
وبكأسه بين الأحبة خصنى
وصفا الوداد وطاب وقتى باللقا
والحب هنانى وفيه أعزنى
فسكرت من طربى بحلو مقاله
وبفضلة الكاس المروق رشنى
ناديته زد ياجميل من الصفا
فأمالنى بين الدنان وغطنى

محبته لله

شيخنا رضى الله عنه أكثر العارفين حباً لله ، وقد تكون نزعته تلك جبلة فطرية ، ولدت معه ، وتنشأت مع طور حياته ، حتى نمت وترعرعت فى قلبه الكريم ؟ ؟ ألم تعزف نفسه عن تلك العلوم التى كان يأخذ فيها لداته فى المدارس العامة ، ورأى أنها

لاتشبع رغبته ، ولا تتمشى مع ميوله ، فصدف عنها ، وراحت نفسه التواقة تبحث عن غذاء آخر يجد فيه حياته التي يهوى أن يعيش فيها قار العين هادىء الضمير . فلما وقع عليه ، وعرف مفتاح طلسمه ، فتح هذا الباب الذي أوصله إلى سعادة الدنيا والآخرة .

نذكر أنه التحق بهذه المدرسة الربانية الإلهية القدسية ، وتلقى فيها علوم الكشف والأسرار الرحمانية ، على يد أساتذة نصبوا أنفسهم للخدمة فى حضرة القدس ، ولتلقين معارفهم اللدنية كل من كان عنده استعداد لتحمل هذه الأمانة الغالية ، التى لا تحوم إلا فى آفاق رجالها ، ولا تلين صعدتها إلا لقلوب أربابها ؟

لقد شمر رضى الله عنه وهو فى سن الغلمان عن ساعده ، وكشف عن ساقه ، يعلم ويعمل ، ويغدو ويروح ، فى همة قوية وعزم وثاب . . .

لقد أضنى جسمه ، وأسهر عينيه ، وأطال ليلته ، وأزعج راحته ، فى صلاة وقيام وصوم ، ذاكراً ربه ، طالباً رفده . وناهيك بشاب يذكر الله فى كل ليلة اثنى عشر ألف مرة بصيغة « لا إله إلا الله » ، فإذا ارتفع النهار ارتفع على صائم طاو ، يترنح من عظيم الإعياء . وكأن الله أراد أن يبتلى هذا العزم المتوثب ، فساق إليه مرض البواسير ينزف من دمه ، ويهد من حوله ، ومع ذلك فهو الصابر المحتسب ، والسائر المحتمل ، حتى لقد همّ أبواه أن يأخذا

عليه سبيله ، ويقطعا عليه طريقه ، وهو ماض لايلوى على كلمة لعاذل ، أو شماتة لحاسد ، أو استماع إلى غير . حتى إذا طوى الأيام وقطع السنين فى تلك المشقة الشاقة ، والجهاد المرير ، ولم يصل إلى المرغوب المطلوب ، لم ييأس ولم يتبرم ، ولم تبخع نفسه لطول ماجهد ، بل عدل إلى طريق آخر بنفس الهمة التى ابتدأ بها الجهاد ؟

إنه من طلاب الحقيقة ، والحقائق غالية لاتنال من جولة أو جولتين ، بل لابد لها من عزمة تقد الحجر ، وتصهر الحديد ، وكيف يلين الغالى لقولة عابرة ، أو تدنو السماء لنظرة خاطفة ، بل هو الجد كل الجد . والتوفيق من عند الله .

هذه الروح العالية ، والهمة الماضية ، التى ابتليت بأهوال الجهاد وأثقال الأمراض ، ومن وراء كل هذا شماتة الحساد ، وتندر الأصحاب وقالة السوء . تنصب عليه من جميع أقطارها ، فتلفه لفاً وتنشره نشراً .

ولكن الله سبحانه أرحم وأكرم من أن يطرد عبداً قطع إليه الفيافى الناصبة ، والبوادى الشاسعة ، والطرق الشائكة ؛ حتى إذا طرق بابه رده بالحرمان .

لقد وصل شيخنا إلى ربه ، ونزل فى حضرته ، واستقر فى مكان أمنه . وما بعد هذا إلا الخلع القدسية ، والأوسمة النورانية ، والفيوضات العرشية ، ودرجات القرب بين حب ومحبوب

« لايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت بصره الذى يبصر به ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها » صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه سبحانه .

لقد طهر قلبه من شوائبه ، وتنزهت روحه من بوائقها ، وصفت نفسه من شواغلها ، فلم يقم بينه وبين محبوبه حائل ، ومن كان كذلك كان أهلا لأن يستقبل ورد ربه فى أنق مكان ، فكان قلبه بيت ربه ، وأكرم بعبد جاور مولاه .

إن شيخنا رضى الله عنه أحب الله لله ، لالخوف من نار ، أو طمع فى جنان . وكيف يكون غير الله هدفاً لقلبه ، وهو لو جمعت له جنات المخلدين بما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، وفاكهة ونخل ورمان ، ما ارتضى ذلك إذا لفتته عن محبوبه لحظة من نهار .

إن الله جل ثناؤه محبوب لذاته ، وهو جدير بأن يحب لذاته . فهو النور ، والجمال ، وغريب أن يستبدل بهذين كل ماخلقه لإنس وجان ، ومافطره من حسن وإحسان .

إن القلب الذى يعيش فى الحسن خالصاً . والجمال رائقاً ، والنور زاهياً ، لايستطيب أن يتدلى إلى غيره لنهمة بطن . أو تسريح نظر ، أو اجتلاء حسن ، فى جنات معروشات ،

إلا إذا سلبه القرب ، وشرف الزلفى .

لذلك كان حب شيخنا لله حباً خالصاً ، لايزاحمه مزاحم من أعراض الدنيا والآخرة . يظهر ذلك فى كلامه إذا تكلم ، وسبحاته إذا سبح ، وقومته إذا قام ، وهجوعه إذا هجع .

يكلمك ويفهم منك ويرد عليك ، وهو مشغول بحبه ، مشرق بقلبه ، غائص بلبه ، فى أنوار ربه . هذه مرتبة لم يستطع أن يعرفها مثلى ، ولا أن يكيفها ، ولا أن يتبينها — فإذا قلت بها فكمن عرف مكة على خريطة تقويم البلاد ، وربما أحسنت الوصف ، وأسلوب اللفظ ، ولكن ليس التكحل فى العينين كالكحل ، فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى مر بك آنفاً حاكياً عن ربه . إن الله إذا أحب عبداً ، كان عينه وسمعه ويده ورجله ، فإذا خطا العبد فبمولاه ، وإذا نظر أو سمع أو بطش فبمولاه ، ولا تصدر عنه صادرة ، أو تبدر منه بادرة ، أو ينبض له عرق ، أو يخطر له خاطر ، أو يهم بأمر إلا إذا كان الله هو الهادى الموجه إلى هذا كله ، فإذا تكلم تكلم بالله ، وإذا استعان استعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أظنك فهمت الآن منى فهماً يقربك إلى حقيقة ماعليه هؤلاء الأساطين من الرجال .

فالأولياء قد يمنحهم الله سراً ويكشف لهم حقائق ، ويمكنهم من

خوارق العادات — ففى الحديث الشريف : « عبدى أطعنى أجعلك ربانياً تقول للشىء كن فيكون » وعنه صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره الله فى قسمه » . ومع هذه الميزة الجليلة . والمنحة الكريمة ، فالولى ينزل منها منزلة العبد من الرب . فلا يلتفت إليها ، ولا يأخذ بها ، تاركاً الأمور تجرى على أذلالها .

إن سعادتهم فى الوصول إلى ربهم ، فهم فى حضرة قدسه ، لا يشغلهم عنه شاغل أو يصرفهم ميل ، وشيخنا رضى الله عنه فى القمة العالية ، والكوكب الرفيع ، لم يتوجه قلبه إلا لصلاح نفس ، أو تقويم معوج ، أو سلوك بمريد يبتغى وجه الله .

إن جوار المحبوب ، وسعادة اللقاء ، تدخل فى القلب الرحمة والعطف ، وتبسط اليد بالمعروف ، وتلين الجانب ، وتسعى بصاحبها فى طريق الخير . ولقد كان أستاذنا رضى الله عنه الرحيم قلبه ، الغامر نواله ، اللين جانبه ، الساعى فى طريق الخير .

وأى خير أكثر ، وأى معروف أجزل ، من أن يحشر الناس زمراً فى رياض الله ، أى حكيم أنفع ، ومرب أرجى ، ممن طهر القلوب العفنة ، والنفوس الأمارة ، والأرواح الشريرة ، وأودع كل هذه النور والبر والطاعة ، وما زال يتمهدها وينميها ويغذيها ، حتى نضج عودها ، وطاب ثمرها ، وأتت بحصاد وفير .

علامة المحب الصادق أن يستعذب المر ، ويصبر على نوازل الأيام ، ويتحمل الضيم ، ويسكن على الغصص ، فإن فعل كان ذلك مهر مخطوبه ، وقنطرة محبته ورضاه .

ويعلم الله مالاقاه شيخنا رضى الله عنه فى هذا السبيل ، . يمشى فى لفح الهجيرة ، وقر الشتاء ، على غليظ الأرض ، وأشواك الطرق ، ليهدى ضالا ، أو يرفع متردياً فى حمأة الشرور ، يجلس الجلسة الطويلة العريضة فى مكان واحد ، معلماً ومهذباً ومثقفاً ، لا يشكو ضرراً ، ولا تعباً ، ويهجر بيته ويترك صغاره وأطفاله شهوراً فى هجرة تضنى جسمه ، وتعرق عظمه ، وهو فى شيخوخة متقدمة تحب أن تركن إلى الراحة والإخلاد .

ولكن أنى له الراحة وقد نصب نفسه للناس ، وصدر شخصه للهداية ، حتى ولو أقعده المرض ، وثقلت عليه أحمال السنين .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به » . لقد سفك المسلمون دماءهم وباعوا أرواحهم ، وتركوا أولادهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولقد حط الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاعوا أصحابه ، وراء شعب لاحركة فيه ولا نأمة ، ولاظل ولا مأوى ، ولا يقيم الأود ، ويدفع جائحة الهلاك ، حتى أن الصحابى الكريم كان إذا ظفر بنواة فى شق بلحة

أكل الشق ، وتمصمص النواة من شدة السغب ، ولقد طوى النبي صلى الله عليه وسلم بطنه الشريف تحت حجر يسكن به لدغات الجوع ، وماتركوه حتى هموا بأن يقتلوه لولا عناية الله القوية .

لقد تأسى شيخنا رضى الله عنه بسيرة نبينا العطرة ، وسيرة أصحابه من بعده ، فلم لايكون له شرف الجهاد ، وجزاء الكفاح .

لقد جاهد فى الله ، وهاجر فى الله ، وأحب وأبغض لله . فقضى كريماً ، وأحرز عظيما عند الله :

هنيئاً لأهل الدير فى حضرة القدس
بشمس جلت أنوارها ظلمة الرمس
تجلت عن الأشـــباه وهى فريدة
وليست بشكل فى الفروع وفى الجنس
ولو لامســـت عظماً رميا بقطرة
لقـام بإذن الله حياً من اللمس
ولو فزت منهـا ياندیمی بقطرة
لهمت بهـا عن سائر الجن والإنس
هى خمرة الأفراح لـما شربتهـا
غلوت على الأفلاك والبدر والشمس
وغنيت أشعاراً على جنك عودها
وكأس الهوى يحلو وقد طاب لى عرسى

محبته لرسول الله

كان شيخنا رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً فطرياً مدفوعاً إليه بكليته، لا لأنه فرع شجرته وعبقة دوحته فحسب، بل لأنه نبض من حسه وظل من شمسه، ورشف من بحره. وقبسات محمدية، وصل بها إلى ذاته العلية، فلا يصل واصل إلا إلى حضرته المانعة، ولا يهتدى حائر إلا بأنواره اللامعة. وهل كان نبينا الأكرم إلا ذلك الكوكب الدرى، الذى يوقد من شجرة الله المباركة المستمدة من بحار الفيوضية، فمن أنواره قبس كل قلب، وارتوت كل روح، وسكنت كل نفس.

عرف شيخنا رضى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم معرفة كشفية حقيقية، لا معرفة رسم وشكل. عرف أن قلبه الكريم محيط السر الأقدس، والاسم الأعظم، فتقرب إليه تقرباً شهودياً. واتصل به اتصالا مكانياً، واغترف من كوثره العذب ما يحلو على اللسان، ويسرى فى الأبدان، فأشرقت فيه شمس الهداية، ونور الإيمان وعلم اليقين بل وعين اليقين.

عرف فيه أنه قبضة الله النورانية، التى أودع فيها كمال المعرفة وأسرار الوجود. فهام فى سمائه وتمثله فى مكانه تمثلا كشف له عن مكانته السنية، ودرجاته العلية، فأودعه نفسه

ووهب له حسه ، وأفرغ له كله . فنطق بالحكمة وتجلى بالأسرار ، وتكشفت له حواجز الغيبيات . وتقلصت عن بصيرته الحجب الغاشيات ، والأستار المانعات .

وقد اختصه بالقول الرشيد ، والمدح الفريد ، وعيون القصيد ، فلا نرى فى أوراده إلا مدائح يصيغها حب متمكن ، وقلب متيم ، وشوق دافق ، ولا تقرأ فى صيغ الصلاة عليه إلا نفسا والهة ، وعينا دامعة ، وعبارات مرطبة من روح تفيض .

لاتمر به فترة إلا ويعمرها بالصلاة عليه والتسليم على أكرم مخلوق ، وأعظم موجود ، فهو فى سواد عينه ، وحبة قلبه ، ومجرى دمه ، والنور الكاشف والحب الدافق ، والروح السارى ، يهتف به داعياً ، ويتمثله قاعداً وقائماً ، ويراه فى يقظته ومنامه . فى هالة نوره ، ودائرة مكانته ، وعظيم جماله وجلاله .

لاتمر مناسبة دينية ، أو ذكرى محمدية ، إلا ويكون السباق إلى إحيائها ، والداعى إلى الاحتفال بها ، فى فرحة تخطف على ثغره وتجرى فى محياه ، وسرور يكاد يطير به من منطقة الأرض إلى أجواز الفضاء . ولا بدع ، فالحب مدامة تسكر وتخلب ، وتقيم وتقعد ، ومن ذاق عرف وغرف . وانتشى برضابها المشبع . وأرجها الفياح .

كان شيخنا رضى الله عنه يرى أن حب رسول الله صلى الله

عليه وسلم جُنة يتقى بها عوارض المحن ، ونوازل الفتن ، فاتخذه حجاباً ودرعاً واقية .

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد فى آجامها تجم

رفع رايته ، ونشر رسالته ، ومشى فى أمته مشى الدواء فى المحموم . فكم أبرأ من وصب ، وأقال من عثرة ، ورفع ساقطاً ، وثبت متخبطاً على هديه المضىء .

ولم لايحبه بكل قلبه ويدين له بكل ماملكت يداه ، أليس هو الذى منحه الحظوة ، وأدناه من الله زلفى ، ورفعه بين العارفين مكانة .

افتداه الصحابه بأرواحهم ، وضحوا فى سبيله بدمائهم ، واستهدفوا من أجله كل خطر وبلاء . أليس أبو بكر رضى الله عنه قد صحبه فى هجرته وهو يعلم أنها المجازفة بعينها لو رآته عين أو وشى به نمام . ولقد رقد على كرم الله وجهه فى مضجعه وهو متيقن أن رصد قريش يبيتون لصاحب هذا المضجع ضربة قاتلة ؟

ولكنه الحب يدفع إلى الإيثار ، ومن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم تتفتح له القلوب ، وترخص فى سبيله الروح ؟

ولم لايكون شيخنا رضى الله عنه فى إيثار الصحابة وطليعة المحبين ؟ ورسول الله منه بمنزلة النور فى العين ، والروح فى الجسد . إنه يحبه حباً خالصاً جارفاً دائماً ، بميل اضطرارى لاحول.

له فيه ولا اختيار ، لأنه حب الإرادة ، وحب الجوارح ، وحب ماشئت من شعور وإحساس .

خالطت روحه روحه ، ولامس قلبه قلبه ، واتحد حسه بحسه ، فكانت أنوار النبي صلى الله عليه وسلم جارية فى كيانه كله ، فصار هو الحب ، وعجيب أن يحب الحب ؟؟ فلو أسعدتك الأيام وكنت من المحظوظين ، وصحبته فى حجته المبرورة ، لرأيت كيف يكون التقاء المحبين ، واجتماع العاشقين ؟ ورأيت كيف تنفعل الجوارح وتجرى العبرات ، وتطيب الأوقات ، عند ما يأنس الحبيب بحبيبه ويضم الفرع إلى أصوله ، ولرأيت المودة والقربى كيف تنفح الأحباب وتمنح الصادقين .

إقرأ للشيخ توسلاته بالرسول ، واستغاثاته به صلى الله عليه وسلم تعرف بأن هذا كلام لاينطق به لسان غافل عن معناه ، بل كلام يخرج من القلب نورا ، فيسطره القلم سطورا ، فإذا قرأت شممت أرج الرياض ، ونفح الطيب يهب من وارف كل كلمة ، ويسرى من لفائف كل معنى . إقرأه ، ثم تدبره ، ثم تمثله ، يتجسم أمام عينك روح الروح ، وعين اليقين .

كم من قصـــيدة وضع ، وزجل ابتدع ، ومواويل صاغها فى حب أكرم خليل وأعظم رسول . لقد وضع رضى الله عنه قصة للمولد النبوى تتلى فى المواسم . فتفعل فى قلوب إخوان الطريق

مالا تفعله الراح ، من وله وانشراح ، وهى أكثر السير دوراناً على ألسنة الإخوان لايخلو منها حفل من الحفول .

إن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوة الحزين ، وأنيس الخائف ، وزاد المسافر ، ونور البصر ، وطب القلوب .

ولذلك قال شيخنا رضى الله عنه واصفاً رسول الله صلى الله عليه وسلم متحدثاً عنه بهذا القول السديد :

« لا يأتى من هو أكمل ولا أرقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل الكل يعجز عن الوصول إلى كنه الكمال المتدرج فى سعة هذه الدائرة المحمدية إبهاماً وتفصيلا .

فإذا افتخر السائر على قدمه بظهور وصف الكمالات التى أفيضت على صفاء سره ، ومرآة قلبه من حضرة تفضيل دائرته الكمالية المحمدية التى لم يسبقها ، ولم يلحقها أحد ممن تقدم أو تأخر الفريدة فى كمالها ، فذلك المفتخر إنما يتكلم بلسان استغراقه ، وغيبته عن وقوفه مع مقامه وذهابه فى دائرة كمال أنوار هدى من هو سائر على قدمه فهو متكلم بلسان محمدى ومقام أحمدى » .

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة
فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

جزى الله شيخنا خير الجزاء ، ومتعه بحبيبه محمد فى دار البقاء

يامن به غرامى وحسنه سبانى
من خمره سقانى فزاد به هيامى

سكنت فى فؤادى وتهت فى هواك
وغبت فى بهاك وباسمكم أنادى

وجنتى رضاك إن جدت بالوداد
سلبتنى مرادى فاحكم على هواك

حكم الهوى جميل وصعبه يهون
يحلو لى الجنون وعنه لا أميل

تهتكى حلالى وحبه حياتى
فديته بذاتى بكأسه ملالى

أرواحنا فداه إن جاد بالوصال
أو زادنى الدلال فليس لى سواه

أهيم فى هواه من خمره مدامى
وحبه مرامى وبغيتى لقاه

محبوبى فى صفاه فى حبه نعيمى
فى حانه نديمى يطوينى فى سناه

محبته لآل البيت

شيخنا رضى الله عنه فرع من شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ينتهى نسبه الشريف بسيدنا الحسين بن على عليهما السلام ، فيعد من هذه الناحية نفحة نبوية هاشمية ، وسلالة أحمدية قرشية ، أرج طيبها الزمان والمكان ، وقشع نورها دامس الظلام . فلا غرو أن يهيم بآل البيت لأنهم أهله ، وأن يصلهم بقلبه لأنهم رحمه . فكثيراً مانظم فيهم طوال القصائد ، وعيون الفرائد ، وعلقها درراً على أضرحتهم ، وباقات على قبورهم ، تأخذها عين الرائى إذا أم ساحتهم فى أظهر مكان .

وقد قص علينا بعض من رافقوه فى حجته المبرورة أحوالا له رضى الله عنه ومقامات أجرت من عينيه العبرات ، وأرسلت من قلبه زفرات الأشواق ، وأفاضت على قلبه بديع الرسالات منها :

أتيت إلى حماكم فاقبلونى ومن أفضالكم لاتحرمونى
فيا أهل المكارم والعطايا نزيل يرتجيكم فانجدونى
وكم ناديتكم يا آل ودى فمن إحسانكم لاتتركونى
وظنى فى شمائلكم جميل فيا أهل الوفا لاتهملونى
وفيكم قد هجرت الخلق طراً عسى أحباب قلبي يوصلونى
وجسمى فى هوى الأحباب مضنى
فمن حى الصفا لاتبعدونى
على باب الحمى عفرت خدى فهل أحباب قلبي ينظرونى



خليفته سيدي إبراهيم سلامه الراضي
رضي الله عنه

ومع هذه القرابة القريبة ، ودنو الوشيجة من الدوحة النبوية الكريمة ، التى ترفعه جناباً وتعليه مقاماً ، فقد كان رضى الله عنه أكثر المجاهدين جهاداً ، وأعظمهم جلاداً ، وأصبرهم على المتاعب ، ما آثر راحة ، ولا نزح إلى استراحة وكيف يريح نفسه من وقف نفسه على هداية الناس ؟ ؟

ولو كان حبه رضى الله عنه لآل البيت حب قرابة ودم لكفاه شرفاً وفخراً ، ولكن كان حبه لهم نابعاً من قلب غمره نورهم ، ونفحة فيضهم ، فارتفع مقاماً فوق مقام ، ودرجات فوق درجات .

إن الشيخ رضوان الله عليه كان يحب آل البيت حباً يظهر على لسانه إذا تكلم ، وفى شعره إذا نظم ، وفى كتابته إذا كتب ، وما كان حبه قاصراً على آل البيت من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ، بل كان يشمل قريشاً جميعاً ، ولم لا يشملهم ؟ أليسوا شجرة الرسول الأكرم ، وأعمامه وأبناء أعمامه ، فكان لا يتناولهم رضى الله عنه إلا بالطيب من القول ، . ومما يدل على ذلك أنه وقعت مناقشة بينى وبين الأخ الكريم الشيخ حامد بدوى نقيب النقباء ، تناولنا فيها يوم سقيفة بنى ساعدة ، وتناولنا أيضاً موقف على كرم الله وجهه ، فى هذا الصراع الذى كان بين المهاجرين والأنصار ، والذى نتج عنه استقرار الخلافة فى قريش ، وكنا معاً على طرفى نقيض ، فأخذ الشيخ رضى الله عنه موضوع المناقشة

من وجهة نظر الطرفين . وخرج منه بأن كلا الجانبين على حق ، وأن كليهما كانا يقصدان مصالح المسلمين ، ثم قال : (يجب أن تنظروا إلى مثل هذه المشكلات من جانبها المضيء) ، وحقاً ماقاله رضى الله عنه . وعلى ذلك كان يحبهم جميعاً ويسرد عن أبطالهم سيرة حميدة يجعلها فى بعض الأحيان موضوع درسه ، كتضحية حمزة رضى الله عنه يوم أحد . وشجاعته فى انتصاره للنبى صلى الله عليه وسلم حين تحزب عليه القرشيون فى مكة ، كما كان يحفظ لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه سابقته وملازمته النبي طول حياته ، ويثنى الثناء المستطاب على الأنصار الذى آووا ونصروا ، وكانوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الدرع الواقية ، والحصن الحصين حتى انفجر نور الإسلام تحت سيوفهم ، ورفعت أعلام الدين على مثار نقع خيولهم ، وأعز الله بهم الإسلام عزاً كبيراً .

وكان إذا لج بعض الإخوان فى سيرة معاوية ، واغتصاب حق الهاشميين فى الخــــلافة ، لفت نظره رضى الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية رضى الله عنه يلتقيان نسباً عند عبدمناف ، الجد الثالث لهما ، فضلا عن أن معاوية له سابقته فى الإسلام وهو كاتب وحى القرآن . أى أنه رضى الله عنه كان يحب كل من التف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسباً أو صهراً أو تبنياً ، جمعنا الله بهم فى درجات صدق عند مليك مقتدر .

أحن إليكم سادتى وأودكم
وأنقش فى قلبى بديع جمالكم
فإن جدتمو بالوصل من فيض فضلكم
وإن غاب معناكم تذكرت طيفكم
ومن لم يجد ماء تيمم بالترب
فيا قرة الأعيان بالله فانظروا
لعبد ضناه الحب والشوق أكبر
ويامن بفرط الحب فى القلب صوروا
لكم مهجتى فاقضوا بما أنتم ترووا
فإن شئتم قتلى وإن شئتم سلبى

• • •

ومن صيغه رضى الله عنه فى الشوق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا حبيبى يارسول الله ، ياساكن قلبى يارسول الله ، يا أجمل الخلق يارسول الله ، ياساكن طيبة يارسول الله ، ياساكن الروضة يارسول الله ، أنا هائم فى جمالك ، أنا حيران فى كمالك ، نورك باهر وسرك ظاهر ، وأنا أمامك ، وقلبى يحبك ، وقصدى أراك ، وأحظى بقربك ، أنا غارق فى نورك ، وشدة ظهورك ، ولكن بعادى ، وكثرة عنادى ، وظلمة فؤادى ، غطت على ، عليك الصلاة

وأزكى السلام ، رؤياك سعادة ، وذكرك عبادة ، نظرة إلى، أشهد جمالك،جمالك فى قلبي ، وحبك فى سرى ، وتخطر على ، فى كل ساعة

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشاً بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
ياقلب أنت وعدتنى فى حبهم
صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به
صباً فحقك أن تموت وتقبرا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها
فغدوت معروفاً وكنت منكرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه
تلقى جميع الحسن فيه مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صورة
ورآه كان مهللا ومكبرا

محبته لأولاده

١

الحب لايتلون ، والقلب إذا صفا ورق ونبتت فيه بذور المحبة واشتجرت أغصانها ، والتفت فروعها لم يكن فى القلب ظل إلا ظلها ، فكل من استظل بها فهو محبوب .

والشيخ رضى الله عنه فى قلبه الكبير سعة يجدفيها الصادى ريه ، والصائف مقيله ، تفيض على كل من آوى إليها حناناً وتغمره ألواناً ومن ذلك كان حبه لأولاده ، ومن الذى لايحب أولاده ، أليسوا هم بضعة قلبه ، وجزء نفسه ، وفضلة دمه ، كل الناس يحبون أبناءهم وبناتهم ، ولكن حبهم هذا يختلف عن حب شيخنا لأولاده ، فهم يحبونهم على أنهم ظلالهم ووارثوا اسمهم ، ورحمهم الماسة ، ولأن دواعى القلب لاتهتف إلا بالميل والحنان عليهم ، وليس غير هذا ، ولكن شيخنا رضى الله عنه يزيد على ذلك حباً من جنس جديد فأبناؤه فى البيت أبناء ، وفى المجلس إخوان ، وفى الطريق مريدون ، نهلوا منه مع حنان الأبوة كئوس المعرفة ، وتأدبوا بأدب الأبناء والتلاميذ جميعاً ، لم تطمعهم دالة البنوة فيترخص أحد منهم فيما أخذه به أبوه كأستاذ ، ولم يطغهم قرب المكان فينزلوا عن شىء من شعائر المهابة لأبيهم كشيخ ، ولم تلههم وشيجة الرحم عن أن يتوادوا مع تلاميذ الشيخ كتلاميذ ، ولم يدفعهم عظم المكانة من أبيهم فيتأففوا عن قضاء مصالح الإخوان ، فكانوا أبناء وكانوا

إخواناً ، وكانوا مريدين فى آن واحد أمام أب وأستاذ وشيخ ، لهذا كله أحبهم والدهم حباً دفعه إلى وضعهم بين موق عينه ، ولفائف قلبه ، وشغاف نفسه . ولو أنك قرأت تلك الرسائل الغراوات التى ابتعث بها شيخنا رضى الله عنه إلى ابنه السيد إبراهيم حين سافر ليقطع وقتاً فى بلاد مديرية المنوفية ، لوجدت فيها كيف يكون الحب فى عليائه ، والحنان فى سمائه ، والقلب فى دعائه ، يطول له فى الرسالة تطويلا غير معهود لحكمة دفعه إليها حدة الشوق وعظيم الوجد ، ليحمله على قراءتها فى نفس طويل يعيش فيه معه أكبر وقت ممكن وليتمتع به فى لذة من الحوار والتخاطب كأنه بين يديه وإن كان فى مكان سحيق ، هذا إذا كانت الرسالة فى مستوى فهمه ، ولكن والده رضى الله عنه يقسو عليه فى رسالة أخرى ، فيلغز له ويبهم بفلسفة تهد رأس الحكيم ، وحكمتها نفس حكمة الأولى ، إلا أن الأولى لسهولتها وإن طالت تنتهى بانتهاء قراءتها . أما الثانية فتأخذ منه فى معالجة طلسماتها وفك معمياتها ، وكشف غموضها أياماً تتجاوب فيها أرواحهما ، وتتجاذب فيها مشاعرهما ، كلما أوغل فيها بحثاً وقلب عباراتها تقليباً .

لقد كان الشيخ رضوان الله عليه ، يحب أولاده جميعاً بنين وبنات ، ويؤثرهم بحنانه ، ويبرهم بعطفه ، يسأل عن غائبهم ، ويلاطف حاضرهم ، ويتقرى حالة أولادهم ، ويحل مشاكل من قامت فى وجهه عقبات ، ولكن يلاحظ أنه دائماً كان يختص

صاحب الرسالات بعناية أكبر ، ورعاية أكثر ، فما هو السر يا ترى ؟ أليس قد ألهم بأن هذا هو المرجى بعده ، والقائم على تراثه الروحى ، وخليفته المؤمل . ولم لا يكون كذلك ، وقلوب الأولياء متصلة بربها فلا ينطقون عن هوى .

والحق أننا كنا نلاحظ هذه الظاهرة ولا نجد لها تعليلا . إلا أن يقال : إن الآباء دائماً يحبون الأصغر من الأبناء ، وتلك عاطفة يتحسسها فى قلبه كل من له كثرة من أبناء . ولكن كان للسيد إبراهيم غيره يصغره سناً ، وهو مع ذلك متمتع بمنزلته الكريمة فى قلب أبيه ، فازداد الأمر تعقيداً . إلى أن انتقل الشيخ إلى جوار ربه وأسندت الإمامة إلى ابنه هذا المأثور فانكشف خفى الأمر ، وعلمنا ما كان يرتب له فى عالم الغيب ، وأن الله إذا أراد أمراً مهد له الأسباب حتى يظهر .

لقد كان السيد إبراهيم ، أمد الله فى حياته ، واسطة العقد ، وبيت القصد ، وسويداء القلب . تعهده أبوه بعناية كملته تكميلا ، وبرعاية خاصة تنشأ عليها من مدرج حبوه إلى أن لبس إهاب الشباب ، فما أصبنا عليه هفوة : ولا عرفنا له كبوة ، ولا شيئاً مما لا تدرك مغبته الغلمان . فكان يزور أباه فى بعض المجالس وقوراً . يجيب عن سؤاله بجواب لا يتزيد عليه . وإذا سأله عن أمر ما راعى أن يكون السؤال واضحاً ، وفى قالب من الصياغة لا يحتمل أكثر من معناه . فإذا ما جلس أخذ مكان

المتأدب من المؤدب والتلميذ من الأستاذ ، ولقد شاهدته مرة فى مجلس والده ومعه بعض من أبناء إخوته ، وكانوا فى سنه الصغيرة ، فأخذوا يبادلون بعض مخالطيهم من الإخوان ضحكات ساكتات إلا هو فكان يكسو وجهه الجد ، ويحلى جلسته الانتباه ، فعلمت من ذلك اليوم ، أن لهذا الجالس شأناً ، وإن له ليوماً ، إن الخلق الكريم كاف لأن يضع صاحبه فى صدر الزمان ، وغرة الأيام ، لأنه مجموع الفضائل كلها ، ولما نعت سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم لم يزد على قوله « وإنك لعلى خلق عظيم » فجمع له فى هذه الجملة الصغيرة كل ما امتاز به الأولون والآخرون من فضائل ، وما اختصوا به من صفات كريمة ، وقد حقق الله ما كنا نرجوه فى هذا الشخص الكريم ، والشخصية الممتازة ، من نبل الصفات، وكريم الشمائل وشرف الضمير .

إلى هـذا الحد كان ولع شيخنا رضى الله عنه بابنه الكريم السيد إبراهيم ، وإلى هذا الحد أيضاً كان حبه لباقى إخوته وأخواته ، ولكن أكان هذا الحب لأبنائه يؤسره لأبنائه وبناته خصوصاً الصغيرات ؟ ؟ ؟ كلا . فلم يستطع حبه الجارف لهم أن يأسره ، فقد كان يتركهم إلى حماية الله ، وينزح هو بعيداً عنهم فى سبيل الله شهوراً عديدة تكاد تأخذ من السنة كل أشطارها ، فكيف نوفق بين هذه المغايرات .

وحل المسألة أبسط من قولك الثلاثة نصف الستة ، وإليك البيان:

ذاق الشيخ طعم الحب ، وتشكل به ، وتروض عليه ، ولكنه وقع بين محبوبين ، وتوسط بين حبين ؛ حب الله ورسوله ، وحب أولاده ، وحبه لله ورسوله أقوى بما لا يقاس من حبه لأولاده ، فآثر الحب الغالى وترخص فى الحب العادى ، فهجر بيته إلى بيت الله ، وترك أبناءه فى رعاية الله ، وهاجر هو حباً لله ولرسول الله ، واقرأ إن شئت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ..... » إلى قوله : « أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » .

أعرفت إذاً أن المسألة فى وضوحها وظهورها لاتحتاج إلى استقصاء .

وكان أبناؤه الصغار إذا هزهم الشوق إلى أبيهم ، ودفعتهم دوافع البنوة العطوفة إلى استجلاء وجه ذلك المندفع بكليته فى طريق الله ، لحقوا به ، وتشبثوا بعودته ، وهو يأبى عليهم ذلك والإخوان يلحون ويلتمسون منه العودة رحمة بهؤلاء الصغار وقتاً ما حتى يذعن وينقاد ، ولكنه رضى الله عنه يذهب معهم ليعود ، ويمكث بينهم قليلا ، ليهجرهم طويلا ، حتى وافاه الأجل المحتوم فى مرضه الذى ألم به فى أرض غير أرضه وبيت غير بيته ، ولم يعد وفيه أمل الشفاء ، تلك عزيمة أولى العزم ، وقوة الخلصاء من أصحاب الأسرار ، والمتعمقين محبة الله .

كل حسن قـد تجـلى ... فهو من حسن الحبيب
حبه فى القلب ساكن ... لطفه منى قـــريب
حبه يحـلو ويغـــلو ... عن فؤادى لايغيب
هامت الأرواح فيـه ... طال شوقى للخطيب
حبـــه أقصى مرامى ... وهـــواه لى نصيب

محبته للأولياء

كان رضى الله عنه محباً للأولياء ، يحسن فيهم القالة ، وينظم المقالة ، يعتبرهم عشيرته ، وأفراد أسرته الروحيين ، ولقد مدح الكثير منهم بقصائد تدور فى أفلاك البلاغة ، فمن قوله مادحاً سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه :

الله أكـبر عمت البركات ... وعلى المقام توالت النفحات
هذا مقام السيد البدوى الذى ... للأوليـــاء مقامـــه عرفات
هذا مقام قد حوى كل الرضا ... صبت عليه من العـلا رحمات

ومادحاً سيدى الحنفى رضى الله عنه :

إن شئت تحظى بالقبول وبالمدد
فاقصـــد حمى الحنفى مولانا تسد
وله الكرامات الشهيرة فى الورى
وسما على أهـل الولاية وانفرد .

ومادحاً سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه :

هذا مقام الهيكل النورانى وضريح مولانا العظيم الشان

هذا أبو العينين محبوب النبي وإمام أهل الفضل والعرفان

ومادحاً سيدى الشعرانى رضى الله عنه :

ياربنا بالهيكل النورانى

قطب الوجود إمامنا الشعرانى

بحر العلوم حقيقة وشريعة شمس الهداية مظهر العرفان

ومادحاً سيدى البيومى رضى الله عنه :

تأدب إذا ماجئت فى الساحة الكبرى

فهذا الحمى من جاءه فاز بالبشرى

حمى سيدى البيومى غوث زمانه

فقبل ثرى الأعتاب إن جئته عشرا

هذه نفحات عطرات ، وباقات نديات ، يضعها شيخنا رضى الله عنه فى أحسن قالب ، وأحكم أسلوب ، ويهديها وارفة الظل ، باسمة الثغر ، فياحة النشر ، إلى رجال سبقوه بالهداية ، فحفظ معروفهم ، وكرم آثارهم ، وأحسن جوارهم .

ولقد بلغ من وفائه رضى الله عنه لهؤلاء الواصلين ، أن كان يعمر مساجدهم بالذكر ، ويشترك فى أعياد ميلادهم مع أبنائه ،

ولا تعبق ذكرى أحدهم فى مجلسه الكريم العامر إلا قص من أخبارهم ، وحكى من سيرهم مايسر القلب ، ويشرح الخاطر . ومن أوفى من أبى حامد حقاً ، وأحب منه قلباً ، وأكبر منه روحاً . لقد يستأذنه بعض الإخوان فى زيارة ولى من الأولياء ، فيأذن له ، ثم يقول له على الأثر : « سلم لى عليه » جملة بسيطة ، ولكنها بعيدة الأثر ، غزيرة المعنى ، كريمة الإيراد .

محبته للإخوان

أحسن أوقات شيخنا رضى الله عنه هى الأوقات التى يقضيها بين الإخوان ، لايفضل عليها شيئاً ، يجلس إليهم طول النهار ، إلى منتصف الليل ، لايمل جلستهم ، ولا يسأم مجلسهم ، ولا يبغى أن يفارق وجوههم حتى لتناول طعام ، فكان يحمل إليه الطعام فيتناوله فى المجلس ، وإذا أراد أن يتخلص من بعض شعر رأسه قصه له أحد الحلاقين فى المجلس ، وينزل به المرض ويطلب إليه أن يعتكف عن الإخوان يوماً أو بضعة أيام فلا يصغي إلى هذا الطلب ، ويحمل نفسه المتعبة ، وعلته الشديدة ، ويجلس بهما إلى الإخوان ، آخذاً معهم ما كان يأخذه فى أى يوم عادى . وكان يلحظ عليه الإخوان ذلك ، فيتقدم إليه بعضهم بأن يعتزل المجلس ريثما يتم له الشفاء ، فيأبى عليهم ذلك ، وقد يستمر به المرض أياماً طويلة ، ويستبد به استبداداً عنيفاً ، وهو يغالبه وينتصر عليه ،

وأف للأرواح القوية من الأجسام الضعيفة التى تقيد الهمة وتحد من عزائم الرجال . ترى ماذا كان يحدث لو أن الأرواح خلقت أجسادها ، لحيث تكون الروح القوية يكون الجسم القوى ، أفلا كنا نستمتع كثيراً برجال طواهم الردى ، وأقفرت منهم الحياة وكانت تنزوى عن الأرض أشباح متعفنة لاخير فيها ولا رجاء ، بحياتى لوكان الأمر كذلك مافقدنا فى شيخنا الكريم وجهه الكريم ، ولصار بيننا وبين أعصر قادمة منار الزمن ، ورجاء الأيام .

خلق رضى الله عنه ليعيش بين تلاميذه ، وكان تلاميذه ظله ولا يستطيع كائن أن ينفصل عن ظله ، حتى الموت نفسه حين استأذن على روحه الطاهرة لم يستطع أن يحول بينه وبينهم ، فرض فى أحجارهم ، وانتقل إلى ربه الكريم بين قلوبهم الباكية ، وعيونهم الجارية ، وزفراتهم المحرقة .

وكان رضى الله عنه أكثر الناس غيرة على تلاميذه ، وأعظمهم حدباً وعطفاً ، يتقرى حالهم ، ويتقصى أخبارهم : ويأخذ بيد الضعيف منهم ؛ وكانت تضطره أساليب التربية أحياناً على أن يقسو على البعض إن نبا نبوة ، أو هفا هفوة ، ولكنها القسوة الرحيمة الحكيمة ، والكى الذى يعقبه الشفاء . ألا ترى الشمس تقسو وترحم ، وتشتد وتلين ، تكوى الأجسام بوقدة حرها ، وتسفع الجباه بشدة لهبها ، وفى الوقت نفسه تهز الأرض فتنبت نباتاً حسناً .

وكان رضى الله عنه سريع الرضا إذا تغير على أحد مريديه ، فما أن يتوب ويندم حتى يضمه إلى قلبه ، ويمنحه حنانه وعطفه ، فيجلس هانئاً مطمئناً ضاحك الأسارير ، منشرح الصدر ، كأن لم يكن ذلك الشخص الملوع .

حب الإخوان إياه

أما هذه فنعم ؟ ؟

أرأيت النور فى العين ، والسويداء فى القلب ، والروح فى الحس ، والفكرة فى العقل ، إن كنت رأيت هذا فاعلم أن الشيخ رضى الله عنه نور عيون الإخوان ، وسويداء قلوبهم ، وروحهم المستقرة بين جوانحهم ، وعقلهم المدبر .

لا أستطيع بهذا القلم الضعيف أن أرسم لك صورة حقيقية عن تلك الصلة الروحية التى كانت تربط قلوب الإخوان بقلب شيخهم العظيم ، وكيف تمكن حبهم إياه فى إحساسهم تمكناً جعلهم يرون صورته فى وجه الشمس إذا طلعت ، ومهبط الليل إذا نزل ، وهبوب النسيم إذا سرى ، ويشعرون به فى كل خاطر ، وفى كل هاتف ، وكل إحساس .

إنه الغيث يهمى فتهتز الأرض بالنبات ، والشمس تشرق فتعطى الوجود الحياة ، والبدر يطلع فينير السبيل للمدلج السارى ، والروح تنبعث فتعطى الجسم الإحساس، ومن منا لا يحب الغيث

إذا همى ، والشمس إذا أشرقت، والبدر إذا طلع ، والروح إذا انبعثت فى الأعضاء ؟

لقد بلغ هذا الحب درجة أن مدرساً (كالأستاذعطيه المكاوى) كان يعمل فى مدينة بنى سويف ، وأولاده فى القاهرة يختلف إليهم فى كل عطلة أسبوع وكان يتصادف أن يكون الشيخ رضى الله عنه فى مدينة المنوفية ، فيركب إليه الأستاذ (عطيه المكاوى) ماراً بالقاهرة فلا يتخلف عند أبنائه وقتاً يستأنف بعده السفر إلى المنوفية ، بل يسافر رأساً إليها ، وإن أسعف أولاده الحظ رآهم فى الأوبة إلى مقر عمله ؟ ؟ . .

ولقــــد كان بعض الإخوان يترك أحد أولاده يحتضر ، ولا يستطيع أن يترك مكانه الذى تعود الجلوس فيه فى مجلس الشيخ ، إلا إذا عرف منه ذلك فيأمره بالانصراف ، وإنى لو أردت أن أسرد من هذا القصص الكثير لما وسعنى مجلد ضخم الصفحات مترع مابين الضفتين ؟ ؟ . .

ولكى يكون مولود أحد الإخوان كريماً على أبيه ، عزيزاً عليه ، أثيراً عنده ، فإنه لابد أن يكون الشيخ « عرابه » يحمل إليه النبأ فيختار الشيخ اسماً يطلقه عليه ، ولقــــد ولد لى ابن ، فسافرت إلى الشيخ رضى الله عنه فى طنطا وذاكرته عنه فصار اسمه من هذا اليوم « خالد » ، ولقد نفح ببركة الشيخ فنشأ على محبة صادقة وقل أن يخلو منه مجلس من مجالس سيدى إبراهيم .

الفرق بين الحب الصادق ، والحب الكاذب يتجلى فى قولك لمن يحب ، أين محبوبك ؟ فإن قال لك : إنه فى مكان كذا فاعلم أن حبه كاذب ، أو على الأقل أن حبه لم ينضج بعد . وإذا قال لك : إن محبوبى فى قلبى ، فاعلم بأن هـذا هو الحب الصادق المكين . وحب الإخوان لشيخهم من هذا النوع ، فإن الواحد منهم قد يكون فى أسوان بعيداً عن القاهرة بمسافات متراميات . وقد يمكث الأشهر بدون أن يراه ، ومع ذلك فلا يغيب عنه وجهه الكريم فى يقظة أو منام ، وكيف يغيب الإنسان عن نفسه . أو لا يحس بنبضات قلبه ؟ ؟ . .

يروى عن بعض الإخوان ، أنه يزور ضريح الشيخ رضى الله عنه ، فلا يرى فارقاً بين الشيخ مع الإخوان فى المنزل حال حياته ، وبين الشيخ فى ضريحه بعد الانتقال ، فإنه إن وفد عليه تمثله ، فيتحرك هذا المثال من عالم الخيال إلى عالم الواقع ، فإذا الشيخ يحادثه ويسمع إليه ، حقاً إن الهواء فى كل مكان عاصفة ، ولكنه فى حى بولاق نسيم ، والشمس فى جميع الأرجاء فى الطفَل ، ولكنها فى حى الشيخ فى الإشراق ، والقمر فى كل الآفاق محاق ، ولكنه فى مسجد الشيخ بدر ، والحياة فى جميع ألوانها بالية ، ولكنها فى جواره السعيد مشرقة ، فهو والله الأمل الباقى ، والحياة الثابتة ، وإننا لنتصور الموت مر المذاق ، شديد النزعة ، حاد السكرة ، ولكن يقلله فى أعيننا ، ويخففه على قلوبنا ، أنه سينقلنا إلى

الأحبة ، ويجمعنا على الغر الميامين ، والرهط السابقين :

أنا كل أيامى أعياد	مادمت فى حى أبو حامد
عز الرجال سيد الأجواد	اللى ماينضملوش قاصد
نفحاته شملتنا وكرمه	والناس ماتقدرش توفيه
الله يزيده من نعمه	ويجعله جنة مواليه
مسيرها تتعدل برضه	ونروح معاه ويروق الحال
بس انت ياقلبي ركك	على التأنى وطولت البال

حبه للناس جميعاً

سيدنا رضى الله عنه كان يحب الناس جميعاً ، ويرى أنهم مخلوقون من طينة آدم ، وآدم رحم لجميع الناس ، وصلة الرحم حض عليها القرآن ، ووثقها الدم ، فكان يحب لهم الخير ، والهداية ، والتوفيق وعرف ذلك عنه ، وتسامعت به الناس ، فكان يقصده كثير ممن وقعوا تحت كلا كل القدر ، وبين رحى الأيام ، يلتمسون منه نظرة رحيمة ، ودعوة مجابة ، وكان رضى الله عنه يجيب كل سائل ، ويرفد كل طالب ، ويعين كل محتاج ، ولطالما وقف على بابه مسيحيون ، أى والله مسيحيون ، وقدهم المرض ، وأضنتهم العلة ، وعجز أمامهم الطب يطلبون إليه بقلوب كسيرة ، وعيون دامعة ، وأعضاء هزيلة ، أن يتوجه إلى ربه لدفع الكرب عنهم ، ورفع الأمراض عن أبدانهم ، فما أقرب أن يجيبهم إلى طلبهم ، ويدعو الله لهم ، وما أكثر

من دخل من المسيحيين الطريق بعد أن أعلنوا إسلامهم بين يديه ، وصاروا بعد أعظم الناس إسلاماً ، وأملأهم إيماناً ، وأقربهم إلى الشيخ مكاناً .

كان رضى الله عنه يرى أن الناس مخلوقات الله ، وآثار قدرته ، ومن أحب الله أحب عباد الله ، وآثار الله ، ومخلوقات الله ، وليس هذا بكثير على من أحب مخلصاً ، وعشق هائماً ، فإن مجنون ليلى كان يحب فى ليلى نسيمها الذى يمر ، وبيتها الذى يأوى ، وأثر قدمها حين تخطو ، فإذا كان هذا الوجد والتتيم بين رجل وامرأة ، أفلا يكون حب الحبيب الأعظم ، والخالق الأوحد ، أولى وأشد

كان بعض الإخوان يجأر بالشكوى أمام الشيخ رضى الله عنه من ظالم ظلمه ، أو جار جار عليه ، أو حاكم اضطهده ، فما يزيد على أن يقول له حاول فى أن تصلح ما بينك وبينه ، وتحمل ، فإن من تحمل ظلم ظالم ، أو جور حاكم ، أو إساءة معتد ، كان من أصحاب العزم وإن الله يبتلى الناس بالناس ، ليعلم الصابرين ، وهو العليم . ثم أخذ رضى الله عنه يقص عليه وعلينا ونحن جلوس فى المجلس هذه الحكاية قال رضى الله عنه : « كان هناك مريد لشيخ ، وكان هذا المريد أدوم إخوانه على خدمة الشيخ ، وأقربهم مجلساً منه ، فغره ذلك ، فلما كان فى يوم ، طلب منه شيخه أن يلقنه اسم الله الأعظم ، فأمهله الشيخ وماطله ، وهو يلح عليه ويلحف فى الطلب ، فلما رأى الشيخ منه كلفه ، أمره بأن يجلس على باب أبى الفتوح طول يومه ،

ثم يقفل راجعاً بما يراه فلازم المريد الباب ، حتى غابت الشمس ، فرجع إلى الشيخ فسأله عما رأى ، فقال : ما رأيت شيئاً ذا بال ، إلا أن حطاباً كان يقود جملا محملا بالحطب ، فزحم الباب ، وكان هناك فارس يلبس شارة الأمراء ، قد خدشه حطب الجمل ، فنزل عن فرسه وأوجع ظهر ذلك الحطاب بسوط كاو ، حتى مزق جسمه تمزيقاً ، والحطاب صابر محتمل ، فسأله الشيخ قائلا: لو كنت مكان الحطاب ماذا كنت صانعاً ، قال : ما كنت أنتظر حتى يكوى الفارس ظهرى بسوط واحد قبل أن أدق عنقه ، وأظلم عينه . فضحك الشيخ ثم قال : هذا الحطاب يعرف اسم الله الأعظم ، فلو أنه تلاه لقتل الفارس ، ونفق الفرس ، أفآمنك على سر الله وأنت طائش مستطار ، . ثم أردف شيخنا رضى الله عنه يقول للأخ : أنظر صبر الرجال وقوة احتمالهم لعباد الله ، أفتريد أن تضار جاراً لكلمة نابية أسمعكها ، فلعلك لو تجاوزت عنها وتركتها حسبة لوجه الله أثر فى ظالمك عفوك ، فيثوب عن ظلمه وتغطرسه .

وما من مناسبة تمر إلا وتتكشف عن هذه الناحية الخيرة فى شيخنا رضى الله عنه ، حتى فى ساحة مولد النبى صلى الله عليه وسلم حين تدور نفحة الطعام على إخوان الطريق ، ويتزاحم بعض المتفرجين فى ساحة المولد على أخذ نصيب منها ، ويحاول بعض الإخوان صدهم عن ذلك ، فما يكاد الشيخ رضى الله عنه يلمح ذلك حتى يأمر الإخوان بفتح الطريق لهؤلاء الناس ، فيصيبوا من

الطعام ما يشتهون ، فيدخل سائرهم فرادى وجماعات على اختلاف نحلهم وتباين أديانهم .

حقاً إن الروح العالية لا يشغلها الحيز الضيق ، فهى لفرط اتساعها تشمل رحمتها وتعم بركتها كل ما تحيط به من آفاق . وقد كانت روح شيخنا رضى الله عنه من الصفاء والاتساع بحيث تشمل الفقير فتطعمه ، والمنكوب فتعينه ، والعاثر فترفعه . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « الفقراء عيال الله وأحبكم إلى الله أحبكم لعياله » ، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذا عرفت هذا يا أخى فى الله ، فاعرف ، ولا إخالك إلا عارفا ، بأن شيخك رضوان الله عليه كوكب الجيل ، وواحد عطارد — حشرنا الله وإياك مع الأبرار والصالحين ، وهدانا وهداك الطريق القويم ، بجاه سيد الخلق الصادق الأمين ، صلى الله عليه وسلم وكرم وعظم .

ومن قوله رضى الله عنه فى عدم احتقار أهل الدنيا :

« لاتحتقر أهل الدنيا ، ولا تركن إليهم ، فإنك إن احتقرتهم فهم عبيد الله ، وإن ركنت إليهم كنت رخيصاً عندهم ، كما أن دنياهم رخيصة عندك ؛

صاحب إذا صاحبت ذا أدب مهذب زانه خلقه

ولا تصاحب من فى طبائعه   شراً فإن الطباع تسترقه
ارحم بنى جميع الخلق كلهم   وراع فى كل خلق حق من خلقه

* * *

إن المحب إذا أحب حبيبه   تلقاه يبذل فيه مالا يبذل

الكرامة

الكرامة : معناها إكرام الله بعض عبيده الصالحين وهى على ضروب كثيرة :

فالعالم الذى يوطئ علمه لمنفعة الناس ، فيرشدهم إلى أحكام الدين ونواحى الشريعة ، ويبصرهم بما أحله الله لعباده وبما حرمه عليهم ، ويهديهم الصراط المستقيم ، الذى لا يضل عليه سالك ، ولا يهلك فيه سائر ، يكون قد أكرمه الله بإلباسه حلل العلم ، ووشاح المعرفة .

والمثرى الذى يهلك ماله فى إقالة عثرة العاثر ، وستر جسم الضاحى ، وسد عوز الجائع ، ويتعاون فى مشروع خيرى يهب للمريض الصحة ، وللجاهل العلم ، ولليتيم المسكن والمطعم ، كرفع المصحات ، وبناء الملاجئ ، وإعداد معاهد التعليم ، يكون الله قد أكرمه بالثراء .

والحاكم الذى يقيم ميزان العدل بين المحكومين ، ويزود عن

حرمات الوطن ، ويتوخى مصلحة الأفراد قبل مصلحته الشخصية يكون الله قد أكرمه بهذا السلطان .

وكذلك المدرس ، والطبيب ، والمهندس ، ومن إلى هؤلاء من أوتاد البلاد الذين تقوم نهضة الجماعات على كواهلهم ، إذا راقبوا الضمير فى أعمالهم ، وأدوا أمانة الله على وجهها الخالص ، يكون الله قد أكرمهم بهذه الصناعة .

وقد يكون العلم والثراء وسلطان الحكم والمهن الأخرى فتنة ، إذا مال أهلها عن الجادة ، وانحرفوا عن الطريق .

وهناك لون آخر من الكرامات خاصة بالسالكين ، وهى أيضاً على ضروب :

منها ما يفيض الله به على قلوب العارفين من أسرار ، (واتقوا الله ويعلمكم الله) .

ومنها اتجاه قلب العارف إلى شىء من الأشياء، فيتفاعل ذلك الشىء حسبما يريد .

ومنها الخوارق التى تحدث على غير ناموس ولا قانون إظهاراً لمقام الولى وإن لم يلحظها أو يدركها .

والكرامة على هذا الوجه الأخير ، أو الوجه الذى قبله ، قد تكون حظوة بعض السالكين وموطن إقامتهم .

أما الأولياء الكاملون ، فلا يقفون عندها ، ولا يتخذونها

داراً ، فهمتهم أبعد من أن تقف مع هذه المرتبة فى مقام — وربما
عوا هذه الخوارق شهوات ، تفتن السالك وتعوقه عن الكمال ،
بإذا طرأت عليهم ، فإن طروءها لايزيدهم إلا بعداً عنها ، لأنهم فى
شغل بمحبوبهم الكامل سبحانه ، ومهما كان شأن تلك الخارقة
فإنها لاتحدد أقدار الرجال ، فقد تكون أولى درجات الولى
الكامل وإن جفت لها البحار ، أو طارت بها الجبال .

وما تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إخوانه الرسل لأنه
كان أكثرهم إعجازاً ، أو أقوامهم خارقة ، فربما كان لبعضهم من
المعجزات المادية ما هو أروع مما علمناه من معجزاته صلى الله عليه
وسلم ، ولكن تقدمهم عليه السلام بسمو مكانته ، ودنو مقامه ،
وقربى حضرته من حضرة الله .

وشيخنا السيد سلامه الراضى رضى الله عنه ، أبعد شأواً ،
وأفتح باعاً وذراعاً من أن نقيد مكانته السامية بما عوّد أن يحصيه
له منها بعض حضرات الإخوان ، وجزى الله أستاذنا السيد إبراهيم
سلامة خير الجزاء ، فقد تقدمت إليه بمحصول وافر ومجموعة ضخمة
مما ظهر على يدى والده الكريم الجليل بين سمع الإخوان ونظرهم
فقال الابن البار ابن الحبر الكبير : (اضرب صفحاً عن هذا كله
فإن قيمة الرجال ليس فيما خلفوه من كرامات ، ولكن قيمتهم فيما
خلفوه من أعمال ورجال ؟؟) . فوقفت أمام هذا التصريح موقف

المبهوت الخجل ، ولكن سرى عنى أننى أمام عقل كبير ، وخلق كريم ، وشبل عظيم ، عودنا ألا نحفل إلا بالجليل الذى يعطى جليلا. والأثر الذى يفيد جيلا وأجيالا ، والصوت الذى يدوى فى السماء فيلفت كواكب الأجواء. فال لهذا القول قلبى ، وانصرف عن مجموعتى تلك ذهنى. فألقيتها والله حزيناً عليها ، آسفاً لعدم تمكنى من أن أسطرها سطوراً ، وأجرها وروداً ، وأرسلها نوراً ، تعطى لنظر قارئها لوناً ، ولأنفه أرجاً ، ولقلبه ضوءا .

على أنى مع هذا أستطيع أن أسجل لشيخنا رضى الله عنه ظاهرتين كبيرتين ، وعملين خطيرين ، وكرامتين لهما أثر بعيد ، وقدر مجيد ، لأنهما أبقى على الزمن من أن يطويهما الزمن ، وأبقى للناس من أن يتناساهما الناس ، لأن كل فرد من الأفراد اتصل بشيخنا مجلساً لا يزال يتخذ من دوحتهما ظلا ، ومن فروعهما ، ثمراً ، ومن جوهما نسيما بليلا .

كرامات الشيخ

الكرامة الأولى :—

من المعلوم أن شيخنا رضى الله عنه لم يرث عن آبائه وأجداده مشيخة طريق ، ولم يكن حتى فى أفراد أسرته الكريمة هذه المشيخة بل تنشأ فرداً كسائر الأفراد ، فرداً عادياً ، ليس له ولا لأبويه من خزائن الأرض إلا ستر الله الجميل ، فلما وقف على قدميه ،

ودخله تفكير الأطفال، أودعه أبوه مكتب الحى، لحفظ القرآن الكريم فى مطاوى السنة السادسة، وتلك ظاهرة تدل على أن استعداده يغاير استعداد لداته، وأن الله الذى منحه هذا الذكاء وتلك القدرة على حفظ مصحف لا يستطيع طفل فى مثل سنه أن يدرك (ماهو هذا المصحف)، أقول إن الله الذى مهد له هذا كله كان قد ادخره لدنيا يرقق حواشيها ويجلو ظلمتها ويرفع غشاوتها عمن ابتلى بها من عباد الله.

فما أن حفظ القرآن الكريم وأجاد الكتابة حتى أدخله والده مدرسة ابتدائية عامة يواصل فيها تعليمه شأن الغلمان من أبناء حيه، ولكن كان لطبيعته الصافية وغريزته الخالصة ميول لا تستقيم مع هذا اللون من التعليم، فعزفت نفسه عنه — ولا غرابة فى ذلك. فالمسيح عليه السلام لم تستقم فى نظره حرفة النجارة التى أرادت أمه البتول رضى الله عنها أن تأخذه بها، لأنه كان مدخراً لغير هذا — وكذلك كان شيخنا رضى الله عنه. فما أن اعتزل مدرسة الحى حتى ابتدأ يتذوق طعاماً جديداً، طعاماً لا يجيده مدرس فى فصل، أو كتاب فى مدرسة، ولكنه مطروح على موائد خلصاء العارفين، لحام حوله، ثم التقط منه فتاتاً تذوقه فاشتهاه، فطعمه بشهية ملحوظة، ومازال يقصف ويشرب، حتى امتلأ، امتلأ بطعام يسرى فى القلوب نوراً، وفى الأرواح راحاً، وفى الوجدان

انشراحاً . ففاضت هذه الأنوار القدسية ، والأسرار العرشية ، واللطائف المحمدية ، من باطنه إلى ظاهره . فرأى فيه السعداء من الناس تجليات تخطف على وجهه ، ونسمات تهب من أردانه ، وشهديات تسيل على لسانه ، وحكماً تفيض من جنانه . فعثروا على كنز بحثوا عنه طويلا فأضلوه ، وسر كان مطموراً فى جوانح الغيب فثقفوه ، فتحوطوا به تحوط النحل على الخلية ، فشربوا من دنانه عسلا شهياً .

كانوا طليعة جماعات ، فما زالت تكبر وتكبر ، وتفيض وتفيض ، إلى أن أخذ عددها مابين المشارق والمغارب ، فمن أقصى البلاد إلى أقصاها ، تتلاطم أمواج حامدية ، وأعلام شاذلية . فاستظلت البلاد بظلها ، وأشرقت الأرض بنور ربها .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من الدنيا وما فيها) وكيف وقد رفع الله به آلافاً وآلافاً وجماعات تقفو جماعات ، من ضلال الفتن وبراثن الشيطان ، خلعهم من مسلاخ الرذيلة ، وأسكنهم إهاباً من الفضيلة ، وأخذ بحجزهم عن النار .

تعالم به القريب والبعيد ، وجرى اسمه على لسان الصغير والكبير ، فهرع إليه شباب مسيحيون بايعهم على الطاعة بعد أن دخلوا فى نور الإسلام مؤمنين .

فقل لى بالله أية خارقة وإن جلت ، ومعجزة وإن بعدت ، أرفع من تلك الخارقة قدراً ، وأعظم منها خطراً ؟ ؟ ؟ رجل فرد التفت عليه المحافل ، وتواكبت عليه المجامع ، فأصبحوا بعون الله إخوانا ، أفيكرم الله خاص أولائه ، وأصفياء جلسائه ، وندماء كأسه ، بأكرم من هذا وأعظم من هذا ، إنها الشمس إذا طلعت أطفأت نجوم السماء ، وأضواء الأقمار ، ومنحت الناس العافية والخصب الكثير .

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فأين هؤلاء الإخوان الذين ضاقت بهم الحفول ، وامتلأت بهم الجوانب بعد انتقاله رضى الله عنه ، إنهم هم هم ، لم ينقص منهم عدد ، ولم يفتر لهم مدد ، ولم يلتفت منهم أحد ، كلهم على الوفاء مقيم ، ومن بحر الشيخ يغترفون ، وعلى بابه جالسون . ذكراه العطرية فى قلوبهم ، ومثله المحبوب نصب عيونهم ، ونفحاته البرزخية طائفة بهم فى كل مشرق شمس ، وطلوع قمر ؟ ؟ ؟

إنها لكرامة من الله كريمة ، ومنزلة رفيعة ، أن يحفظ الله أبناء الشيخ من الضياع ، ويرفدهم بالعطاء ، ويقيمهم على الولاء ، وتلك مزية لم تسبق لولى ولم تتيسر لعارف قبل شيخنا رضى الله عنه .

ولو رجعنا بالتاريخ إلى عصر القشيرى رضى الله عنه . لرأينا حياته تلك المشرقة بأنوار الصوفية ، ونزلاء ساحته من محبى حكمه

الإلهية ، وتهافت الناس على تعاليمه الربانية ، تفضى يوم قضى رضى الله عنه ، فقد تفرق ماتجمع ، وتفتق ماترتق ، وعصف الزمن بأبنائه وآرائه جميعا ، ولم يبق له من ذكر إلا رسالته التى احتضنتها الكتب وغابت فى أطهار التاريخ .

وهذا سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بعد ، أن فتح البلاد بنور علمه ، ونور القلوب بمشكاة هديه ، وجمع الصفوف على موائد ربه . فما أن انتقل إلى جوار ربه الكريم ، حتى مال علم طريقته ، وتفرق شمل إخوانه وانفرد عقد جماعاته ، ولم يبق منهم بعده إلا نثارات هنا وهناك ، وذرات متطايرات ، لا مِرة لها ولا صولة ، ولا حول ولا قوة ، ولولا أن قيض الله لهذه الطريقة الميمونة سيدى سلامة حسن الراضى شيخنا الكريم لجمع شتاتها ، وبنى قواعدها ، ورفع ذروتها ، وأعادها جدة ، لانحنت مع الأيام وأسلمت الروح إلى الرحمن .

وغير هذين من مصلحين من غربت شموس معارفهم فى ظلام قبورهم ، وامّحت تعاليمهم بممحاة الليالى والأيام .

ولكن الله أكرم شيخنا رضى الله عنه بكرامة كبرى ، ومنزلة عظمى ، أن حفظ شخصه فى قلوب مريديه ، وسره فى أرواح محبيه ، وذكراه فى جموع عارفيه ، وإن تعاليمه لتسرى سريان البدر فى كبد السماء ، ومبادئه لتجرى فى قلوب الأصفياء جريان الروح

فى الأعضاء، وإخوانه فى مد يغرق الشاطئين، وفيض يملأ
العدوتين، ولقد نما عددهم وزاد، ولا زال هديه منتشراً فى
البلاد، وسيستمر ويستمر بفضل الله وعونه، وتوفيقه ومدده،
ماخطف خاطف وبرق بارق .

إن فى الباقى سر الماضى، فسيدى إبراهيم نجل الشيخ المعظم،
وخليفته الأمين، ليسير بالأمانة على بصيرة من قلبه، ونور من
ربه ومدد من أبيه، ولقد كثر فى عهده نزلاء الطريق، وزاد عددهم
عددا، وفيضهم مددا، متعنا الله بحياته، وأسعد أوقاته .

الكرامة الثانية

علمنا أن شيخنا رضى الله عنه لم يتنشأ من صغره على علوم
مدنية، ولا مناهل أزهرية، لأن هذا كله لم يتمش مع غريزة فطرت
على استعداد خاص، وعلمنا أيضاً أن رضوان الله عليه مال بكليته
إلى علوم الصوفية، فشرب من مناهلها وعب، وتاه فى أسرارها
وثاب، وطوى فى أنوارها ونشر، حتى صفت نفسه من الشوائب
وتطهر قلبه من العلائق، وضاءت روحه بأنوار ربه، فنزل الله فى
قلبه نزولا رحمانياً، لا بأين ولا كيف، وقلب المؤمن بيت الله .
فأية معرفة ملأت مابين جانحتيه، وأية علوم أخذت مابين قطريه،
وأى فيض إلهى قدسى، وسر محمدى أحدى، وقبس من السماء

ملائكي ، نزل فى أكرم بقعة من قلبه ، وأملإ وعاء فى حسه ، وأرحب ساحة فى روحه . علوم خضرية جلاها الله فى شخص أكرم جده بالرسالة ، وشرفه بالإمامة ، وأنزله منزل صدق عند مليك مقتدر .

هذا هو سيدى وسيدك أيها الأخ الكريم ، لم يتثقف فى مدرسة كما تثقف أصحاب الإجازات ، ولم ينحن أمام مدرس فى استفادة أو إجابة ، ولكن انحنت له هو الرءوس ، وتفتحت له القلوب ، ورشف من ورده الصادى ، وامتلأ من علمه الخاوى .

قصده الجلة من كبار العلماء ، والنخبة من أساطين الحكمة ، والمبرزون فى نواحى التعليم ، فقاسوا أنفسهم به فوجدوا أنفسهم واقفين على أولى درجات علمه ، وبينهم وبينه معراج مابين الأرض والسماء ، فنزلوا فى مجلسه كطلبة ، والتحقوا بمدرسته كتلاميذ .

قد يعجبك إذا مررت بقصر مشيد ألوان أنواره ، وغادى نسائمه ، وارتفاع بروجه ، وزخرف طلائه . فلو قلبت نظرك من ظاهره إلى باطنه ، لجلوت سر هندسته ، وفكرة صانعه وجمال تكوينه ، لرأيت أن ما همت به إعجاباً وما قدرته قدراً إنما هو ، جمال طفح من باطنه إلى ظاهره ، وكمال جال فى أديمه من سر تكوينه .

إذا أدركت هذا فاعلم أن كل علم فقهناه ، ودرس تلقيناه ، وقفنا عنده كما وقف المعجب بهـذا القصر ، الذى تبهر نسائمه ، وتتجاوب أنواره ، وتطل شرفاته فحسب ، وفاتنا البحث عن سر هذا الجمال ، وأصل هذا الكمال ، ففاتنا الشيء الكثير .

إذا أدركت هذا مرة أخرى ، فاعلم أن علم شيخنا رضى الله عنه علم الحقائق والأسرار ، لاعلم الأوراق والنوار ، علم تضرب عليه آباط الإبل ، وتمتد به الطريق ، « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » صدق الله العظيم .

هاك مؤلفاته العديدة المليئة ، انظر إليها وتأمل فيها تجد نوراً يتنزل ، وحكماً تتدفق ، وفلسفة يجد العقل فيها ضالته ، وإكسيراً يجد القلب فيه إربته ، وسراً تتشكل فيه الأرواح بخمرة الفتاح ، ليست علوماً كسائر العلوم التى يخرج منها القارئ ليقول ماأحسنها وما أبلغ عباراتهـا . وما أحسن صيغتها ثم لاشيء بعد ذلك ؟ ؟ لا ولـكنها علوم يخرج منها القلب بحظ ، والعقل بـكسب ، والروح بهدى ، هى علوم نورها فى سطورها ، وعطرها فى عباراتها ، وسرها فى كل معنى مطروق ومغزى يشوق .

ما ترك شيئاً رضى الله عنه مفيداً إلا وقيده ، ولا ناحية غنية نائية إلا وقربها ، فلم يحوج تلاميذه إلى أى ملتقط بعيد عن يبدره ، ولا إلى أى غذاء قصى عن مائدته الحافلة بألوان المعرفة ، وأنواع العلوم .

ولقد أفردنا فى هـذا الكتاب باباً يحوى ما وقفنا عليه من مؤلفاته ، فارجع إلى تلك المؤلفات فإنك ستجد فيها القلم الجبار ، والمنطق الأخاذ ، والعلم المكين ، والرأى السديد إن شاء الله تعالى .

هاتان هما الكرامتان الباقيتان مابقى الليل والنهار ، يجرى نفعهما فى كل قلب ويسرى نورهما فى كل فرد ، بل قل هما ميراث الشيخ رضى الله عنه الذى أورثه أحبابه ، ونحله أبناءه ، ووهبه خاصة المسلمين وعامتهم ، وإنه والله للثروة العظيمة والخير الكثير .

فأين من هاتين عين برئت بلمسه ، أو تلميذ من أبنائه جلس معك يقظة بعد موته ، أو ، أو ، مما لايحصى من كراماته .

بودى والله لو امتلكت من الدنيا نصيباً ، ومن الثراء حظاً ، ومن الأرض كنزاً ، لأقمت لهذا الشيخ الجليل ، والعالم العارف ، والولى الواصل ، شيخى السيد سلامة حسن الراضى رضى الله عنه مسجداً لامن لبنات وحجر ، ورمل ومدر ، بل من ذهب خالص ، ولؤلؤ نادر ، وجوهر ناضر ، وقلّ له ذلك — ولكن ماحيلتى والباع قصير ، وسيف النصر فقير ، والإله خبير .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن

فسلام عليك ياسيدى فى الخالدين ، وسلام عليك فى الصالحين ، وسلام عليك إلى يوم الدين .

إذا غلب الوجـد والافتضاح

لأهل الهـوى والجوى لاجناح

الحج المبرور

عزم شيخنا رضى الله عنه على أداء فريضة الحج، بعد أن أعد لهذه الفريضة ما اقتطعه من دخله فى سنوات قدره البعض بماتى جنيه ، ولو استطاع أن ينقل الدنيا بحذافيرها إلى جيران الرسول الكريم لفعل .

وما كاد هذا النبأ يترامى إلى آذان أحبابه ، حتى بادر من سبقت له من الله الحسنى ، ولاحظته العناية والسعادة إلى ملازمته فى هجرته تلك ، فما جاء منتصف القعدة ، وحدد الشيخ رضوان الله عليه يوم سفره ، حتى رمت القطارات ، ومتفرقات السبل ، إخواناً من كل فج ، وأحباباً من كل وجه ، ازدحمت بهم الفنادق وضاقت بهم المنازل . وقد وقف رضى الله عنه بين هذه الجموع الحاشدة ، والطوائف الزاحفة ، والمدد المتلاحق ، يصافح هذا ، ويدعو لهذا ، ويمسح دمعة باك ، ويودع من ألوف ، فإذا ركب سيارته إلى السويس زحف وراءه رتل من السيارات ، عليه مئات من الأحباب وما أن أخذ مكانه من السفينة حتى غطى المودعون سقفها وبطنها فى زحمة ضايقت كثيراً من الحجاج ، ومخرت الباخرة على الطائر الميمون ، والطالع السعيد ، تقطع أثباج البحر وتهد جبال الأمواج ، كأنها ألهمت بأن على ظهرها إنساناً ليس على غرار الأناسى ، وشيخاً لا كل الشيوخ ، فاستهانت بالعسير ، ومضت آمنة كأنها تمشى على قضيب من حديد .

وصلت السفينة إلى جدة ، فاستقبلت جدة حفيداً من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسبطاً من سلالة علي كرم الله وجهه فأخذته على رحب واسع ، وسعة عظيمة . حتى إذا تحول إلى مكة وزار وطاف واعتمر ، أسلم نفسه إلى جهاد كبير ؛ يمضي يومه طائفاً أو زائراً ، وليله في قراءة وسجود ، لم تكتحل عينه بإثمد الكرى إلا ساعة بعد صلاة الفجر ، يقوم وإشراقة الشمس في ميعاد ، وخطر له أن يقيم للطريقة معالم في بلاد لم تر مثل هذه المعالم ، وقطر لم تتموج في سمائه رايات الذاكرين .

فأقام حضرة ذاكرة مهد لها بموكب كبير ، بالرغم من أن الحجازيين يعدون هذه المظاهر دخيلة على معتقداتهم ، أو مغايرة لعاداتهم ، في إقامة شعائر الدين ، ولكن قامت الحضرة وسار الموكب ، ونجحت الطريقة ، ومن الغريب أن نقول: واقتنع الحجازيون بعد أن شرح لهم الإخوان ما هي الحضرة ، وما مرماها ، وما مكانتها في السير ، وما أهدافها من الدين ، فرجعوا مقرين . ولقد أعادها الشيخ كرة أخري في المدينة المنورة ، أعادها كريمة مهيبة جميلة تنفح بالطيب وتسر العيون ، وتأخذ بالقلوب .

قلنا إن الشيخ رضي الله عنه مكث ما شاء الله أن يمكث في مكة حتى أدى فريضة الحج طاوي البطن ، ساهر الجفن ، معتزل المضجع ، تشبعه اللقمة ، وتكفيه الغفوة ، لم يترخص في شعيرة

واحدة من شعائر الحج ، يبدو قوياً فتياً جلداً ، كأنه فى إهاب شاب لم يتجاوز الثلاثين ، يخرج إلى الحرم فى الهجيرة وثورة الشمس يطوف ويزور .

حقاً إن الأرواح القوية لا يعييها جسم ولا تقيدها شيخوخة ، فهى فى مرحها وانشراحها فى عزم كبير ، وويل ثم ويل للأجسام من أصحاب العزائم والهمم .

قص على الأخ الكريم الحاج محمد سليم : بأن حضرة الشيخ رضى الله عنه راح فى موجة بكاء عالية ، وعبرات دافقة ، وزفرات كاوية ، فى مكانين مختلفين : الأول فى الشوط الأخير على الصفا ، والثانى حين استقبل جده الحبيب فى أول زيارة له فى المسجد المنير

قلت للحاج محمد سليم : وما السر فى هاتين الدمعتين ، فى هذين المكانين ؟ قال : قد حاولت أن أعرف سرهما منه رضى الله عنه فذهبت محاولاتى أدراج الرياح ، فأسفت أن لم يستطع كشف هذا السر العظيم ، ولكن ربما كان فى هذا :

إذا جاء حبى وأهدى السلام فقد نلت قصدى وتم المرام
عذولى رمانى بسهم الملام ولكن فؤادى بكم مستهام
ودمعى عليكم يزيد انسجام ومنى عليكم دواماً سلام
فقولوا رضينا على عبدنا لعل فؤادى ينال المرام

وفاته رضى الله عنه

لما انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى اختصم فى موته صاحبان جليلان ، فهذا عمر يلوح بسيفه فى وجه من يقول بوفاة محمد صلوات الله عليه حتى خافه الناس ، وهذا أبو بكر يصعد المنبر وينادى فى الناس : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قدمات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . ويعقل كلمته عمر فيخر بين نشيج ودموع .

لا لوم على عمر ولا تثريب ، إن هو ذهل عن نفسه ، وغاب عن وعيه ، فعلى من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلع عمر ويطيش لبه . إن العظيم الذى يتصدر الدنيا ، ويرفع غواشيها لجدير بأن تجرى له الدموع حزناً ، وتسمن عنه النفوس حسرات. ولقد انتقل شيخنا الحبيب ، فعرفنا كيف يكون الألم فى القلوب والحزن فى النفوس ، والعبرات فى الآماق .

إن آخر سفرة له كانت إلى طنطا ، حيث حضر إخوان طنطا وطلبوا إلى الشيخ رضى الله عنه تشريف بلدهم ، فانتقل إليه ومكث بين ظهرانيهم ماشاء الله أن يمكث ، ثم أخذ يتنقل بين أبنائه ومحبيه فى قرى الأحباب ومدنهم سبعة أشهر كاملة ، تاركاً بيته وأبناءه فى رعاية الله حتى اشتكى رضى الله عنه بحبسة البول ، إثر جهده الجهيد ، وكدحه الشاق ، فحمل إلى القاهرة ، ولكن العلة

اشتدت عليه ، والمرض ألح ، ومع هذا فلسانه كان مرطباً بذكر الله ، وكان وعيه حاضراً ، بكى لديه الأخ الصفى الأستاذ عطيه المكاوى إذ عز عليه مافيه من مرض ، وهو الذى كان فوق القدر همة ، وفوق الأحداث طاقة ، فقال « سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار » . وقد استنفد الأطباء أفراداً وجماعات كل مافى وسعهم من غير طائل ، ومن غير رضاً منه بوجودهم ، كأنه كان على علم بما سطرته الأقدار . ولكن الإخوان الوالهة الهالعة لم تستطع أن تنزل عند رغبته فى عدم استدعاء الأطباء ، وهو أملهم المقصود ، وروحهم المستقرة ، وحياتهم الخصبة — ولو أدركوا إشارته رضى الله عنه فى حكمته تلك التى أشار بهـــا ، لوفروا على أنفسهم مايرجونه من أمل ، وما يأملونه من غاية — ولكن الله يريد أن يريح هذه النفس المطمئنة من طول السرى ، ومشاق الجهاد ، ومتاعب الحياة ، فرفعت روحه كريمة إلى عالم الملكوت ، ثالث يوم الأضحى عام ١٩٣٩ م ، فى منتصف الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ٣١ يناير ، ودفن فى أول فبراير — وقد خف الإخوان إلى مواراة جسمانه الطاهر بين أفئدة تمزقت ، وعيون تقرحت ، وحالة :

تصم الأذان وتعمى العيو ن ويسأل من مثلها العافية

ولكن أين يوارى فى الأرض ، ومكانه لو أنصف القدر فى السماء ، تحير الإخوان ماذا يفعلون ، ولكنهم ألهموا بأن مقره

الكريم لا يمكن أن يكون فى غير المسجد المجاور مسجد الشيخ سليم ، فاتجه عزمهم إلى ذلك بالرغم من مخالفة لوائح الحكومة ومعارضة الموكل بإدارة المسجد وقتذاك — ولكن جثمان الشيخ الطاهر يدفن فى المسجد ، وفى المكان الحبيب إليه الذى كان يختار الجلوس فيه وهو على الحياة ، وتقوم قضايا وقضاة ، لتحويل جدثه الكريم عن هذا المسجد ، وتفشل هذه المحاولات جميعاً ، ويستقر الجثمان المطهر فى مكانه ثاوياً مستريحاً — ولكن الجثمان توارى على عجلة فلا بد من أن يبنى له مكان ذو مكانة ، فيحتفل بعد مضى سنة باخراج جثمانه الكريم رضى الله عنه ليسوى مدفنه ، فيخرج طرياً ندياً مشرقاً كأنه وورى فى صباح يوم الوفاة لم تقو أرضة الأرض أن تمس جسمه الطهور ، وكيف تستطيع ذلك وهيكله الشريف نبت فى ذكر الله ، وصدق الله العظيم : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

فإذا يممت مكانه تنشقت شذى عرفه ، فتأرجت بطيبه ، ومتعت قلبك وروحك بأكرم بقعة وأقدس مكان . ولقد قام الإخوان جزاهم الله خير الجزاء بجمع ماقدروا عليه من مال ، وما وافاهم من حظ فرفعوا مسجده الجديد عالى البنيان ، مشوق الأركان يشع عليه روح وريحان ، ونور وسلام .

محب جاء يقرئكم سلامه ... ويسأل ربه لكم السلامة
ويرجو نظرة منكم إليه ... عساه أن ينال بكم مرامه
فإن جدتم فأنتم أهل فضل ... لكم فى كل مسئلة كرامة
فكيف يضام من يرجو حماكم ... وكيف يضل من أنتم أمامه
وقد حلاك ربك يا «سلامه» ... بأوصاف المظلل بالغمامة
هديت إلى صراط مستقيم ... فعلمت الرجال الاستقامة

مسجد الشيخ

يمشى النيل متهادياً بين شاطئين أخضرين نسجهما بمجاجته العذبة ورحيقه السلسبيل ، حتى إذا دنا من القاهرة اختال بين صفين من قصور تطاول شرفاتها السماء ، وترسو قواعدها على الماء . تشرق بنور ينعكس عليه تارة ياقوتة حمراء ، وتارة زبرجدة خضراء ، وثالثة لؤلؤة بيضاء ، فيتألف من هذه الأضواء على صفحته الملساء زخارف . تغار منها نجوم السماء . حتى إذا رمى بأمواجه الرقيقة ، شاطئ معبر سيدى أبى العلا كان على عدوته الغربية قصور الزمالك المقامة على أنقاض منطقة (السراة والأعلياء) ، وعلى عدوته الشرقية يقوم الحى الشعبى والمدينة القديمة التى كانت فى سالف عصرها ، وتليد مجدها : (ميناء مصر الوحيد) . وقد فرق النيل فى هذا المكان بين حيين ، حى أبدعته هندسة القرن العشرين وهو حى الزمالك ، وحى لا يزال عند عهده وهو حى بولاق ، فإن افتخر

الأول بجماله وجدته ، زها الثانى بمساجده الفسيحة ، وأضرحة الأولياء المباركة .

فى تلك البقعة الكريمة يمتد شارع سليمان باشا الخادم ، وفى طول امتداده يتفرع إلى شوارع جانبية عن يمين ويسار ، ومن هذه الفروع شارعان متجاوران ، أولهما شارع خط الرملة ، وينتهى بالبيت الكريم ، والمنزل الرفيع ، بيت سيدى سلامة حسن الراضى رضى الله عنه ، ويقع أمامه مسجده الشريف ، وثانيهما شارع محرم بك ، وينتهى بمسجد الشيخ رضى الله عنه أيضاً . وعلى ذلك فالمسجد يعقد بين هذين الشارعين .

أما بيت الشيخ رضى الله عنه ، فيكون من طابقين ، طابق أدنى خصص لإخوان الطريق ، ويشمل قاعة المجلس ، ومكتب المشيخة ، وحجرة مشغولة بحاجات الإخوان ، ودورة للمياه وفناء ، وبه درجان ، أحدهما خاص بآل البيت والزائرات ، والآخر يوصل إلى خلوة الشيخ ومطالعته .

وأما المسجد المبارك ، فواجهته فى شارع محرم بك ، ويبلغ اتساعه مايقرب من الخمسمائة متر ، وله أربعة أبواب فى واجهته ، فيقع الباب الكبير فى الوسط تقريباً . أما الباب الأول فعلى يمين القادم إلى المسجد ، وهو مخصص للزائرات . والباب الذى يلى الباب الكبير واقع فى مواجهة المنبر . أما الباب الرابع فيواجه باباً

مفتوحاً فى شارع خط الرملة ، وكل باب منهما مخصص لدورة المياه ، ويفتح فى الجانب الآخر للمسجد نوافذ منيرة .

والمسجد قائم على ستة عمد ، تتدلى بينها ثريات كهربائية ومصابيح ضوئية ، تعطى ألواناً مختلفة ، وهى مدلاة من سقفه السامق .

ومنبره قائم فى ناحية تواجه الضريح الشريف ، وهو مصنوع من خشب ثمين ، وزخرفة متجانسة تعطى منظراً محبباً .

وأرض المسجد مبلطة ببلاط قيم ، ومفروشة ببسط فاخرة ، وسقفه رفيع تزينه ثريات بللورية وتتماوج فيه ألوان الملاحة ، وسلامة الهندسة ، وفوق المسجد مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم . ومبادئ الدين وشىء من العلوم العامة ، والمدرسة خاضعة لوزارة التربية والتعليم ، معانة منها .

وإذا دخلت من الباب الكبير إلى منتصف المسجد وأعطيت المنبر ظهرك ، كنت أمام الضريحين الشريفين ، فالضريح القريب من الباب ضريح الشيخ سليم ، وهو ثاو بين مقصورة خشبية من عيدان مخروطة فى شكل بهيج .

أما الضريح الثانى فضريح سيدى ومولاى القطب الواصل ، والولى الكامل ، السيد سلامة حسن الراضى ، وهو مكون من مقصورة نحاسية ثمينة ، بها باب صغير يفتح فى المسجد ، وداخل المقصورة تركيبة خشبية مكسوة بحرير أطلس ، ومنقوش على الكسوة آيات

قرآنية ، واسم الشيخ الكريم بخط جميل ، وفى سماء التركيبة مصابيح لونية تفيض بلون مستطيل ، وتظلل التركيبة الجسمان الطاهر الشريف .

فإذا كنت أمام الضريح ، فارفع يديك إلى السماء ، واطلب ما تشاء ، تنل ما تشاء ، وقل .

من أمكم لرغبة فيكم جبر ومن تكونوا ناصريه ينتصر

ثم أطلق مشاعرك فى هذا المقام ، وشم ريحان هذا المكان ، وقل معى :

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمة للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

ولقد قام الإخوان مشكورين بجمع تبرعات لإقامة المسجد بعد انتقاله رضى الله عنه ، وقد جمعوا حصيلة كافية أودعوها خزانة الأخ المحترم الحاج إبراهيم محمود ، فنهض مشكوراً ببناء هذا المسجد الكريم والتحفة النادرة على وجه فريد ، ونسق بديع ، فجزاه الله وإخوان الطريق خير الجزاء .

الابن البار

وليس أبر من سيدى ابراهيم سلامة بأبيه ، وكلمة « بار » بمعناها الحقيق ، لا تطلق إلا عليه ، ولا تنصرف إلا إليه .

ولقد أوضحت بعض خصائصه فى أبواب سابقة ، ولكن رأيت أنها لا تشفى غلة ولا تكفى متزيداً . ففضلت أن أسرد بعض نواحيه التى لم أتعرض لها ، وأبينها بشباة قلم أضعف من أن تتسع فتلم بأطرافها كلها ، أو تحيط بامتداداتها المنبسطة فى أرجاء الكمال .

وسير العظماء لا يتعرض لها إلا فحول الكتاب ، ولا تتناوشها إلا الأقلام القوية . وأنى لى هـــذه القدرة التى أعبر بها ذلك البحر الفسيح والخضم المترامى الشواطىء .

على أن الغائص فى أعماق البحار إن لم يستطع أن يقذف الناس بجواهرها ، فلا أقل من أن يعلن عن أماكنها ، فلأكن أنا الرائد ، وليكن غيرى الصائد ، والحياة حظوظ .

قلت : إن سيدى إبراهيم ولد مكفول الحياة بين والدين كريمين ملحوظاً بعين ربه ، مصنوعاً على عينه ، وذلك أنه سبق فى علمه جل شأنه ، أن سيكون له يوم يدثر فيه بحلية الإمامة . ويزمل بوشاح الخلافة ، ومن كان كذلك لا يتنشأ كما يتنشأ الناس ، ولا يجرى على عرقهم ، فكان من نعومة ظفره ومهد طفولته ، مثالا مستقلا ، لم يجنح إلى عبث الأطفال إن كان فى عبثهم مايجر اللائمة ، أو يثير غباراً ، ولم ير قط فى مكان تأخذه فيه عين منتقدة ، أو ألسنة متندرة ، حتى إذا انسلخ من إهاب طفولته ، وتفتح من براعم أولى سنواته ، خطا إلى التعليم العام مختلفاً إليه مصبحاً ، ورائحاً

منه مسيأ ، لم يشق على مدرس فى جلسة ، ولم ينغصه فى لفظة ، ولم يبرمه فى نظام مما نشاهده نحن المدرسين فى تلاميذنا من ألوان تدور لها الرأس ، وتثير الحفيظة . حتى كان يوم انتقال أبيه إلى الرفيق الأعلى إذ حمل أمانته تلك الثقيلة ، وهو لا يزال فى أوائل الشباب وأواخر الصغر والأمانة ثقيلة ترهق كواهل أولى البسطة من الرجال ، فكيف بمن لا يزال فى عمر الزهور ؟؟؟! والجمع بينها وبين مواصلة دروسه ، جمع بين واجبين أخفهما فى ثقل الجبال ، فضحى بمستقبله الدراسى قبل أن يبلغ آخر مراحله ، ليحرس مخلفات أبيه ويحافظ على تراثه العظيم ، وعزفت نفسه عن تعليم لا روح فيه إلى تعليم لم يتلقفه عن مدرس ، ولم ينحله له أستاذ . علم مفاض نورانى ترتاح إليه القلوب ، وتسكن عنده الخواطر . تقلد مقاليد الطريقة والعواصف تهز الإخوان هزاً وترجهم رجاً ، فوقف فى وجهها وصبر على لأوائها صبر الكريم المحتسب حتى تكشفت نواحيها ، وانقشع غبارها ، فإذا هو سيد الموقف والناس من حوله يعجبون . كسب المعركة فى جولة أو جولتين ، ورفع علم الطريق عالياً ، وتقاطر إليه المتخلفون معتذرين ، فعفا عنهم ، وقبل عذرهم ، وضمهم إلى قلبه الرحب ، وما له لا يفعل ذلك ، وجده الأكبر صلوات الله وسلامه عليه قد عفا عن جبابرة قريش ، ودهاقين العرب وسماهم « الطلقاء » ، بعد أن انحنوا إلى دين الله ، وعنت وجوههم للحى القيوم .

تسلم الطريق زاهرة ناضرة ، فسار فيها سيرة الرجل الحكيم ، فلم تزو فيها زهرة ، ولم تجف منها ورقة ، ولم ينتقص منها شعيرة ، وهى الآن تنفح بالطيب ، وتطفح بالأنوار .

جلس فى مكان أبيه — رضى الله عنهما — وفطن أن فى هذا المكان كان مجلس مرب عظيم ، وولى كبير ، وشيخ جليل . فأعطاه حقه من التأدب بأدبه ، والتشكل بشكله ، والسير على نهجه .

رأى بين تلاميذه تلاميذ أبيه فأكرم وفادتهم ، وأعلى مكانتهم وتواصى بهؤلاء الذين طالعوا وجهه الكريم ، أوليس النبى صلى الله عليه وسلم كان يكرم فى جده ، وعمه ، وأبيه ، من أحبه جده وعمه وأبوه . وهل السيد إبراهيم إلا ذرية من ذرارى هذا الجد العظيم صلى الله عليه وسلم ، والحقيقة أننا — نحن الشيوخ — ماشينا صغره معجبين ، ثم شبابه مكبرين ، حتى إذا امتلأ وعاؤه وفاض قلبه ، جثونا بين يديه متتلمذين .

والظاهر أن الله سبحانه وتعالى يسند من تصدر للدعوة إليه ، ويعينه على ما أخذ نفسه به بفيض غزير ، وسر كريم ، وإلا فما هذه البحور التى يقذف منها اللؤلؤ والجوهر ، والعلم الذى يجرى كوثراً ، والنور الذى يشع فى ألفاظه ، ويقبس فى أساليبه ، ويطرب قلوب سامعيه .

يحب أن يجبه بالحقيقة حتى ولو خالف الإخوان فيما ألفوه ،

من تكبير مالا يستحق التكبير ، وتعظيم مالا يستحق التعظيم .
فلطالما رفع صوته مدوياً فى مشيخة الطرق الصوفية بأن عليها أن
تكسح من صفوفها بعض المخرفين والدجاجلة والمهرجين الذين
وسموا الطرق بكل مايعيب ، فإذا ناقشناه نحن إخوانه فى أمرهم
ورأى منا ميلا إليهم نبهنا بأن أمثال هؤلاء نكبة على الطرق جميعاً ،
فإن البعيد عن الطريق يحكم عليها من طريق هؤلاء المجانين . ثم يطرد
فى الكلام قائلا : إن كل جماعة فيها أشواك ، والشوكة الواحدة
تؤذى القدم ، فإذا استأصلناها مهدنا طريق السالكين . ولقد
أعجبت أنا شخصياً بهذا الرأى وقد كنت قبلا ضالا عن أفق الحقيقة
ووجه السداد فى أمر الرهط المشعوذين ، وإنه ربما ترخص بعض
الشىء فى أمر لايترتب عليه نتيجة ، ولا يكون وراءه عاقبة ، أما
إذا كان هذا الأمر يمس مقدسات الطريق من قرب أو من بعد ،
فإنه لايمكن أن يستريح له جانب إلا إذا استراحت الأمور فى
مواضعها ، واستقرت فى أماكنها .

إنه ليجلس بيننا ، فنرى فى وجهه ماء الشباب يتدفق ، ونشاط
السن يتوثب ، ثم يبدأ الحديث ويطرد فيه شيئاً فشيئا ، فإذا هذا
الشاب يتحول فى أعيننا قليلا قليلا ، إلى أن يلبس بزة الفلاسفة
المعمرين ، وسحنة الحكماء المجربين ، ثم يخيل إلينا أننا رجعنا بالتاريخ
إلى عصر والده العظيم ، وإذا الخيال يتجسم فى أعيننا على أوضح

صوره ، فإذا هو والده بجسمه ولحمه ودمه كأن أباه شمله ، أو كأنه هو تقمص ثياب أبيه .

ولا يدهشك هذا ، فإن الروحين إذا تجاوبا سريا فى دقائق الجسمين بلون واحد ، وخاصية واحدة فانفعلا بهما ، والأجسام كما تعلم ظلال الأرواح . فلا غرو إذن أن يبدو فى صورة واحدة وشكل واحد ، كالتوأمين تمسهما الروح معاً فى كهف واحد فيتشابهان فى الخلقة بلون هذه الروح . من هذا أصبح اعتقادنا فيه اعتقاداً راسخاً ، ومن هذا أيضاً لمسنا فيه ما كنا نلمسه فى أبيه رضوان الله عليه من تصرفات وأحوال تحدث بها الكثير من إخوان الطريق . ولا أستطيع أن أذكر منها شيئاً أو بعض شىء ، ولو فعلت خشيت أن يطلع عليها فيوسعنى لوماً ، لأنه لم يرض أن أقص على النـاس بعضاً من كرامات أبيه التى يضيق بسردها كتاب كامل ، فكيف يرضى أن أقص شيئاً عنه ، وهو يعد نفسه لاشىء فى روضة أبيه الفيحاء .

إنك تزوره فى المجلس ، فتجد فيه وقار الشيوخ ، وسمات الأولياء ، وسر الصالحين ، فتجلس أمام رجل اكتملت له كل المواهب . فإذا انتابتك منه هزة ، تكشف عن روح الشباب ، وجمال الصبا ، ومرح العاطفة ، فيستقر قرارك وتأخذ أنفاسك . ففيه إذا جد سلطان طاغ على قلبك يملكه ، وإذا لاطف ففيه ظرف الطبع ، وطلاوة الحديث ،

فإذا زرته فى منزله الخاص وفيك بقية من رهبة المجلس ، تبدل حالك إذ صرت أمام إنسان مشرقة بسمته ، ضاحكة أساريره ، منفتح قلبه ، تجذبك لقياه وتأسرك مودته ، كأنك وأنت بين يديه فى المجلس تلميذ يأخذك الجد وتطويك الرهبة ، فإذا كنت فى بيته الخاص ، كنت معه فى نزهة خلوية ، تخففت فيها من جلال سلطانه ، إلى جمال جواره الرقيق .

ومن دواعى غبطته أنه لا يسرح وقته فى تعطيل ، ولا يشغل زمناً بفراغ ، فهو إن خلع عن منكبيه ثياب المشيخة غمر نفسه فى عمل يدر عليه أفياء الرزق ، فيناظر مكتبته ويلاحظها كما يلاحظ كل عامل وجه كسبه ، وسبيل دخله ، فى يقظة ونشاط ، ليكون مثالا حياً لتلاميذه ، ونموذجاً يحتذى به ، فهو لا يود إلا أن يكون متقلباً فى عالم الأسباب .

وقد يدهشك أنه وإن كان أصغر مشايخ الطرق سناً فهو بينهم مرعى المكانة ، مقدر الشخص ، مسموع الرأى . يتحبب إليه أعلاهم سناً ، وأطعنهم فى الطرق تاريخاً ، مزية اكتسبها بنفسه ، وأحرزها بأدبه ، وظفر بها بأخلاقه وسمو سجاياه .

وهو والحق يقال يقابلهم وداً بود ، ومعروفاً بمعروف ، فما احتفل أحد منهم بولى ، أو أقام حفلا لمناسبة ، إلا وانتظر منه مدداً من فيضه ، وستراً من رعايته ، فيكون عند حسن ظنه ،

ويسير بإخوان الطريق فى موكب عامر ، وحفول جامعة ، تأخذ أقطار الفضاء .

فإذا وصل أنزله الشيخ الداعى فى مقلة عينه ، وسويداء قلبه ، معززاً كأحسن ماتكون المعزة ، مكرماً كأحسن مايكون التكريم .

إن هناك قلة من الأشخاص تكاد ترى باطنهم من ظاهرهم ، وسرهم من نجواهم ، يلقون الكلمة إلقاء فتخرج عارية من أصباغ الصناعة ، ومتجردة من دهان اللسان ، فلا تكاد تسمعها حتى تستقر فى موضعها من نفسك ، لأن مخاطبة الضمير يسمعها الضمير ، ولغة القلوب تتلقفها القلوب .

من هذا الطراز سيدى إبراهيم سلامه ، فإنه مااصطنع كلمة قط ولا دار بها فى مواطن التمليح فى نفسه ، لتخرج لامعة وضاءة ، فإذا لامستها شمس الحقيقة نصل صبغها ، وحال لونها ، وساح دهانها . لذلك كانت عباراته كلها خالية من أدوات التأكيد ، فإن محدثيه بلغ من ثقتهم به مبلغ المصدق بكل مايقول ، المؤمن كل الإيمان بسلامة روايته .

هذه المنقبة تسهل لنا فهم ما أودع فى سجاياه من سليقة التسامح وجميل العفو . فقد تطير إليه كلمة نابية ، فما أن تحلق فى أذنه حتى ينقبض لها قليلا بمقدار ماتدور هذه الكلمة فى مطاوى قلبه ، فتمس موضع التسامح منه ، فيذيبها ذوباناً ثم يلفظها إلى ما وراء باله ،

فتمضى وكأنها لم تكن ، وإذا عبسة وجهه تتحول إلى بسمة مشرقة فى صفحة وجه نضير ، هذا إذا كان مسيئه حيثية راشدة لها فى نفسيه فضلة من احترام ، أما إذا كان سفلة وسقطاً ، فإن آخر عيبته ينسيه أولها فتمر على أذنيه كأن لم يكن هناك كلام يقال .

إن القاموس المحيط يأبى معدنه الكريم الجيفة ترمى به ، فإنه لايزال تتقاذفها أمواجه من تيار إلى تيار حتى تلفظها على الساحل نهبا لأنياب الذئاب ومخالب الطيور .

أعرف أنا كما يعرف كثير غيرى أنه فى جفوة مع أحد خدم أبيه ، فيسمع من لايحفظ له غيباً ، ولا يراعى له حرمة ، فيسكته مراعاة لطيف الود القديم ، وأشهد أن هذه مكرمة الوفاء ، وعظيم النبل ، من نفس تمرست بألطيب من خلق كريم .

والحقيقة التى أدين بها وأعتقدها ، أن من أحب أباك مخلصاً أحب معه كل شيء حتى خادمه بله ابنه بضعة قلبه ، ومسرى روحه وبقيته فى الحياة ، فإذا ظهر بغير هذه الصحيفة كذبه صوت قلبه ، وواقع ما يبطن .

إن سيدى إبراهيم هو الشاب الذى ينضح من عقل الشيوخ ، والشيخ الذى يتزين بصفح الشباب ، والقلب الذى ينفح بالبر والرحمة والوفاء .

يقف إليه البائس المتعطل ، ومن وراءه ذرية عجاف ،

هزم الدهر ، ولفتهم الفاقة ، فيعجله بالموجود ، ثم يكلف من يستطيع أن يفتح له باباً بأن يلحقه بوظيفة ، ولا يزال يطأ خطواته خطوة خطوة إلى أن يبتلعه عمل فيبتلع ريقه ، ويحمد الله شاكراً .

هذه شخصية تفتحت من براعم الأيام ، فكانت للشم عطرا ، وللعين نورا ، وللخير هديا ، وللناس أملا ورجاء .

وقد بلغ من نضوج تفكيره ، وسلامة فطرته ، أن اشترع لأحبابه خططاً تعاونية رشيدة يستظل بها المصحر ، ويثوب إليها العانى ، ويجد فيها من انقطع به حبل الرزق ، سد رمقه ، وإمساك حوبته قائلا لهم : إن المؤاخاة فى الله يستتبعها التعاون مع المحتاج والبر بالفقير ، وجبر من نخر عظمه سوس الأقدار .

كيف لا ، وقد آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فى دار هجرتهم . فكان الأنصارى ينزل لأخيه المهاجر عن نصف ماله ويشركه فى جواره ، ويفتديه بالعزيز الغالى بروحه التى بين جنبيه .

وهو سخى اليد سباق إلى المعروف ما استعرضت حالة شخص أمامه ووجد أنه فى حاجة إلى معونة إلا كان اسمه على رأس قائمة التبرعات ، حتى إذا رأى إخوانه منه ذلك انجرت أيديهم إلى جيوبهم فأخرجوها بنافلة ، وأثقلوها بعطاء .

وأنت إذا شئت أن تكون قدوة فليسبق عملك قولك ، فإن العمل هو أنطق من القول لساناً وأرجى منه عائدة ، وإن كان صامت المنطق مطوى اللسان .

يقال : إن سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه لما ولى الخلافة وقف فى الناس يخطبهم ، فارتج عليه ؛ فحاول ثانية فلم يفتح عليه ، فقال : أيها الناس — إنكم فى حاجة إلى رجل فعال أكثر منه إلى قوال فكانت كلمته تلك مع قلة ألفاظها وقصر عبارتها ، من جوامع الكلم .

إن نواحى سيدى إبراهيم من التشعب بحيث لا يستطيع قلم أن يجمعها فى فصل وإن طال ، فلنترك تلك المحاولة ، ونتوجه إلى الله مخلصين ، أن يبارك له فى يومه وغده ، ويلطفه بكمال فوق كمال ، ويرعاه بعناية صمدية ، ومنزلة قريبة ، ويجعله خلفاً كريماً لسلف كريم .

شعر للمؤلف

الروض ينفح والأزهار ألوان ... والنور يقبس والنوار مزدان
والروح والروح فى أفيائه اجتمعا ... فأين من طرحه عنب ورمان
ياروضة مالها فى الناس من شبه ... فظلها قربة والطعم إيمان
من سيرة عبقة دبجت صفحتها ... يمشى بأسطرها روح وريحان
إن تتلها تتل مافى الدين من غرر ... كأنها فى نواحى الخير قرآن
قد خط أحرفها وشى وزينها ... هدى ونور وإشراق وقربان
رحيقها إن سرى فى الروح نشوته ... خمــر تكوفه فى الحى ندمان
وإن تجلى بنور الحق فاز به ... فى غيبة الوعى والإحساس سكران
ومن ترى مثل سيدنا وقدوتنا ... مثلا إذا انداح فى الميدان فرسان
بجلياً لاينال العدو ساقته ... ولا ينازعه فى السبق أقران
من ذا ينازع من بالله سطوته ... أو يرتقى ماارتقى فى القرب إنسان
لولا رضوخ إلى سنن الحياة لما ... ثوى به بين هذا الرمس جثمان
فنظرة ياحبيب القلب تنفعنا ... فنحن والله والراضى إخوان
وامنح بفضلك سيف النصر مأمنة ... إن عضه الدهر أو فاعته أزمان
والحمد لله أولا وآخراً ؟

سيف النصر محمد عشرى

١٦ رجب سنة ١٣٧٥ ، ٢٨ فبراير ١٩٥٦

فهرس الكتاب



خليفته سيدي إبراهيم سلامه الراضي
رضي الله عنه







سيدى سلامه بن حسن الراضى (رضى الله عنه)